ميخائيل زابُوروف

بالسيف و الصليب

ترجمة:

د.هاشم حمادي

بالسيف والصليب

بالسيف والصليب

ميخائيل زابوروف

ترجمة: د.هاشم حمادي

الطبعة الأولى: ٢٠٠٦

الناشر: دار الرأي

ص.ب ٩٠٣٦ دمشق

تليفاكس: ٠١١/٦١٢٩٧٥٧ - ٠٩٥/٤٨٥٤٨٠

info@daralrai.com

الإخراج الفني: همام بهلول ـ جوال: ٠٩٥/٤٥٠٧٧٥

توزيع

دار الحصاد – دمشق | دار السوسن – دمشق

تليفاكس ٢١٢٦٣٢٦ | تليفاكس ٦٦٦٥٦٩٦

بالسيف والصليب

ميخائيل زابوروف

ترجمة: د.هاشم حمادي

أمام حقيقة التاريخ:

لا يستطيع الباحث الجدي، وهو يدرس الحياة الاجتماعية والسياسية المعاصرة، ويحلل الصراع العقائدي، الجاري على الساحة الدولية أن يتجاهل الحقب التاريخية الغابرة فالحاضر والماضي على ارتباط وثيق فيما بينهما.

وليس بوسع الباحث الاجتماعي، وهو يبحث عن المعلومات في مصادر التاريخ المعاصر، بما فيها وسائل الإعلام، إلا أن يغوص في المراجع التاريخية القديمة، من مخطوطات ومدونات وحوليات كتبها الرهبان والفرسان- المدونون. وكما أن معرفة الواقع الراهن تسمح بتسليط الأضواء بشكل أفضل على الجوانب المختلفة للماضي السحيق، فإن الحاضر، الذي نعيشه، ونعتبر شهود عيان على مجرياته، يبدو أكثر وضوحاً في ضوء الماضي.

يقول لينين: "إن الأهم في مسألة العلوم الاجتماعية ... هو أن لاننسى الارتباط التاريخي الأساسي. وأن ننظر إلى كل مسألة من زاوية كيفية نشوء هذه الظاهرة المعروفة في التاريخ، وما هي المراحل الأساسية، التي مرت بها هذه الظاهرة، عبر تطورها، ومن زاوية تطورها هذا ننظر إلى ما أصبحت عليه الآن".

وتلقى هذه الفكرة البالغة العمق الكثير من الوقائع، التي تؤكدها في واقعنا المعاصر.

وتلفت الانتباه تلك السمة المميزة للعديد من الدراسات والمقالات الصحفية، المكرسة لمسائل السياسة العالمية! فهذه المواد غنية بالاقتباسات والمقارنات والمتوازيات والمفاهيم والمصطلحات التاريخية.

ويكثر كتابها من استخدام المفردات والعبارات، التي دخلت كتب التاريخ والموسوعات، بالمعنى المباشر والمجازي.

ومن بين هذه المفردات، التي غالباً ما ترد في المقالات والدراسات، المكرسة للسياسة المعاصرة. ونصادفها في سياقات مختلفة، "الصليبيون"

"الحملة الصليبية".تارة يدور الحديث حول " حملة الناتو الصليبية في أفريقيا" وتارة حول حملة "الصقور" الأمريكيين الصليبية ضد الشيوعية

وثالثة حول "تحالف الصليبيين" أي التعاون بين النازيين في ألمانيا الغربية والعنصريين في جمهورية جنوب إفريقيا.

ورابعة حول " الحملة الصليبية ضد الماركسية – اللينينية، التي تشنها الدعاية البورجوازية بالتعاون مع التحريفيين.

وهكذا يبدو وكأن المفهومين التاريخيين " الصليبيون" "الحملات الصليبية" يكتسبان اليوم مضموناً جديداً. بعيداً عن مصدرهما التاريخي الأصلي.

لكن ما هو المعنى الأصلي لمثل هذا النوع من المفاهيم؟ ولماذا دخلت المفردات والعبارات، التي تضرب بجذورها عميقاً في تاريخ الكنيسة المسيحية القروسطية، القاموس السياسي المعاصر، ولغة الأدب الدعائي؟ وماهي العلاقة فيها بين موقف الإنسان المعاصر من الدين والسياسة وبين الآراء والممارسات، التي سادت في العصور الغابرة؟

كل هذه الأسئلة ليست ثانوية أبداً، وليست مجردة، كما يمكن أن تبدو للوهلة الأولى.

وهدفنا من الإجابة عليها ليس إشباع حب الاطلاع لدى القاري، بل أن نساعد في تجاوز التعصب الديني، الذي لا يزال يعشش في وعي البعض، وأن نساهم في إرساء التسامح الديني، من خلال عرض المآسي، التي تمخضت عنها الحروب، التي شنت باسم الدين، والدين منها براء، لكنها تسترت بعباءته، بهدف إخفاء جوهرها العدواني- التوسعي. ولنعد بأفكارنا إلى الماضي البعيد، الذي طواه النسيان... فماذا نرى ؟

مدينة ضخمة، شبه مدمرة، تتناثر في طرقها الأحجار المكسرة، والأواني المحطمة، والأدوات المترلية المبعثرة.

وفي النيران تلفظ أنفاسها الأخيرة أوراق المخطوطات القديمة الممزقة. والتماثيل الرائعة رميت عن قواعدها، وحطمت . وفي الساحات أطلال

الأعمدة المرمرية. ومن فوق ذلك كله تتراقص ألسنة اللهب، فالمدينة تشتعل.

تشتعل المنازل ومستودعات التجار والكنائس. وفي كل مكان يُسمع الصراخ والأنين والبكاء، ويتدفق الدم أنهاراً.

وفي وسط هذا الجحيم ترى المقاتلين، ذوي الخوذات المعدنية الدائرية، والصلبان القماشية، المخاطة على أرديتهم، تراهم، وقد جن جنونهم، فأشهروا سيوفهم ورماحهم وبلطاتهم، واندفعوا يقتحمون القصور والمعابد والمنازل، ينهبون كل ما يبدو لهم ذا قيمة .

كما ترى رجال الدين، الذين لايقلون حماسة عن المقاتلين، فها هم يسرعون إلى ملء جيوبهم الواسعة بالكنوز الكنسية، ورفات القديسين وذهب الإيقونات ....

حدث ذلك في ربيع عام ١٢٠٤ في القسطنطينية، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، التي راحت ضحية غزو عصابة الفرسان – الصليبيين.

لم تكن تلك المرة الأولى، التي قامت بها عصابات الفرسان الصليبيين بأعمال النهب والتدمير والقتل في ما وراء البحار.

فالحملات الصليبية بدأت منذ نهاية القرن الحادي عشر، وكان كبار المشاركين فيها هم الإقطاعيون الأوربيون، بينما كان بابوات روما هم من نظمها وحمل لواء الدعوة إليها .

كان الهدف المعلن للحملات الصليبية هو حماية الدين المسيحي من الخطر المزعوم، الذي يتهدده من جانب المسلمين، الترك والعرب، وإنقاذ القدس "وقبر الرب " فيها من "الكفار" أو الساراتسين. وهكذا انطلقت جحافل الفرسان إلى هناك، نحو الشرق. لكن كيف وافق البابوات، بعد نيف ومئة عام من تسيير الحملة الصليبية الأولى، " دفاعاً عن المسيحية"، كيف وافقوا على قيام الصليبيين بتدمير مدينة القسطنطينية المسيحية؟ وماهي ماهية الحملات الصليبية، التي شكلت حقبة كاملة من العلاقات بين الشرق والغرب، بما في ذلك العلاقات بين الديانتين الإسلام والمسيحية؟

وماهي النتائج، التي تمخضت عنها المجازر الدامية، التي ارتكبها الصليبيون في شرق المتوسط على مدى ما يقرب من قرنين من الزمن؟ وأخيراً هل أثـــرت الحملات الصليبية بشكل ما على المصير اللاحق لأوربا الغربيـــة وبيزنطـــة وبلدان الشرق الأوسط؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة وغيرها من الأسئلة الكثيرة الأخرى، التي يواجهها كل من يود التعرف على التاريخ واستقاء العبر منه، هي المهمـــة الرئيسة لهذا الكتاب.

صحيح أن الحملات الصليبية تعود إلى القرون الغابرة، وقد ولت إلى غير رجعة، كما أنها مجرد حقبة صغيرة في التاريخ الطويل، لكنها تركـــت بصماتها العميقة على مجرى الأحداث في القرون اللاحقة، ولا نبالغ إذا قلنا إن هذا التأثير لازال يتجلى حتى يومنا هذا.

وأخيراً فإن بودنا أن يساهم عرضنا هذا، وإن مساهمة متواضـــعة، في الكشف عن المغزى الحقيقي لهذه الحقبة من التاريخ وانعكاساتها اللاحقـــة، وإن بأشكال وصيغ مختلفة.

الفصل الأول
كيف ظهرت الحملات الصليبية
ومن كان وراء ظهورها.

مجمع كلير مون : الدعوة للحرب على "الكفار".

في ذلك اليوم الصافي من شهر تشرين الثاني تقاطر الناس من مختلف الفئات الاجتماعية إلى السهل الواسع، الممتد إلى الشرق من مدينة كلير مون الفرنسية وبينهم عدد كبير من الأسياد، يحيط بهم حملة السلاح، وعدد أكبر من الفرسان، بعضهم يمتطي الجياد، والبعض الآخر يقف مستنداً على الرماح . وتدل الأردية البالية لبعض المقاتلين، والسروج العتيقة، التي بالكاد تغطي خواصر الجياد الهزيلة، على أن هؤلاء الفرسان لم يكونوا بالموسرين، وإن كان بوسع البعض منهم أن يفاخر بأصله النبيل، الذي تدل عليه الشعارات العريقة على التروس، والرايات والشرائط المثبتة على رؤوس الرماح.

وهنا وهناك برزت أردية القساوسة السوداء، وثياب الرهبان المميزة.

لكن أغلب المجتمعين كان من الفلاحين، الذين توافدوا من الأماكن القريبة، والذين كانوا من الهزال إلى الحد الذي يبدون فيه للرائي جلوداً على عظام، أما وجوههم، التي تكسوها اللحى الكثيفة، فكانت شاحبة تغطيها التجاعيد. وكانوا يرتدون القمصان الصوفية والسراويل الفضفاضة، المصنوعة من جلود الحيوانات، والأحذية السميكة، المصنوعة من جلد الخنزير، وذات النعل الخشبي.

وفي المكان نفسه، على العشب الخريفي المصفر، جلس الدراويش القذرون، في أطمارهم، بعضهم يهمهم بشيء ما، وآخرون يلوحون بالصلبان الصغيرة، ويتمتمون ببعض المفردات والجمل أحياناً ...

فما الذي دفع بهذه الآلاف إلى كلير مون؟
لم يأتوا لعرس أو حفل
ولا لمبارزة حربية مسلية،
ولا لاستعراض الجياد والسلاح
تقاطر على كلير مون
العمالقة من مختلف الأصقاع
فالمروج المزروعة بالأزهار،
والساحة العامة تغص بالضيوف،
الذين أتوا من كل حدب وصوب،
كما الأمواج المتدافعة،
وانعكست أشعة الشمس
على الرايات والمناديل والريش والغفارات
والشعارات والشرائط والرموز
والزرقة والأرجوان والمعدن.

لكن الخيال الخصب لهذا الشاعر حلق بعيداً عن الواقع المزري: فأغلب أولئك، الذين غص بهم سهل كلير مون، في صباح السادس والعشرين من شهر تشرين الثاني الشهر /الحادي عشر/ عام ١٠٩٥ كانوا من القرويين العاديين، زارعي القمح والكرمة، فما الذي جاء بهؤلاء وبأولئك الفرسان والأسياد إلى هنا؟

منذ عهد بعيد، راجت الإشاعات هناك أن بابا روما نفسه /أوربان الثاني/، الفرنسي الأصل، سيلقي خطبة هامة. وكان البابا قد وصل إلى فرنسا لثلاثة أشهر خلت. وعشية السادس والعشرين من تشرين الثاني المذكور، اختتُم في كنيسة كلير مون اجتماعُ ضم كبار رجال الدين، الذين توافدوا من مختلف أنحاء المملكة، وقد زاد عددهم على الثلاثمئة من المطارنة والأساقفة والقساوسة، هذا بالإضافة إلى مشاركة البابا الفعالة في هذا المجمع الديني الفرنسي، الذي استمر أسبوعاً كاملاً .

إن رؤية وسماع بابا روما، الذي يعتبره المتدينون في الغرب خليفة الله في أرضه، حدث جلل، وفرصة لاتسنح إلا نادراً. ولاشك أن أمراً بالغ الأهمية هو الذي حدا بالحبر الأعظم أن يغادر مقره في إيطاليا، ويتكبد وعثاء الانتقال عبر الألب العالية. إن ظهور رأس الكنيسة الكاثوليكية في كلير مون يكاد بحد ذاته أن يكون معجزة. فهل يمكن تفويت مثل هذه الفرصة النادرة؟ راح الناس يتدفقون على المكان، حتى أصبح يغص بمن فيه. ومع طول الانتظار بدأ الملل يدب في النفوس، وراح المجتمعون يهمهمون تذمراً وتبرماً، ومع مرور الوقت ازدادت حدة التذمر والتبرم. وفجأة انتعشت الآمال، ودبت الحركة في الصفوف، وراح الجميع، وكأنما تلقوا الأمر بذلك، يترعون القبعات والخوذات، وخر الكثيرون على ركبهم.

فمن بوابة المدينة المفتوحة (في المكان، الذي تقوم فيه الآن ساحة دليل، مؤلف نشيد"مارسيليزا") خرج الموكب البابوي المهيب، يتقدمه رجل بدين، متوسط القامة، كهل، في ثياب بيضاء من الديباج، مزدان بالصلبان المصنوعة من الخيوط المذهبة، وعلى غطاء رأسه، المتوج بصليب، تلمع الأحجار الكريمة بألوانها الزاهية. ذلكم هو البابا أوربان الثاني، ومن خلفه البطانة العديدة من المشاركين في مجمع كلير مون، ترتدي البنفسجي والقرمزي والأسود.

ارتقى البابا، وقد أسنده اثنان من الكرادلة. المنصة الخشبية، التي بنيت البارحة. ولكي تراه الجموع، وتسمعه بشكل أفضل، وقف على عرشه، ومن ثم لوح بيديه طالباً الهدوء. وحين تلاشى هزيم الأصوات، وجه للجموع كلمة طويلة وبليغة. لكن خطبة البابا الحقيقية لم تصلنا، فالمدونون القروسطيون. الذين يتحدثون عن هذه الفترة، يختلفون في نقل وقائع هذه الخطبة، سيما وأن قلة منهم، بمن فيهم الراهب روبيرت من مدينة ريمز الفرنسية، سمعتها، ومع هذا فإن مغزى الخطبة العام متفق عليه من قبل الجميع تقريباً، حتى إن بعض المدونين ينقلون الوقائع بشكل يتطابق حرفياً.

دعا البابا جميع المسيحيين المؤمنين إلى التمنطق بالسيف، والانطلاق نحو البلدان النائية، الواقعة خلف البحر، لمحاربة المسلمين. وأشار أوربان الثاني إلى أن " قبيلة الترك الفارسية" لم تكتف بالتوغل في أراضي رومانيا /بيزنطة/، والفتك بسكانها المسيحيين، بل واستولت على مدينة أورشليم المقدسة. وهكذا فقد وقع ضريح الرب وغيره من المقدسات في أيدي "الكفار"، وراح الأتراك يدنسونها، ويعيثون فيها فساداً وتخريباً، حيث يحولون الكنائس إلى زرائب، ويهدمون المحاريب، ويدنسونها بإفرازاقم، ويدوسون الأوعية الكنيسة،ولا يتورعون عن توجيه الضرب والإهانات لرجال الدين. وأعلن البابا أن الأمر لم يعد يطاق، وأنه لابد من استعادة الأرض المقدسة من "الكفار" على جناح السرعة. فليهب المسيحيون لقتال "الوثنيين"، وللتدليل على أهم يقاتلون من أجل الدين الحق، ليخيطوا على ثياهم الصلبان المصنوعة من القماش الأحمر.

وفي كلمته خاطب البابا الفرسان بقوله: "إن هذه الأرض، التي تقطنون، محصورة من كل الجهات بالبحر والسلاسل الجبلية، وقد ضاقت بعديدكم، وليس فيها الكثير من الخيرات، وهي بالكاد تكفي بأود من يستثمرها. ومن هنا قيام كل منكم بنهش الآخر والتهامه، ومن هنا شنكم الحروب ضد بعضكم البعض، وقتل بعضكم بعضا. ألا فلتضعوا حداً للكراهية فيما بينكم، ولتوقفوا العداء، ولتنهوا الحرب، ولتخلد إلى النوم كل نزاعاتكم وخلافاتكم.سيروا في طريق الرب، وانتزعوا تلك الأرض من أيدي الشعب "الكافر"، وقوموا بإخضاعها لأنفسكم. وكما ورد في الكتاب المقدس، فهذه الأرض تسيل لبناً وعسلاً.إن القدس هي محور الكون، وهي غاية في الخصب، بالمقارنة مع الأراضي الأخرى، وتكاد تكون جنة الله على أرضه... لكنها قمفو إلى الحرية، ولا تكف تستغيث طالبة منكم أن قمبوا لنجدقا.

وفي لهاية خطبته وعد البابا كل من "يحمل الصليب"، أي من ينطلق حرباً على المسلمين، بغفران الذنوب والإعفاء من الديون. وبالجنة لكلِ من يستشهد في القتال من أجل المسيحية.

أحدثت خطبة أوربان الثاني التأثير المطلوب في نفوس الناس وعقولهم، وكم من مرة قاطع هؤلاء الخطبة بصيحاتهم الحماسية: "الله يريد". وفيما بعد اختيرت هاتان الكلمتان، بتوجيه من البابا، لتكونا هتاف الحرب عند الصليبيين، حيث أوصاهم: "وحين تلتحمون في القتال مع العدو، ليهتف الجميع بصوت واحد: "الله يريد".

وبعد مرور أربعة أشهر على إطلاق الدعوة من أجل تحرير الضريح المقدس زحفت جموع الفلاحين الغفيرة من فرنسا وألمانيا باتجاه القدس. وبعد ذلك بأشهر قليلة بدأ فرسان العديد من بلدان أوربا الغربية الحرب على العالم الإسلامي، تلك الحرب التي أعقبتها حروب أخرى ضد بلدان الشرق الأدنى. وقد دخلت هذه الحروب التاريخ تحت اسم- الحملات الصليبية _ حيث كان المشاركون فيها يضعون شارات الصليب القماشية على صدورهم أو أكتافهم.

فما الذي جعل جماهير المزارعين، ومن ثم عشرات الآلاف من الفرسان، يغادرون مسقط رأسهم؟ أهو الوازع الديني، والرغبة الصادقة في إنقاذ الأرض المقدسة من التدنيس، وتحريرها من أيدي "الوثنيين"، الذي جعل بابا روما يدفع بهؤلاء الناس للحرب في بلدان مجهولة ضد عدو مجهول؟ أم كانت ثمة أسباب أخرى وراء تبني الفلاحين العاديين وبسطاء الفرسان والكونتات، ذوي النفوذ الواسع، دعوة أوربان الثاني إلى الحرب من أجل إنقاذ ضريح السيد المسيح؟

الفقر المدقع:

تميز القرن الحادي عشر في تاريخ أوربا الغربية بالاضطراب. فقد كانت الكوارث تتوالى في موجات متعاقبة على القرى والمدن، التي كانت لاتزال قليلة العدد آنذاك.

فالقرية عبارة عن بيوتات قميئة، مغطاة بالقش. وتحت سقف واحد تنحشر أسرة الفلاح مع مالديها من ماشية، تقتصر في الغالب على عنزة أو

خنزير، ونادراً ما تكون لدى الفلاح بقرة. و لم يكن ثمة للبيت مدخنة، فكان الدخان يخرج من فتحة في السقف، ويبقى داخل البيت في أغلب الأحيان.

كانت حياة الفلاح قاسية، سداها الفقر، ولحمتها العوز والجهل. إذ كان مضطراً لأن يكسر ظهره في العمل في أرض سيده، ومن ثم في حاكورته (قطعة أرض) الصغيرة، من الصباح حتى المساء، ومع هذا فقد كانت أسرته تعاني من الجوع، إذ لم تكن كمية الخبز وغيره من المواد الغذائية بكافية لسد حاجة ما لديه من أفواه. كانت المحاصيل ضئيلة، الحقول الصغيرة، الموزعة هنا وهناك، كانت تستثمر يدوياً، بالاعتماد على الفأس والرفش، صحيح أن المحاريث كانت موجودة، لكن على نطاق ضيق جداً. ونادراً ما كانت الأرض تسمد، وعند الزراعة كانت البذار ترش باليد، فكانت الطيور تلتقط معظمها، هذا عداك عن الأعشاب الطفيلية، ومن هنا المحاصيل القليلة، مما كان يضطر الفلاح إلى استهلاك الحبوب المخصصة للبذار، ويجعله بالتالي عاجزاً عن زراعة حقله. كان الجوع يضرب أطنابه في الريف، ويحل ضيفاً ثقيلاً على الفلاحين، فكانوا يضطرون إلى أكل الفطائس، و لم يكونوا يتورعون عن تناول القطط والجرذان، والأعشاب وأوراق الكرمة، حتى أن الأمر وصل بهم إلى تناول اللحوم البشرية.

وقد تميزت نهاية القرن بكثرة سنوات القحط، حتى أن المؤرخين أطلقوا على الفترة، التي سبقت الحملات الصليبية، اسم " السنوات العجاف السبع".

يقول المدون الفرنسي الكاهن جفيبرت نوجان في وصف الوضع في البلاد عام ١٠٩٥: كانت الفاقة تنتشر في كل مكان... نتيجة قلة القمح... وقد حاولت جموع الفقراء سد الجوع بالتهام جذور النباتات البرية، أما الخبز فكان وجبة نادرة.

كان الجوع يفتك بالناس والحيوانات، هذا عداك عن الأمراض، التي أودت بحياة الآلاف من أبناء الريف والمدن، الذين جعلهم الجوع عاجزين عن مقاومة المرض.

ومن عام إلى آخر كانت تتكرر الصورة نفسها، التي يصورها المدونون بشكل رتيب، ولا يكاد هذا العام يختلف عن العام السابق أو اللاحق.

عام ١٠٩٣: عواصف وطقس سيء في إنجلترا. فيضانات في الربيع، وصقيع قاس في الشتاء. ماتت كل المزروعات من البرد. وفي ألمانيا كان المحصول رديئاً، حيث أدت الأمطار الغزيرة والمستمرة، التي هطلت في الخريف، إلى إتلاف القسم الأكبر من المحاصيل، مما أدى إلى تفشي الجوع.

عام ١٠٩٤: موت بالجملة نتيجة انتشار وباء "الطاعون الناري"، الذي اجتاح العديد من بلدان أوربا الغربية.هذا عداك عن الهطولات الغزيرة، التي استمرت، في بعض المناطق، من الشهر الحادي عشر /تشرين الأول/ ١٠٩٤، وحتى نيسان ١٠٩٥، مما أدى إلى إلحاق ضرر كبير بالمحاصيل. وإذا كانت حدة الجوع قد خفت في جنوبي فرنسا، وفي بعض أقاليم ألمانيا، فإنه لم يلبث أن ضرب بكل قوته في شمالي فرنسا وإنجلترا. وبكل إيجاز يصف مدونو دير القديس أوغسطين الوضع آنذاك بقولهم: "الكثير من القرى أصبحت خالية من المزارعين".

عام ١٠٩٥: كان هذا العام "عام الكوارث"، كما يقول الراهب سيجبرت من جامبلو، حيث كتب يقول: "لم يلبث الجوع أن تفشى بقوة وعلى نطاق واسع".

ماطِرَين كان الصيف والخريف،
فانغمرت المواسم والمحاصيل.
وفي الحقول لم ينضج القمح وضاع،
فحل الجوع، وحصد الموت الأرواح.

على هذا النحو يصور الشاعر الروسي جوكوفسكي الوضع في نهاية القرن الحادي عشر، في قصيدته، التي يتحدث فيها عن أسقف بخيل وظالم، لم يتورع عن استدراج الفقراء، الذين جاءوه في طلب القروض لشراء الخبز، إلى أحد الأقبية، ليقدم لهم الطعام، وهناك أضرم النار فيهم.

والواقع أن أسباب فقر الريف الأوربي - علماً أن الغرب كان ريفياً في معظمه – لاتقتصر على سوء المحصول، وقله الاعتناء بالأرض أو المزروعات، أو الجفاف أو الفيضان، بقدر ما كان هذا الفقر ناجماً عن نظام الملكية القائم، فالمزارع لم يكن حراً، بل كان قنّاً. والأرض، التي يعمل فيها، ملك للسيد الإقطاعي، أما هو فكان مجرد عبد يعمل في خدمته. ولقاء استثمار الأرض كان عليه أن يدفع له قسماً من المحصول، الزهيد أصلاً. ثم إنه لم يكن يستطيع العمل في أرضه أكثر من ثلاثة أيام في الأسبوع، بينما يمضي الأيام الأخرى في العمل لدى السيد- يحصد محصوله، ويجمع له الحشيش، ويجهز الحطب اللازم للشتاء، ويقوم بالعناية بالمترل.

وعدا عن هذه الأعمال والإتاوات العينية (الزبدة والجبن والحليب والبيض)، التي تقدم للوكيل، كان السيد يجبر أقنانه على دفع مبالغ مختلفة. فعلى كل ريفي أن يدفع للسيد مبلغاً معيناً كل عام، وبمناسبة عيد الميلاد كان عليه أن يدفع ما يسمى بضريبة الموقد. كما كان عليه أن يدفع للسيد لقاء رعي القطيع في أرضه، ولقاء قطع الأشجار في غابته، وحتى لقاء بقاء أسرة الفلاح بعد موته، في الكوخ، الذي كانت تقطنه. فأملاك الأقنان ملك للسيد، الذي لم يكن يتخلى عنها لأسرهم إلا لقاء تعويض.

وفي القرن الحادي عشر أصبحت الإتاوات نقدية, بالإضافة إلى العينية.وكانت الإتاوات النقدية عبئاً ثقيلاً جداً على كاهل الفلاحين المعدمين, الذين كانوا يضطرون لبيع آخر ما لديهم من مؤونة لتسديدها في الوقت المحدد. ولم يكتف الأسياد بهذا كله، بل كانوا ينهبون خيراتهم ثلاث مرات، وأربع مرات، بل وأكثر، في العام، ويرهقونهم بالأعمال الكثيرة، ويحملونهم فوق طاقتهم، وهكذا تقترن المدفوعات، وأعمال السخرة، بأساليب النهب والإجراءات التعسفية.

وكانت الحروب، التي لايكف الكونتات والبارونات عن شنها ضد بعضهم، تزيد في الطين بلة. حيث تغص المدونات بالشكاوى والتذمر من الخلافات والاشتباكات الاقطاعية: السلام معدوم، والأمراء يقتتلون فيما بينهم لأتفه الأسباب. وفي أثناء الحروب الاقطاعية كانت المعاناة من

نصيب الريف بالدرجة الأولى: كان المتقاتلون يحرقون بيوت الفلاحين، وينهبون مواشيهم، ويقطعون الأشجار في بساتينهم، ويخربون مزروعاتهم، مما كان يجر الإفلاس التام على الكثير من القرى.

ولا يبقى أمام من كتبت له النجاة إلا أن يغادر قريته، ويهيم على وجهه. وإزاء هذا الوضع البائس كان الفلاحون يتمردون بين الفينة والأخرى. وراح الفقراء – كما يقول المدون الفرنسي – "يعذبون الأغنياء بالنهب وإضرام النيران، وفي حالات أكثر كان المزارعون يهربون من المضايقات الاقطاعية: بعضهم إلى الغابات، وآخرون يهاجرون، والبعض ينتقل إلى سيد آخر، أملاً في العثور على معاملة أفضل، سيما أن كل الأراضي آنذاك كانت ملكاً للأسياد. وفي بعض الأحيان كانت تهاجر قرى بكاملها، بعد أن تجد نفسها على وشك الموت جوعاً. وأثناء الفرار كان الفلاحون في خوف دائم من بطش الأسياد، ومن غارات عصابات الفرسان، وكان من المستحيل التصدي لهذه العصابات، التي تمتطي الجياد، والمسلحة بالسيوف، وترتدي الدروع.

وهكذا، فما إن أطلق أوربان الثاني دعوته "نحو الشرق"، حتى لبت جماهير الفلاحين النداء بكل حماسة، فالبابا أعلن بكل صراحة أن الأرض هنا بالكاد تقيم بأود من يستثمرها. أو ليسوا هم، الأقنان، المقصودين بقوله؟ أو لم يصور لهم حياة النعيم في أرض فلسطين الخصبة، حيث تتدفق الأنهار من لبن وعسل؟

لم يكن الأمل في المستقبل الأفضل وحده، الذي دفع القرويين الجائعين نحو الشرق. فالفلاح، الذي يعاني من نير الأسياد، ومن غارات الفرسان، ويقف عاجزاً أمام جبروت الطبيعة، كان إنساناً جاهلاً، وكان للدين تأثير كبير عليه. حتى إنه كان يعتبر الجوع والقحط وتلف محصول الكرمة على يد أزلام البارون، الذي يعيش في الجوار، قصاصاً إلهيا، وعقاباً له على ما ارتكب من ذنوب وآثام. وهذا ماكان يؤكده له منذ الطفولة رجل الدين– الخوري بقوله: " إن كل مايجري لك آت من الله، الذي يعاقب المذنبين، ويرحم أولئك الذين يتحملون بصبر ما يصيبهم من

محن. كان الفلاح بعقله وأحاسيسه مكبلاً بالأغلال الدينية، وفي البحث عن مخرج من البؤس والفاقة كان الريفيون، الذين اعتادوا تصديق كل أقوال الخوري، يتوهمون أن الرب سيخفف من محنتهم، إن هم تمكنوا من التكفير عن ذنوبهم باجتراح المآثر غير العادية، التي ترضي السماء. وهكذا فقد انتشرت على نطاق واسع آنذاك الرغبة في الزهد والعزلة في الأديرة، والتنسك في الغابات، فاعتكف الكثير من الفلاحين - كما يقول المدونون _ في المناطق المهجورة، يصلون الليل بالنهار في العبـــادة، ويكتفون من الطعام بذلك القليل، الذي يرزقهم الرب، أملاً منـــهم في أن يكسبوا رضى الرب بانصرافهم عن الملذات الدنيوية الباطلة. والآن، وحين أهاب بابا روما برعيته أن تلبي نداء الشهادة من أجل الـــدين، وأن تزحف حرباً على الوثنيين"، فقد وجدت هذه الدعوة تربة خصبة لها، وازدادت الرغبة في اجتراح المآثر. ولم يكن الفلاحون بالطبع يدركون أن حماستهم الدينية نابعة من دوافع دنيوية بحته، لكن هذا ماكان عليـــه الأمر في الواقع: الفلاحون يتطلعون لامتلاك الأرض، الـــتي لايملكهــا الأسياد، ويهفون إلى الانعتاق من ربقة العبودية. ومن هنا فقد شـــكل زحف الفلاحين الفقراء طلائع الحملات الصليبية. وفي يومياته يقـــول المدون الألماني إيكهارد دورا، الذي كان شـــاهد عيـــان علـــى بدايـــة الأحداث: اندفعت جماهير الفقراء نحو الأرض النائية تحت ضغط ظـــروف قاسية,ومن هنا فان كثيرين منهم كانوا مثقلين بالزوجات والأولاد والمتاع".
لم يهب الفلاحون للانضواء تحت راية الحرب المقدسة,بقدر ماهبوا للهرب من "الظروف التي لا تطاق"، سيما وأن هذا الأسلوب في الهرب من نـــير الأقطاع, كان مألوفا في الريف الغربي. لكن غير المألوف ذلـــك النطـــاق الواسع للهروب الفلاحي الجماعي,وذلك الستار الديني، الذي اتخذه.

" ولسوف تستولون على كنوز أعدائكم".

لكن لنعد إلى كلير مون. فلم يكد البابا أوربان الثـــاني يختـــتم خطبته، حتى اندفع نحوه "العمالقة"، المتعطشون للدفاع عن ضريح السيد. وراح الفرسان يركعون أمام البابا واحداً إثر آخر، ويمتـــشقون ســـيوفهم،

ويطلبون من البابا أن يباركهم وسلاحهم للحرب "من أجل مجد الـــرب". وبعد ثلاثة أيام وصل كليرمون موكب فخم: فقد جـــاء إلى البابـــا أربعة فرسان، يرتدون الثياب الفاخرة، وهم بكامل سلاحهم، وبرفقتهم قرابة عشرة من الخدم – حملة السلاح. إنهم مبعوثو الكونت ريمونـــد الرابع التو لوزي من جنوبي فرنسا. وقد أعلن هـــؤلاء أن ســـيدهم، والكثيرين من أتباعه، يتعطشون للسير في "طريق الرب" لإنزال العقاب "بالكفار". وبدورهم ركعوا أمام البابا، الذي لم يكن يحجب بركاته عن أحد. فالبابا إنما كان يعتمد على الفرسان بالدرجة الأولى، حين دعا إلى طرد " قبيلة الترك الفارسية" من الأرض المقدسة. لبى الفرسان نداء البابا لأسباب تختلف عن تلك، التي كانت وراء تلبية فقراء الفلاحين له. فمـــن المعروف أن الإقطاعي كان يعيش من عمل أقنانه الذين يمـــلأون عنـــابره بالحبوب واللحوم والجعة والنبيذ، ويقدمون له ولجميع أفـــراد عائلتـــه اللباس والأحذية. وفي الأماكن المرتفعة شـــيد الاقطـــاعيون قلاعهـــم، وحصنوها بالأسوار المنيعة والأبراج العالية، ومن حولها أقاموا الموانـــع الترابية، وحفروا الخنادق، وملأوها بالماء. وإذا ما بدأت بوادر التمرد في القرى يقتحمها الإقطاعي المسربل بالدروع برفقـــة أتباعـــه فيقتـــل المتمردين، ويزج بالعصاة في أقبية قلعته، ويتفنن في تعذيبهم وعقابهم. وهذا ما جعل المدونين يعتبرون تلك القلاع "مصائب حلت بالـــسكان الـــذين يعيشون في الجوار".

وفي القرن الحادي عشر شهد الغرب بداية ظهور المـــدن، ممـــا خلق مشاكل جديدة للإقطاعيين، الذين تملكتهم الرغبة في اقتناء الخوذ والعدة والتروس المعدنية الجديدة والأحذية الجلدية الطرية، التي يرونهـــا في أسواق المدينة، والتي يعجز أقنانهم عن الإتيان بمثلها. هذا عـــداك عن السلع الأخرى، التي لاعهد لهم بها من قبل، والتي بدأت تصل أوربا من بلدان الشرق الساحر: الأقمشة الحريرية، النبيذ الفاخر، مواد الزينة المصنوعة من العاج، والنصال الفولاذية المتينة والمرنة... ولـــدى رؤية الأسياد المراكب تعبر الأنهار، المارة في أملاكهم، وهـــي محملـــة

بالضائع، القادمة من وراء البحار، والتي جلبها تجار جنوا، أو بيزا، أو البندقية أو مرسيليا، كان هؤلاء يقفون فاغري الأفواه، ويتلمظون رغبة وجشعاً.

كانت شهية الأسياد تزداد عاماً بعد عام، لكنهم لم يكونوا قادرين على تحميل فلاحيهم المعدمين فوق طاقتهم، وإلا اتسع نطاق هروهم. ورغبة من الأسياد في إشباع حاجاهم الجديدة، واقتناء الصناعات الجذابة، راحوا يشنون حروب السطو والسرقة، التي عرفت باسم "الحروب الخاصة" أو"الفردية "، والتي كان هدفها انتزاع أراضي الأسياد المجاورين، والسيطرة على العاملين فيها.

لم يكن ثمة حاجة للبحث عن ذريعة لاختلاق التراع، فالذرائع لاتعد ولا تحصى: انتهاك الحدود، توغل المواشي في أرض هذا السيد، أو ذاك، وحين يتطلب الأمر يمكن نفض الغبار عن الخلافات والتراعات، التي تعود إلى عدة أجيال خلت، على هذا المرج، أو تلك الغابة. ومن أجل حل هذه التراعات لم يتورع الأسياد عن امتشاق السيوف واستخدام الرماح. وفي القرنين الحادي عشر والثاني عشر ظهر بين الفرسان شعراء يمجدون القتال، ويدعون إلى الحروب الإقطاعية. ومن بينهم برز الشاعر التروبادور بوتران دي بورن، الذي كتب في إحدى قصائده يقول:

لا أكن الاحترام بين الأمراء
إلا لمن يمضي في القتال،
ولا أدفع قلامة ظفر
ثمناً لمن ينام سيفه في غمده
ولمن يكبل الخوف يديه
فلا يضرب العدو بكل قوته.

في القرن الحادي عشر أصبحت الحياة اليومية في البلدان الغربية تضج بصخب المعارك الداخلية، وتفاقم العداء بين الإقطاعيين. وإذا ما صدف وعاش هذا المكان أو ذاك صيفاً واحداً بدون قتال، فإنه يعتبر مكاناً

محظوظاً. كان الأقوياء يخربون ممتلكات الضعفاء، ثم يستولون عليها، على مبدأ السمكة الكبيرة تلتهم السمكة الأصغر. ولم يكونوا يفوتون أية فرصة تسنح للانتقام من خصم البارحة، أو أنهم يتحولون إلى قطاع طرق، ينهبون التجار، وهم ينقلون بضاعتهم، والفلاحين، وهم يحملون نبيذهم، أو خنازيرهم لبيعها في البلدة القريبة.

صحيح أنه كان ثمة بعض الفرسان المسالمين، الذين بقوا في القرى الصغيرة، يحرثون الأرض، ويزرعونها. وعن أحد. هؤلاء الفرسان الفقراء من فلاندريا، يتحدث المدون فيقول: كان يحرث الأرض بيديه. ولم يكن لديه إلا رداء وحيد يلبسه بالمقلوب لكي لايبلى بسرعة. لكن أمثاله قلة بين الإقطاعيين، الذين تحول أغلبهم إلى ممارسة أعمال النهب، كأفضل أسلوب لتحسين أوضاعهم.

في القرن الحادي عشر ازداد إلى حد كبير عدد صغار الفرسان الغربيين، الذين فقدوا الأرض، وسلكوا طريق الحرب والنهب. ومن أهم الأسباب، الكامنة وراء انتشار هذه الظاهرة نظام التوريث الإقطاعي، القائم على ما يعرف بـ "حق البكورة" فالبيت والأرض، وكل ملكية السيد، غير المنقولة تصبح، بعد وفاته، من نصيب ابنه الأكبر – البكر، أما أولاده الباقون فلا يحصلون إلا على الحصان والدرع، ومن هنا تلك التسميات، التي حملها العديد من الفرسان: العاري، البائس، الذي لا أرض لديه، الذي لاشيء لديه، ومن هنا رغبة هؤلاء في الحصول على مزرعة، مهما كانت صغيرة، المهم أن تحسن من وضعهم، وتدر عليهم دخلاً ثابتاً، ولو كان ضئيلاً.

أما الآن فإن هؤلاء الفرسان المفقرين يعيثون فساداً هنا وهناك، إما بشكل إفرادي، أو في عصابات صغيرة أو كبيرة. يشنون الغارات على القرى والدساكر، ينهبون ويحرقون ويقتلون. وعن هؤلاء كتب البابا ليون التاسع في منتصف القرن الحادي عشر يقول: " لقد رأيت هؤلاء الناس الهائجين... إنهم في غاية العنف, ويتفوقون على الوثنيين في الخبث والفساد... إنهم يضطهدون المسيحيين, ويذيقونهم الأمرين, ويدفعونهم إلى

الموت.. وهم لا يرحمون لا الأطفال و لا الشيوخ و لا النساء". وبدوره شكا أوربان الثاني في خطبته في كلير مون، من أعمال العنف، التي يرتكبها "أولئك الذين ينهبون خيرات الآخرين"، و"ينتهكون حقوق الآخرين"، مما جعل الجميع يفتقد الأمن والطمأنينة. فالمشاهد الوحشية لجرائم الفرسان ترى في كل مكان. يصف المدون الفرنسي فولهيردي شارتر، الذي شارك في الحملة الأولى، الوضع في فرنسا، عشية هذه الأحداث :"خيرات الأرض تنهب، الكثيرون يرسفون في أغلال الأسر ظلماً، حيث يلقى بهم في غياهب الأقبية المرعبة، ويرغمونهم على دفع فدية لا طاقة لهم على دفعها، وإلا ساموهم كل أنواع العذاب من جوع وعطش وبرد، إلى أن ينتهي بهم الأمر إلى الموت، دون أن يعرف أحد مصيرهم ... والفرسان يضرمون النار في الأديرة والقرى، دون أن يرحموا أياً كان"...

وغالباً ما كانت عصابات الفرسان تتحد مع بعضها، فتشكل قوة كبيرة، تشن الغارات الضخمة: ففي القرن الحادي عشر تمكن النورمانديون من الاستيلاء على جنوبي إيطاليا، وفي عام ١٠٦٦ على إنجلترا، تحت قيادة الدوق غليوم، أما عصابات الفرسان الفرنسية فقد زحفت على إسبانيا للمشاركة في حرب المسيحيين ضد العرب، لكن هذه العصابات لم تلق الترحيب من الأسياد الإقطاعيين الأسبان، أضف إلى هذا أنها منيت بالهزيمة أكثر من مرة على يد الخيالة العربية الخفيفة.

وعلى الرغم من مغامرات النهب الصغيرة والكبيرة، ومن كثرة المشاركين فيها، فقد كان ثمة في أوربا الكثير من الفرسان " العاطلين عن العمل"، الذين لايجدون المجال المناسب لاستخدام سلاحهم، فراحوا يعيثون فساداً. وهكذا فقد كان عدد الراغبين في حمل السلاح، أملاً في كسب الغنائم بسهولة، أكثر من كاف. ولذا، فما إن أطلق البابا دعوته إلى الحرب المقدسة، حتى سارع الفرسان وكبار الأسياد إلى وضع الصلبان على أرديتهم.

والواقع أن الاقطاعيين من مختلف الرتب، كانوا، وهم يتوقدون حماسة للحرب من أجل الدين المسيحي، يفكرون بأشياء لاتمت للدين بصلة- الاستيلاء على الأراضي الخصبة في الشرق، وتملك الضياع، لا بل وتأسيس الإمارات الجديدة، والأهم من ذلك كله الحصول على ثروات بلدان الشرق وما أكثرها... والأرض في فلسطين، كما يؤكد البابا، خصبة "تسيل لبناً وعسلاً". ثم إن الكثيرين كانوا يعرفون ذلك بدون تأكيد البابا. حيث سبق لمئات الفرسان من فرنسا وألمانيا وإنجلترا واسكندنيافيا أن حجوا إلى القدس، ورأوا بأم أعينهم مدى غنى هذه المنطقة. ولدى عودتهم من السفر كان هؤلاء الحجاج – الفرسان يحدثون ذويهم ومعارفهم عما رأوه من قصور الحكام العرب البديعة في سورية وفلسطين، ومن مدن كبيرة ومن أسواق تغص بالفواكه وأدنان الخمر، وأكوام الأقمشة الزاهية والسجاد الناعم وغير ذلك. ذلكم هو ما اجتذب الفرسان، الذين أصبحوا القوة الرئيسة للحملات الصليبية .

كان أوربان الثاني يدرك ذلك جيداً، وقد عزف على هذا الوتر بكل مهارة: لسوف تجنون الثروات الطائلة في الشرق. "الفقير والبائس هنا سوف يصبح سعيداً وغنياً هناك... ولسوف تستولون على كنوز أعدائكم. وماذا يمكن أن يعني ذلك إلا الدعوة لنهب ثروات البلدان النائية تحت ستار الحرب من أجل المقدسات المسيحية؟ لقد طرح بابا روما شعارات لامست قلوب الفرسان، وراعت وضعهم وتطلعاتهم، وحاجتهم الماسة إلى تملك الضياع.

ولاشك أن التصورات الدينية لم تكن غريبة عن الفرسان نهائياً. فقد لعبت دوراً كبيراً لدى البعض، ودوراً أقل، لدى البعض الآخر. فالإقطاعيون كانوا مثل بقية الناس آنذاك في غاية التدين، فكان الفارس، مثله مثل الفلاح الأمي والجاهل، ما إن يرى برج أجراس الكنيسة، حتى يسارع إلى رسم إشارة الصليب. وكانت مسألة ما سيحدث لروحه بعد الموت تقض مضجعه، لا أقل مما تقض مضجع المزارع البسيط. فرجال الدين يؤكدون للجميع أن عذاب جهنم بانتظار المذنبين، بينما تذهب روح المسيحي التقي

إلى الجنة. كذلك كان الإقطاعيون يحاولون كسب رضى الخالق: عن طريق الترهب، ووهب الأساقفة والأديرة قسم من الأملاك، والحج إلى الأماكن المقدسة في روما والقسطنطينية أو القدس، وذلك بهدف التكفير عن الجرائم الكثيرة، التي تثقل كاهل ضمائرهم.

لقد لامست دعوة أوربان الثاني دون شك مشاعر الفرسان الدينية. فالحرب ضد المسلمين، من أجل الأرض المقدسة، تعادل مئات الصلوات من أجل التوبة، وتساوي أكثر من حجة إلى الديار المقدسة. وليس عبثاً أن البابا وعد بغفران كل ذنوب المقاتلين، الذين سيقاتلون من أجل إنقاذ ضريح السيد المسيح. يقول أحد الشعراء-الفرسان، ممن شاركوا في واحدة من الحملات الصليبية اللاحقة:

البعض يريد صون حياته،
فلا يحمل الصليب المقدس،
أما أنا فعلى استعداد للموت
في القتال من أجل السيد المسيح.

وهكذا اقترنت العوامل الدنيوية بالأسباب الدينية,لكن المدونين الكنسيين حاولوا في مدوناهم طمس العوامل الدنيوية,وتصوير الحملة الصليبية كمشروع مقدس, بعيد عن المصالح والأطماع الأرضية,يقول القس جويبرت النوجاني : "لم يدفعهم إلى هذا المشروع لا الرغبة في تحقيق الأمجاد ولا المصالح الخاصة ولا التعطش لتوسيع حدود أملاكهم وإنما اختاروا السير في هذا الطريق فقط للفوز بالجنة الموعودة".

"القدس تستغيث"

لم يضن البابا اوربان الثاني في خطبته في كلير مون بالعبارات المؤثرة والكلمات المنمقة, وهو يصف بؤس الأرض المقدسة, وما تعانيه تحت نير "ذلك الجنس القذر والحقير,الذي يخدم قوى الشيطان". وبعد خطبته آنفة الذكر,مكث البابا نصف عام في فرنسا,ومن هناك بعث بالرسائل إلى" المؤمنين" في مختلف بلدان أوربا، يهيب بهم فيها أن يشاركوا في الحملة

الصليبية. وفي هذه الرسائل أيضاً أسهب في وصف معاناة مسيحيي الشرق تحت حكم المسلمين, وركز بخاصة على ما تتعرض له المقدسات من تدنيس على يد أولئك "الأنجاس". ومن ثم شن البابا وأساقفته حملة واسعة، داعين إلى الحرب المقدسة- الحرب ضد الخطر الإسلامي، الذي يتهدد- بزعمهم- العالم المسيحي برمته، وبالدرجة الأولى ضريح السيد المسيح في القدس.

وانضم الرهبان إلى جوقة الدعوة لإنقاذ القدس. وسارع الرواة والمغنون إلى تلقف دعوة الكنيسة، ونظموا فيها الأشعار والقصص المؤثرة. وراحوا ينشدونها على المستمعين.

أرض السيد المسيح
مثخنة بالجراح
وتحت نير الكفار
تذوق الأمرين.
القدس تبكي
القدس تستغيث ...
المحنة تفوق طاقتنا -
أن يضيع الضريح المقدس.
أن نرى الأماكن، التي سار فيها سيدنا،
عرضة للتدنيس
إن الخالق سمح بذلك
لكي يمتحن مدى إخلاص
أولئك المكلفين بخدمته،
والمدعوين للانتقام من أعدائه.
القدس تبكي
القدس تستغيث.

لكن هذه المزاعم كانت باطلة، لا أساس لها من الصحة. صحيح أن النصف الثاني من القرن الحادي عشر شهد حدوث تبدلات سياسية هامة في الشرق. فالعديد من البلدان والمناطق الفارسية أو العربية أو تلك،

التي كانت تابعة للإمبراطورية البيزنطية، تعرض لعدوان السلاجقة- الأتراك الرحل، القادمين من آسيا الوسطى, الذين احتلوا بيت المقدس،المدينة المقدسة لدى المسيحيين كما لدى المسلمين واليهود، والتي كانت خاضعة لمصر قبل ذلك. وهنا، كما في المدن الأخرى في فلسطين وسورية وآسيا الوسطى، كانت تعيش أقوام مختلفة: العرب، الأرمن، الإغريق، اليهود، والسريان، وكانت معتقداتهم الدينية مختلفة أيضاً، فالأرمن والإغريق والسريان في أغلبهم مسيحيون. بينما العرب- مسلمون، أما اليهود فيعبدون الإله يهوه. وكان السلاجقة- مثلهم مثل العرب- مسلمين.

لكن السلاجقة لم يقوموا، بعد أن بسطوا سيطرتهم على بلدان شرق المتوسط، باضطهاد يذكر لأتباع الديانات الأخرى، فقد تميزوا، على غرار العرب، بالتسامح الديني. حيث تركوا حرية العبادة للمسيحيين، كما بقيت الكنائس والبيع في أيدي المسيحيين. وسمح للبطاركة وكبار رجال الدين المسيحي بالبقاء في مقرات إقامتهم السابقة- في القدس وأنطاكية. كما لم يتعرض هيكل السيد، والأصح كنيسة القيامة في بيت لحم، حيث دفن المسيح، بعد نزعه عن الصليب، لأي تخريب، أو تدنيس. ولم يمارس السلاجقة أي اضطهاد ضد المسيحيين، كما لم يتسببوا في أية مضايقات لهم في ممارسة شعاراتهم الدينية. ثم إن السلاجقة لم يسببوا أي أذى للحجاج، الذين ظلوا يتوافدون بأعداد كبيرة على القدس والمدن الفلسطينية الأخرى، المقدسة لدى المسيحيين، لارتباطها بتاريخ العهد الجديد للسيد المسيح. ولم يكن الحجاج يدفعون هنا إلا ضريبة زهيدة، في الوقت الذي كانت فيه السلطة الدينية في القسطنطينية تفرض على الحجيج ضريبة كبيرة، لكن أحداً لم يفكر بالشكوى والتذمر من ذلك. أضف إلى هذا أن مسيحيي سورية وفلسطين الأصليين لم يطلبوا أية مساعدة من بابوات روما. وبالتالي فإن القول إن "القدس تبكي، القدس تستغيث" لايمت إلى الواقع بصلة، وكان مجرد بلاغة شعرية.

لقد عمد أوربان الثاني وأساقفته إلى الترويج للإشاعات حول إساءات السلاجقة للمسيحيين، وحول الخطر الإسلامي على "أخوتكم في الدين" وعلى مقدسات العالم المسيحي، كل ذلك بهدف إثارة الكراهية والعداوة في الغرب ضد المسلمين في الشرق، كأفضل وسيلة لتشجيع الفرسان على الانضواء تحت راية الحرب "المقدسة" في البلدان البعيدة.

وهكذا فإن المشروع الإقطاعي، القائم على السلب والنهب، أُلبس لَبوس الحرب المقدسة، التي تشن حماية للدين ودفعاً لـ "الخطر القادم من الشرق" والذي يتهدد المسيحية برمتها.

ويصبح اللصوص فرسان المسيح

قد يتساءل البعض: إذا كانت ذرائع الدعوة إلى جرد الحملات الصليبية باطلة في أساسها، فما الذي دفع أوربان الثاني لأن يدعو الغرب إلى الحرب ضد الشرق؟

من المعروف أن البابا هو رأس الكنيسة الكاثوليكية، التي كانت تشكل في الغرب قوة إقطاعية غاية في النفوذ والتنظيم. وتحت سلطة البابا كان يوجد الكاردينالات، الذين ينتخب من بينهم، وفي درجة أدنى يأتي المطارنة ثم الأساقفة، وتحت سلطة هؤلاء قيّمو الأديرة- القساوسة، ثم يأتي الرهبان. وطبيعي أن لكل كنيسة طاقمها الخاص من رجال الدين، ذوي الرتب المختلفة من خوارنة ومساعديهم.

كان رجال الدين يشغلون مكانة هامة في المجتمع الإقطاعي، ويساعدون كبار الإقطاعيين في ضمان طاعة الشعب الكادح. ويؤكدون لأبناء القرى والمدن ضرورة طاعة الأسياد في كل شيء، لكي يفوزوا بملكوت السماء، أما من يشق عصا الطاعة فسيتقلب دهوراً في نار جهنم.

و لم يكن رجال الدين يضمنون عظاتهم هذه المسائل دون مقابل: فهم بدورهم كانوا يعيشون عالة على جهد الأرقاء. ففي القرن الحادي عشر

أصبح البابا والكرادلة والأساقفة وقيّمو الأديرة من كبار أصحاب الأطيان في أوربا، إذ كانوا يملكون ثلث الأراضي، علماً أن عائدات مزارعهم كانت أفضل من عائدات مزارع الإقطاعيين، وذلك بفضل تفننهم في نهب الفلاحين، وبراعتهم في انتزاع اللقمة الأخيرة من فم المزارعين، فإلى جانب الإتاوات العادية، المفروضة على الرقيق، كانت الكنيسة تأخذ من جميع السكان ضريبة خاصة هي ضريبة العشر على كل شيء (الحبوب، التبن، الخضار والثمار، وما تدره المواشي والدواجن، بما في ذلك تكاثرها). ففي أيام الحصاد ينتشر جباة العشر، كما قطعان الذئاب الضارية، في الحقول، وينقبون في الأقبية للتأكد من أن المزارع لم يخفِ شيئاً من المحصول.

كانت ضياع رجال الدين هي الأكثر ثراء، فكبار الإقطاعيين والأمراء وحتى الملوك كانوا يهبون الكنيسة الأراضي الشاسعة بمن يعمل فيها، بالإضافة إلى مختلف أنواع المجوهرات.

وعلى الرغم من حاجة الفرسان والأسياد من مختلف المراتب إلى الكنيسة في وأد أفكار التمرد والعصيان الفلاحي، ومن تعلق الإقطاعيين بالدين، فإن ذلك لم يحل دون ظهور وتفاقم العداء في العلاقات بين المزارعين الدينيين والدنيويين، فقد كان الأخيرون يحسدون الأولين في السر والعلن، فالقطعان السمينة تسرح في الأراضي الموقوفة للكنيسة أو الدير، وحقول الكرمة مثقلة بالمحصول الوفير.

ثم إن الأمر لم يقتصر على مشاعر العداء والحسد، بل لم تلبث الضياع الكنسية أن بدأت تتعرض لعمليات النهب، التي انتشرت في القرن الحادي العشر، وكان الفرسان أبطالها، والأكثر من ذلك أن ضياع رجال الدين ورهبان الأديرة أصبحت مفضلة لدى الفرسان، سيما وأن المقاومة المسلحة نادرة في الأديرة.

اتخذت عمليات سطو الفرسان أبعاداً خطيرة لدرجة أن بعض رجال الدين، ذوي النظرة البعيدة، راح يفكر في كيفية كبح جماح هذه العصابات بتحريم الحروب الإقطاعية تارة، ووقف الأعمال القتالية

لعدة سنوات، أو لثلاثة إلى أربعة أيام في الأسبوع تارة أخرى. لكن عمليات السطو ظلت مستمرة، وهذا ما دفع البابا إلى أن يعلن في عظة كليرمون أن أحداً لم يعد ينعم بالهدوء والطمأنينة بسبب هذه العمليات، بعد أن رأى وسمع كيف "تدنس المقدسات، وتذهب الضياع والبيع طعماً للنيران وتنتهك الحرمات الإلهية والبشرية".

صحيح أن عمليات السطو كانت تمتد إلى أملاك كبار الأسياد، لكن ذلك كان نادراً ما يحدث مقارنة بالاعتداءات على أملاك الكنيسة، حيث لا وجود للقوة المسلحة القادرة على التصدي لغارات الفرسان.

وفي هذا الوقت بدأ كبار الإقطاعيين /الدنيويين والدينيين/ يفكرون بطريقة تضع حداً لمعاناقم من غارات الفرسان عن طريق تحويل هذه الغارات إلى أماكن أخرى، بعيدة قدر الإمكان. وبالتدريج راحت تتبلور فكرة توجيه هذه العصابات إلى خارج حدود أوربا.

هذه الرغبة تجسدت بكل وضوح في عظة البابا، حين حدد الشرق الواسع الثراء، كهدف للفرسان للاستيلاء عليه ولتحرير هيكل السيد، وفي الوقت نفسه لوضع حد للحروب الإقطاعية وغارات السلب والنهب في الداخل: "الآن سيصبح فرسان المسيح، أولئك الذين كانوا لصوصاً. فليتفان الآن في قتال البرابرة من سبق له أن قاتل ضد أخوته وبني جلدته" هكذا أعلن البابا.

لكن أطماع رجال الكنيسة لم تقتصر على ذلك، بل تعدته إلى الرغبة في توسيع نطاق نفوذ الكنيسة الكاثوليكية خارج حدود أوربا.

ففي القرن الحادي عشر لم يكن ثمة في أوربا دول مركزية قوية. وكانت الفوضى الإقطاعية تضرب أطنابها في كل مكان. وحدهم الملاك الكنسيون، من مختلف المراتب، كانوا على قدر معين من التنظيم، وكانت روما البابوية مركزهم الرئيس. وبالاعتماد على الإقطاعيين الكنسيين وعلى ثروة رجال الدين، وعلى قوة تأثير الدين، استطاع باباوات روما تحقيق سلطة واسعة في النصف الثاني من ذلك

القرن. حتى أن البابا غريغوري السابع، الذي سبق أوربان الثاني، أعلن أن الكرسي الرسولي أعلى من كل السلطات الدنيوية في العالم: وأن من واجب الملوك والأمراء والدوقات والكونتات أن يلثموا الحذاء البابوي، ويخضعوا له خضوع العبيد لسيدهم.

وهكذا فإن البابوية بدأت، بعد تثبيت مواقعها على رأس الكنيسة، تسعى جاهدة من أجل توحيد جميع الإقطاعيين تحت لوائها، لكي تصبح الآمر الناهي في العالم الإقطاعي الأوربي، ولم يلبث ذلك أن شكل واحداً من الأهداف الهامة في سياسة البابا.

وحتى هذا لم يكن بالكافي، فقد كان لابد من مضاعفة الثروات عن طريق احتلال بلدان الشرق الغنية. أو لم يدع أوربان الثاني الفرسان إلى الاستيلاء على هذه البلدان باسم الدين والعقيدة! وبالطبع فإن الكنيسة ستنال، في حال نجاح الفرسان في حملتهم، نصيبها من الأملاك والغنائم، بالإضافة إلى العشر.

تلكم كانت الأسباب الحقيقية، الكامنة وراء دعوة البابا الفرسان إلى القتال " من أجل إنقاذ هيكل السيد".

المملكة اليونانية ومشاريع البابوية

لم يكن بابا روما يتطلع إلى "أرض القدس" وحدها، على الرغم من تركيزه عليها في عظته في كليرمون، بل وكان يطمع في بلوغ هدف آخر: إخضاع الإمبراطورية البيزنطية.

فقبل ربع قرن من مجمع كلير مون، في أحد أيام شهر آب من عام ١٠٧١ جرت حادثة أجبرت كبار رجالات الكنيسة في الغرب على التفكير ملياً في شؤون المملكة اليونانية. ففي ذلك اليوم جرت معركة منانتزيكرت (ملا زجرت) إلى الشمال من بحيرة وان في أرمينيا. وفيها مني الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع بهزيمةً ساحقة على يد السلاجقة، وبعد هذه المعركة الفاصلة، راحت القوات الكبيرة من خيالة الفاتحين الشرقيين تستولي على المناطق في آسيا الوسطى، والتي

كانت تابعة للإمبراطورية البيزنطية، التي دب فيها الضعف. ولم يلبث هؤلاء الغزاة أن ظهروا عند أسوار القسطنطينية نفسها. فمن نوافذ القصر الإمبراطوري، كان بالإمكان أن ترى على الشاطئ الآخر من البوسفور التلال، التي لم تعد تابعة للامبراطورية، فهناك، في آسيا الوسطى تأسست دولة السلاجقة وعاصمتها مدينة نيقيا اليونانية.

وللحال سارع غريغوريوس السابع المتسلط إلى الاستفادة من غــزو السلاجقة ومن الكارثة، التي أحاقت ببيزنطة، بحجة تقــديم المــساعدة لها، على اعتبار أنها دولة مسيحية، ولا يجوز السماح بوقوع الأخــوة في الدين تحت نير المسلمين. وبالفعل فقد اتخذ البابا التدابير اللازمــة ليحشد في أوربا جيشاً من المتطوعين، الراغبين في محاربــة المــارقين، الذين يهددون القسطنطينية. وإذا ما صدقنا مراسلات البابا آنذاك، فإنه تمكن من تجنيد قرابة الخمسين ألف فارس، بيد أن البابا لم يتمكن من تحريك هذه القوات باتجاه العاصمة البيزنطية، إذ أنشغل، ولفترة طويلــة بالخلافات مع الامبراطور الألماني هنري الرابع. وعلى الرغم من التزام الأخير بالخضوع للبابا في كنوسا، فإن الخلافات شبت بينــهما مــن جديد وبقوة أكبر، فتأجل المشروع البابوي في جرد حملة نحو الشرق. تأجل، لكنه لم يُلغ. وهكذا فقد جاء البابا أوربان الثاني، ونفض الغبار عن مشروع غريغوريوس السابع، وبدأ حلم إخــضاع الامبراطوريــة الإغريقية يراوده. وهل هناك أسهل من تحريك جيش الفرسان باتجاه القسطنطينية، سيما وأن الامبراطورية البيزنطية نفسها توجهت في نهايــة الثمانينيات بطلب المساعدة ضد السلاجقة من الأسياد الغربيين.

وفي هذا الوقت بلغ الضعف بالامبراطورية البيزنطية أشــده، فقــد أضيفت إلى الهزائم الخارجية الفتن الإقطاعية الداخلية، على غرار تلك الــتي اجتاحت أوربا الغربية. ومما زاد في الطين بلة أن المناطق البلقانية والعاصمة نفسها بدأت تتعرض للغارات، يشنها الأعداء من أكثر من جهــة. فمــن الشمال جحافل البيتشينيغ، التي تدمر كل ما تصادفه في زحفها من قرى وبلدات، وفي الوقت نفسه شرع السلاجقة يضيقون الخناق على

القسطنطينية، وتفاقم الوضع بعد أن أصبحت العاصمة تحت رحمة الأسطول السلجوقي. وبعد أن بدأ ملكشاه المفاوضات مع البيتشينينغ للتنسيق معهم في الانقضاض على القسطنطينية. ولم يكن لدى بيزنطة لا الجيش ولا الأسطول للتصدي لهؤلاء وأولئك في وقت واحد. وفيما بعد كتبت المؤرخة البيزنطية حنة كومنين، ابنة الامبراطور الكسيوس الأول كومنين تقول: "كنا، سواء في البر أو البحر في وضع بائس جداً، سيما وأن الشتاء القاسي أغلق كل المنافذ، ولم يعد بالإمكان فتح أبواب المنازل بسبب أكوام الثلج المتراكمة في الخارج".

وفي هذه الظروف القاسية لم ير الامبراطور البيزنطي مندوحة من طلب النجدة من الغرب، فأرسل سفارتين إلى فرنسا وإيطاليا طالباً العون منهما. فقد كتب الكسيوس الأول إلى الكونت روبيرت الفلاندري، الذي استضافه الامبراطور، أثناء عودته من الحج، لعدة سنوات خلت، كما كتب إلى البابا نفسه. وفي رسالتيه طلب الكسيوس الأول إرسال قوات من الفرسان لإنقاذ القسطنطينية من أطماع " الكفار". أي أنه لم يطلب شيئاً باستثناء تزويده بعدد من الفرسان المرتزقة، وهذا ما كان شائعاً في تلك الآونة: فقد سبق لبيزنطة أن استعانت بالأنجلو- ساكسونيين والنورمانديين والصقالبة والدنماركيين...

لكن الغرب أعطى طلب الإمبراطور البيزنطي تفسيراً آخر. بيزنطة في خطر؟ شيء جيد. لابد من مد يد المساعدة لها ضد السلاجقة، وتحقيق المكاسب على حسابها، في الوقت نفسه. وقد جاء طلب القسطنطينية فزاد من جشع الإقطاعيين، كما أنعش الآمال البابوية، فالفرسان يتعطشون لخوض الحرب الكبيرة، إذن فليخوضوها في الشرق، من أجل مجد الكنيسة المقدسة، وبهدف مضاعفة سلطتها ومداخيلها.

وإنه لمن الخطأ الظن أن الحملات الصليبية كانت مشروعاً بابوياً بحتاً. فقد كانت أسبابها مختلفة، وتعود بذورها إلى فترات سابقة، حيث استمرت

في النمو بالتدريج إلى أن حان الوقت فنضجت. وكما رأينا، فإن الفرسان والاقطاعيين في القرن الحادي عشر كانوا يبحثون جاهدين عن مخرج ملائم من الصعوبات، التي يواجهونها، بسبب زيادة حاجاتهم، وضيق ذات يدهم. ولقد بحثوا عن هذا المخرج بأساليب واتجاهات شتى: الاقتتال فيما بينهم، وتبادل نهب القرى والعبيد، التحول إلى لصوص وقطاع طرق، والسفر إلى إسبانيا وغيرها من المناطق الغربية، بهدف جني الثروة. الأساليب مختلفة، لكن الجوهر واحد- النهب والحرب، مهما كانت الشعارات، التي استخدمت كستار.

وفي هذه الظروف اتفق الرأي في روما على توحيد كل هذه العصابات المختلفة في سيل واحد، وتحريكه نحو هدف واحد، لما فيه خدمة مصالح هذه العصابات والمصالح البابوية أيضاً. ولقد كان من السهل والمناسب إلباس الحرب ضد الشرق لبوس الدين، وبالتالي تبريرها وتخليد أبطالها، من خلال وضع السيف في ظل الصليب، وهذا ما قام به أوربان الثاني، الذي أطلق دعوته المشهورة إلى شن الحملات الصليبية.

الفصل الثاني
الأمل في الحصول على الحرية

عظات بطرس الناسك:

انصرم فصل الشتاء، وحل شهر آذار من عام ١٠٩٦، وقبل أن تجف التربة، وتشق الأعشاب الأولى، سطح الأرض، وهي تهفو نحو ضوء الشمس، شهدت القرى في فرنسا، ومن ثم في ألمانيا، وفيما بعد في البلدان الأوربية الأخرى، حالة من التذمر والاستياء. فقد أصبح صعاليك الريف جاهزين للانطلاق في طريق "النفي الطوعي"، كما يقول المدون غفيبرت النوجاني، وكتب مدون آخر يقول: "لم يستطع الفلاحون، الذين أضناهم الجوع ومطالب الأسياد المتزايدة، لم يستطيعوا البقاء في منازلهم مطمئنين. فخلال الفترة، التي أعقبت مجمع كلير مون سمعوا الكثير من العظات، الداعية إلى "التوبة عن الذنوب" والزحف لإنقاذ الضريح المقدس في القدس. وفي ذلك الشتاء ظهر الكثير من هؤلاء الوعاظ. وعلى الرغم من أن عظة أوربان الثاني ترددت في فرنسا- على حد الوصف، الذي أعطاه لها أحد البابوات، بعد خمسين عاماً كصوت آت من السماء، فإنها لم تكن كافية وحدها لاستنهاض همم الناس، ودفعهم للزحف لمحاربة "المارقين"، مهما بلغ حجم الخيرات والغنائم، التي تلوح بها.

جندت الكنيسة الكاثوليكية الكثير من الرهبان والكهنة والممسوسين والمصابين بالهستيريا من أجل الترويج لدعوة البابا. وقد راح هؤلاء يبثون الأخبار عن مجمع كلير مون وكيف أعلن البابا الحرب ضد"الكفار" واجباً مقدساً على كل المسيحيين، ولم تلبث هذه الأخبار أن وصلت أقصى المناطق في الغرب. فالخوارنة في البيع الريفية والممسوسون والرهبان في ساحات المدن والقرى، راحوا يحدثون السكان المحليين بحماسة عن معاناة

أخوتهم في الدين، وضرورة الاسراع إلى الانتقام من "الـوثنيين"، الـذين يدنسون المقدسات في فلسطين. أصغى الناس إلى خطب الوعاظ باهتمـام، ومهما أسهب هؤلاء في الحديث عن معاناة أخوتهم في الشرق، وعن تدنيس الترك للمقدسات، وعن اضطهاد الحجاج المسيحيين، فإن الفقراء لم يهتموا من ذلك كله إلا بضرورة السفر إلى البلدان البعيدة، حيث الأراضي الخصبة، وحياة النعيم، وحيث ستغفر لهم ذنـوبهم لمـشاركتهم في تحريـر الأرض المقدسة. وهكذا فقد فهم الفلاحون هذه الدعوات على طريقتهم، وترجموها إلى لغتهم، وراح كل منهم يدعو جيرانه وذويه إلى السير في طريق الرب.

ولقد تأثر القرويون أكثر ما تأثروا بخطب أحد الرهبان الفرنسيين، من أسقفيه أميان المدعو بطرس، والملقب بـــ"الناسك"، أو " الزاهد". كـان بطرس هذا شخصاً قميء المظهر، بخيلاً، بوجه ممطوط أسمر، يلـبس روبـاً صوفياً، يصل إلى قدميه القذرتين والحافيتين، وعلى الرغم من كهولته فقـد كان في منتهى الحركة والنشاط، لايعرف الكلل ولا الملل. إذ يظهر علـى حماره الهزيل، تارة في ضواحي شارتر، وتارة على مشارف أورليان، وأخرى في شمالي فرنسا، ومن ثم في وسطها. وأينما حل، تتحلق من حوله جمـوع القرويين الجائعين، والفرسان المفقرين، وفي كل مكان يهيب بـالجميع أن يسارعوا إلى إنقاذ هيكل السيد من "السبي" التركي.

استطاع بطرس الناسك، بفضل فصاحته الخطابية، أن يلامس الـوتر الحساس، إن لدى البسطاء، وإن لدى الأسياد. ويقال إن عمه كان أسقفاً. وفي الأحوال فقد كان هذا الراهب واسع الاطلاع في مجال الدين، أضـف إلى هذا أنه كان يخيل للمستمعين إلى عظاته أن عينيـه تتوهجـان، وهـو يتحدث عن تدنيس" الكفار" للأماكن المقدسة،و يهيب بـ"المؤمنين"، وهو يلوح بالصليب الحديدي، أن ينطلقوا لإنقاذ هذه المقدسات.

كان يتحدث بحماسة عن معاناة الأخوة في الشرق على يد السلاجقة، ويروي تفاصيل الرؤيا، التي تجلت له على درج كنيسة القيامة، أثناء وجوده هناك حاجاً، زاعماً أن أحد الملائكة كلفه، هو العبد الفقير، بتبليغ المسيحيين قاطبة أن الرب يأمرهم بالتوبة عن ذنوبهم، والزحف حرباً علـى التـرك

الأنجاس. وكما دلت الأبحاث، التي أجراها العلماء فيما بعد، فإن هذا الراهب الأمياني لم يسبق له أن كان في القدس، وإن كان قد شارك في إحدى رحلات الحج، حيث اكتسب هذه السمرة الجنوبية، ولكن الفلاحين الجهلة والمتحمسين لسماع المعجزات الدينية. كانوا يصغون إليه فاغري الأفواه، وهم على ثقة تامة من صدق أقواله.

وعلى الرغم من فقرة الموقع، وصومه المستمر، واكتفائه من الطعام بالسمك ونبيذ العنب، ومن أنه لم يكن بحوزته شيء سوى هذا الحمار الهزيل، فقد كان ينفق النقود بسخاء على المحتاجين، فيبدو للقرويين الفقراء في شمالي فرنسا ووسطها، المثقلين بالطاقة والمعاناة، نبياً حقيقياً، مرسلاً من السماء. فراحوا يصغون إلى كل كلمة يقولها باهتمام بالغ، حتى إنه، ما إن ينتهي من عظته في إحدى القرى، ويغادرها إلى قرية أخرى، حتى يندفع الكثيرون في إثره، يلامسون أطراف ثيابه، أو ينتزعون الشعر من حماره للاحتفاظ به كذكرى أو تعويذة. وكان هذا الناسك واحداً من قادة الحملة الصليبية لفقراء الريف.

"وتوقدت بسالة الفقراء حماسة كبرى"

أذكت خطب بطرس الناسك وغيره من الوعاظ نيران التعصب الديني لدى الشعب، وزرعت في نفوس الفقراء الأمل بمستقبل أفضل، وبالتخلص من هذه الحياة، التي لا تطاق، بسبب مضايقات الأسياد، ثم من يدري كيف سيكون المحصول هذا العام؟ ألن يعانوا، على غرار السنوات السابقة، من الجوع بسبب نقص الحبوب لهم ولماشيتهم؟ وراح الفلاحون، الذين شجعتهم مواعظ المتعصبين، يستعدون للسفر: فسنوا البلطات والمذاري، ونجروا العصي المتينة، وأصلحوا محاور عرباتهم، ذات العجلتين، والأهم من ذلك أنهم راحوا يسعون جاهدين من أجل التزود بالزاد والنقود. وكانوا على ثقة من أنهم لن يحتاجوا إلى الكثير، ألم يقل البابا إن الطريق إلى القدس قصيرة، المهم أن يصلوا جنة الله على أرضه، وهناك لن يضطروا للتفكير بالطعام. ثم إنه لابد من الرحيل على جناح السرعة، فالأسياد يستعدون

بدورهم للحرب المقدسة، والفلاحون الأرقاء لايريدون أن يرافقوا أسيادهم، ويفضلون أن يسبقوهم.

لم يكن المدونون أسخياء في وصف تلك الأحداث التي عاصروها، لكنهم بلمسات معبرة يرسمون صورة استعداد القرويين الذي جرى على عجل وبشكل محموم: فقد سارعوا إلى بيع كل ما يملكون، وما ليسوا بحاجة إليه في الطريق، بثمن بخس. وبالسرعة نفسها راحوا يشترون، لكن بأسعار باهظة، كل مايلزمهم في الطريق. "كل منهم كان يحاول جمع أكبر مبلغ ممكن من المال، فراح يبيع كل مايملك، ليس حسب قيمته، بل حسب مايدفع له الشاري"، المهم أن يسرع لكي لايتأخر عن الركب. حيث يقول المدون غويبرت من نوجان " كانت النعجة الواحدة في السابق تباع بأكثر مما تباع اثنتا عشرة نعجة الآن". وهكذا فبعد بيع كل مايمكن بيعه بدارهم معدودات، كان الفلاح يتخلى عن كوخه، وينطلق مع أفراد أسرته إلى الحج المقدس، وقد خاط الصليب على صدره.

ومنذ منتصف آذار/مارس/١٠٩٦ غصت طرق شمال شرقي فرنسا والمناطق المحاذية لنهر الرين في ألمانيا، بالآلاف من الصليبيين- الفقراء الأوائل. كانوا يزحفون من أماكن مختلفة، بشكل عفوي وفي أوقات متباعدة، و لم تلبث هذه الجموع أن اتحدت فيما بينها، وشكلت خمس أو ست فرق، تضم كل منها٦-١٥ألف شخص من الرجال والنساء والأطفال. أي أن مجموع من شارك في حملة الفقراء كان حوالي٦٠-٧٠ ألف شخص، وهم على العموم أناس جعلهم اليأس والحاجة ضحايا السكرة الدينية. حتى أن بعضهم كان من الحماسة، تحت تأثير العظات التعصبية، إلى حد أنهم رسموا الصليب كيّاً على صدورهم أو أذرعهم. ولقد أصاب عقول هؤلاء الفقراء مسّ من الجنون، فراحت تراودهم الرؤى، وتظهر لهم الأطياف و"الإشارات السماوية" ويأتيهم "الوحي"، داعياً إياهم إلى"أرض الميعاد". فما هي هذه الإشارات، أو الدلالات السماوية"؟ إنها الصاعقة، التي رأوها تضرب بلوطة، عملاقة، والمذنّب، الذي ظهر بشكل خاطف على صفحة السماء المظلمة، والطاعون، الذي أودى بحياة نصف سكان القرية

خلال عدة أيام. وكما يرى الراهب- المدون روبيرت من ريمز، فإن الحملة الصليبية كانت تبدو للكثيرين"عملاً إلهيا، وليس بشريا".

وعلى الرغم من الرايات والصبغة الدينية فقد كانت حملة الفقـــراء في جوهرها حركة تحرر معادية للاقطاع. حيث كان المشاركون فيها يتطلعون إلى التخلص من أسيادهم المكروهين بأسرع مايمكن. ولقد أدرك المعاصرون الأبعد نظراً أن هذه الحملة كانت معادية للاقطاع. فالراهب الألماني إيكهارد دي أورا كتب في أعقاب الأحداث مباشرة أن حركة الفقراء لم تكن حملة صليبية حقيقية. وبعد نصف قرن يصف القس برنار كلير فوسكي مـــسيرة الفقراء بالمثل البشع لـــ"الحملة الصليبية المزيفة". وبـــالطبع فـــإن رجـــال الكنيسة، المهتمين بالدرجة الأولى بمصالح الفرسان والأمـــراء والإقطـــاعيين الدينيين والدنيويين، كانوا يعتبرون حركة الفقراء حملة صليبية مزيفة لأن هَمَّ الفلاحين- الصليبيين الأول من التوجه نحو الشرق هو التخلص من أغـــلال العبودية، وإن كانوا قد انطلقوا تحت الشعارات الدينيـــة نفـــسها، الـــتي سيستخدمها الفرسان لاحقاً. وليس من باب المصادفة أن كبار رجـــالات الكنيسة، بمن فيهم البابا أوربان الثاني نفسه، ما إن رأوا الأبعاد الهائلة، التي اتخذها "خروج" ربيع١٠٩٦ الفلاحي، وخوفاً مـــن أن تـــصبح الـــضياع الإقطاعية بدون يد عاملة، حتى راحوا يحضون الفلاحين علـــى البقـــاء في ديارهم، بحجة أنهم لايجيدون استخدام السلاح، وأنهم باصطحابهم لأفـــراد أسرهم إنما يزيدون من صعوبة تحقيق النصر على "الكفار".وقرر رجـــالات الكنيسة إلزام أي راغب في التوجه إلى الحج بالحصول على مباركة الكاهن، أما قيمو الأديرة فراحوا يدعون الفلاحين إلى تسديد الديون المترتبة علـــيهم لهذه الأديرة قبل السفر.

لكن كل هذه الحجيج ومحاولات الاقناع لم تجد فتيلاً: فقـــد انـــدفع الأرقاء المعدمون نحو الأرض والحرية بقوة بحيث كان من المستحيل إقناعهم بالبقاء. وإلى ذلك أشار غويبرت من نوجان بقولـــه:"وتوقـــدت بـــسالة الفقراء... حماسة كبرى".

"وغصت بهم الطرق كلها".

"جرفتهم الهبَّة الأولى، فغصت بهم الطرق كلها" هذا ما كتبته المؤرخة البيزنطية الأميرة حنا كومنين عن الصليبيين الأوائل. وبالفعل فقد كانت عربات الفلاحين تغطي الطرق باتجاه الشرق، في البداية كانت وجهتها حدود الإمبراطورية الألمانية- نهر الرين العريض، ومن ثم سارت وضفتي هذا النهر، جنوباً، عبر "الطريق البابوي" /هكذا أطلق على نهر الرين آنذاك، لأن أملاك كبار رجالات الكنيسة والأمراء كانت تقع على كلتا ضفتيه الخصبتين/. استغرق الطريق عدة أسابيع، وفي نهاية نيسان /أبريل/ ومطلع أيار/ مايو/ يمم الصليبيون وجههم شطر نهر كبير آخر — الدانوب، وبالتالي عبر أراضي المجريين والبلغار، ومن ثم أراضي الإمبراطورية البيزنطية- نحو القسطنطينية.

إن بوسع كل من يلقي نظرة على الصليبيين الأوائل أن يرى أنهم لم يكونوا جيشاً، بل حشداً من المهاجرين، وهو حشد غير منتظم وفي منتهى التنوع. البعض يسير على قدميه، في أسمال من الكتان، ويرتدي حذاءً خشبياً، والبعض في عربات صغيرة، تجرها الثيران. وإلى جانب الكبار ترى الأولاد الصغار، الذين، ما إن يقتربوا من إحدى القلاع أو المدن، حتى يروحوا يسألون ذويهم عما إذا كان ما يرونه هو القدس، وبين العربات يتردد ثغاء الماعز وخوار الأبقار وقبع الخنازير. ذلكم هو الاحتياطي الحي من الطعام، الذي لم يلبث أن نضب.

أما العربات فتنقل أمتعة الفلاحين القليلة، وسقط المتاع، الذي يستخدم كغطاء للكبار والصغار أثناء التوقف ليلاً. ثم إن هؤلاء الصليبيين لم يكونوا يرتدون الزي العسكري، بل لباسهم الفلاحي العادي: قلنسوة نصف دائرية، أو متطاولة، وعلى أكتاف قلة منهم قفطانات رمادية من الصوف الخشن. لكن أغلبهم في قمصان طويلة من صنع منزلي، وفي سراويل من النوع نفسه.

وحتى سلاح الصليبيين الريفيين كان أدوات الفلاح المعروفة: المنجل، المذراة، البلطة، المدية، ذات المقابض الخشبية الطويلة، وأحياناً الهراوة الضخمة ومز راق الصيد. وفيما بعد تطلق حنة كومنين على هؤلاء الصليبيين باحتقار اسم "الغوغاء العزل"، أما المدونون اللاتين، بمن فيهم شهود العيان، فقد أطلقوا عليهم اسم "الحفاة المهلهلون". لم تعرف جموع الغوغاء الفلاحية أي نظام أو ترتيب، إذ لم يكن لهم قادة بالمعنى الفعلي للكلمة، فكان الانضباط معدوماً، والفوضى تضرب أطنابها. "لقد ساروا بدون رأس" كما كتب المؤرخ السرياني وليم الصوري. أما المدون ألبير من آخين فقد أشار إلى أن إحدى الفرق كانت تتقدمها وزّة وعنزة، اعتبرهما الفلاحون حيوانين مقدسين "وقد حلت فيهما الروح الإلهية" ويستنكر المدون المتدين أن يسير مثل هذين الحيوانين على رأس مشروع إلهي كالحملة الصليبية، ويعتبر "ذلك جريمة فظيعة اقترفتها الدهماء،" أولئك الجهلة فاقد والعقول"، الذين سقطوا في "الضلال الوثني".

وبين حشود فقراء الأرياف برزت مجموعات صغيرة من المحاربين الحقيقيين، وهم على صهوات جيادهم، وبكامل سلاح الفرسان. وقد حفظ لنا المدونون أسماءهم: الكونت لامبيرت الفقير، الذي لم يكن يملك سوى جواده الوحيد، الكونت- قاطع الطريق هيوم شاربا نتيه (وتعني بالفرنسية النجار،وقد أعطي هذا اللقب لأنه كان يوجه بسيفه ضربات قوية على غرار ضربات بلطة النجار). وغوتيه المعدم- وكان هؤلاء فرساناً فرنسيين. ومن الأراضي الألمانية الكونت إيميخو لينينجن وهوغو تيوبينجن، لم يكن عدد هؤلاء الفرسان حملة الألقاب، الذين انضموا إلى الفلاحين، يزيد على عدة مئات. ولما كان هؤلاء في غاية الحماسة لاستخدام سيوفهم ورماحهم، فإنهم لم ينتظروا حشد أمثالهم الفرسان، وساروا في ركاب "الدهماء"، أملاً منهم أن يستفيدوا من عديد الفلاحين لخدمة أهدافهم التوسعية.

بيد أن الفلاحين حاولوا الابتعاد عن هؤلاء رفاق الطريق الثقلاء و لم يكونوا يرغبون في التعامل مع هؤلاء، سيما وأن الكونتات أرادوا أن يتزعموا جحافل الفلاحين.

"سقطوا ضحايا السيوف".

استمرت مسيرة فقراء الفلاحين زهاء نصف عام. ولقد بدأ الصليبيون ممارسة السلب والنهب، وهم لايزالون في الأراضي الأوربية. ولم تكن هذه "المهنة" غريبة على الفرسان. وبدورهم كان الفلاحون غالباً ما يضطرون لانتزاع الطعام من السكان المحليين، لأن احتياطيهم من المواد الغذائية لم يلبث أن نفد، كما استهلكت المواشي التي اصطحبوها، ونضبت النقود القليلة، التي قبضوها ثمن آخر ما يملكون، ولم يعد لديهم ما يسدون به الرمق. أضف إلى ذلك أن الكثير من الدهماء انضموا إلى مسيرة الفلاحين: اللصوص المحترفين والقتلة، وغيرهم من المجرمين الفارين من العقاب، والذين وجدوا في الحملة الصليبية فرصة مناسبة لممارسة النهب.

ارتكب الصليبيون مجازر وحشية ضد اليهود في المدن الألمانية والتشيكية، فقد كانوا ينظرون إلى اليهود على أنهم أعداؤهم، مثلهم مثل المسلمين. فمن المعروف أن محكمة رجالات الدين اليهود /سينيدريون/ هي التي حكمت على السيد المسيح بالموت صلباً. وأثناء مرورهم عبر الأراضي المجرية، استمر الصليبيون في أعمال النهب: كانوا يقتحمون المنازل على شكل عصابات، ويملؤون أكياسهم بكل ما يجدونه، ثم يخربون كل محتويات البيوت، قبل أن يغادروها. وفيما بعد شكا الملك المجري كولمان من ممارساتهم بقوله: "لقد رد لنا الصليبيون الشر مقابل الخير، الذي قدمناه لهم... فعلى الرغم من أننا سمحنا لهم بإقامة السوق، وشراء ما يحتاجونه، وتركناهم يمرون بسلام عبر أرض المجر، فقد نهبوا في بلادنا الذهب والفضة، وساقوا الجياد والحمير ومختلف أنواع المواشي، وقتلوا زهاء أربعة آلاف شخص، بعد أن سلبوهم أملاكهم وثيابهم".

ولقد تكرر الشيء نفسه تقريباً في بلغاريا، التي كانت تحت سيطرة بيزنطة آنذاك، وكان البلغار، ما إن يسمعوا باقتراب الصليبيين من مدنهم وقراهم، حتى يغادروها، هرباً من جنود المسيح. لأنهم كانوا يرون فيهم مجرد لصوص وقطاع طرق. ففي إحدى البلدات البلغارية- كما يقول ألبير من

آخين- لم تعثر فرقة بطرس الناسك، وقوامها سبعة آلاف شخص، على أحد، ولا على شيء، فذاق أفراد هذه الفرقة الأمرين، إذ لم يجدوا من يبيعهم، أو يقدم لهم شيئاً.

وفي نهاية المطاف اضطرت السلطات والسكان المحليون إلى اتخاذ إجراءات رادعة ضد هؤلاء الدخلاء، الذين يعيثون فساداً ونهباً حيثما حلوا، فراح السكان يمسكون بمن يتخلف من الصليبيين عن زملائه، ويوسعونه ضرباً، أو يحرقونه، أو يشنقونه على أسوار المدينة، عبرة لمن يمكن أن تسول له بنفسه "اجتراح مآثره". وفي صوفيا أطلع المبعوثون البيزنطيون فرقة بطرس الناسك على أوامر ألكسيوس كومنين، التي تحظر على الصليبيين الإقامة في أي مكان مدة تزيد على ثلاثة أيام بسبب ما يرتكبون من أعمال السطو، ونشر للفوضى في الأراضي البيزنطية.

جرت صدامات دامية بين الصليبيين والسكان المحليين في المجر وبلغاريا، وعادة ما كانت هذه الصدامات تنتهي بشكل مخزٍ بالنسبة لجنود الرب، ذوي التسليح السيئ، وغير المنظمين. فمن بين الفرق الكبيرة الخمس أو الست دمرت ثلاث فرق، أو شردت، وبالتالي فإن حوالي ٣٠ألفاً لقوا حتفهم هنا، أي نصف عدد الصليبيين تقريباً. وفي ذات مرة قام المجريون بقتل عدد كبير من جنود المسيح، ثم ألقوا بجثثهم في نهر الدانوب، وكان عدد الجثث كبيراً جداً، لدرجة أن مياه النهر- كما يقول ألبرت آخن أصبحت أرجوانية بسبب كثرة الدماء.

ولدى توغل الصليبيين في أراضي بيزنطة صيف ١٠٩٦، وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه مع جيوش الإمبراطور نفسه. تقول حنة كومنين: ما إن عرف الكسيوس الأول من خلال عيونه، أن كل القبائل البربرية، الموجودة في الجانب الآخر من الأدرياتيك، وحتى أعمدة هرقل، زحفت أُسَراً بكاملها، وعبرت أوربا كلها، حتى أمر قادته العسكريين بـ"تعقب هؤلاء البرابرة ورصد حركاتهم، وإطلاق النار على فرقهم وطردها. إذا ما أغاروا على الأراضي المجاورة ونهبوها"، ولقد نفذ الإغريق الأمر الإمبراطوري، وألحقوا بالصليبيين ضرراً كبيراً. أخيراً وصلت الفرق الصليبية، المنهكة،

والتي قل عديدها، إلى العاصمة البيزنطية في أحد أيام شهر تمــوز/يوليــو/ الحارة. وعملياً لم يبق من قادة هذه الفرق آنذاك سوى بطرس الناسك.

لم يكن ظهور هؤلاء "الحفاة العراة" لدى أسوار القسطنطينية موضــع ترحيب من جانب الحكومة البيزنطية، ولا السكان المحليين. كان من الخطر السماح لهؤلاء الرعاع بدخول المدينة، نظراً لما سبق أن اقترفوا من أعمــال النهب والسلب، وحتى هنا في ضواحي العاصمة لم يتوقف جنود المسيح عن أعمالهم، فخربوا البساتين ومزارع الكرمة، وأضرموا الــنيران في القــصور والمباني، واعتدوا على السكان المحليين، لا بل إنهم، وقد نسوا مهمتــهم في إنقاذ المقدسات المسيحية، لم يتورعوا عن اقتحام الكنائس والأديرة، ونهب موجوداتها.

بيد أن السلطات البيزنطية كانت تدرك أن لا ضرورة للــدخول في خلاف مع طلائع الصليبيين، وقد كانت لدى بلاط القسطنطينية مــشاريعه الخاصة، الرامية إلى محاولة الاستفادة من هؤلاء البرابــرة لمــا فيــه صــالح الإمبراطورية. ومن هذا المنطلق عمد ألكسيوس كومنين إلى استقبال الراهب بطرس في قصره، وهذا ما تتحدث عنه بالتفصيل ابنته حنــة، فتقــول إن الكسيوس الأول نصح بطرس الناسك بــ"انتظار وصول الكونتات الباقين"، لكن ذلك لم يعمل بنصيحته وقد حاول الإغريق منع الصليبيين من القيــام بأعمال النهب، بالحسنى تارة، وبالقوة تارة أخرى، لكن عبثاً. أضــف إلى ذلك أنه كان لابد من إطعام هذه الحشود الدخيلة المزعجة، والــتي تعــد بالآلاف.

حين اقتنع الإمبراطور بعدم وجود مخرج آخر، أصدر أوامره بتقــديم السفن للصليبيين لنقلهم عبر البوسفور، درءاً للأخطار، التي يشكلها هؤلاء الضيوف على العاصــمة. وهكــذا لم يمكــث الــصليبيون في ضــواحي القسطنطينية إلا أقل من أسبوع، فقد نقلوا على العبــارات والقــوارب إلى الشاطئ الآسيوي، ووضعوا في معسكر "سيغي توت"، غير بعيد عن مدينة هيلينوبول، الذي كان قد بني منذ أشهر قليلة للمرتزقة الأنجلو- سكسون: لكن أتباع بطرس الناسك لم يرعووا هنا أيضاً. فقد راحوا يشنون الغارات،

المحفوفة بالمخاطر، على السلاجقة في ضواحي سيفيتوس، حتى أنهم قرروا، إثر انتشار إشاعة مفادها أن إحدى المجموعات الصليبية عادت بغنيمة كبيرة من نيقية، الزحف على عاصمة السلطان السلجوقي، التي لاتبعد سوى ٣٧كم عن المعسكر. ولم تنفع مواهب بطرس الخطابية في إقناع جنود المسيح بالعدول عن قرارهم، وحينذاك تركهم وشأنهم، وعاد أدراجه إلى القسطنطينية. كان السلاجقة يعرفون جيداً ما يدور في معسكر الصليبيين، كما يعرفون نواياهم. وللحال أبلغ هؤلاء سلطانهم قلج أرسلان بالأمر، وهكذا فقد نصب السلاجقة للصليبيين كميناً في وادٍ ضيق بين نيقية وقرية درا كون.

وفي الحادي والعشرين من تشرين الأول /أكتوبر/ فوجئ الصليبيون، المندفعون نحو نيقية بشكل فوضوي، بآلاف السهام تتساقط عليهم من سفوح الجبال ومن داخل الغابة... ولم تلبث الخيالة السلجوقية أن انقضت على مقدمة الصليبيين. وأعمل السلاجقة في جنود المسيح قتلاً، فانكفأ هؤلاء على أعقابهم، وركنوا إلى الفرار، والسلاجقة يطاردونهم. فنجا بعضهم ممن فر باتجاه البحر، ومن اختبأ في الغابات، لكن عدد هؤلاء المحظوظين كان ضئيلاً، لا يزيد على ثلاثة آلاف، بينما تجاوز عدد قتلاهم الخمسة والعشرين ألفاً.

وهكذا فإن طلائع الصليبيين لم تصل المحطة الأخيرة من الرحلة، وفشلت في رؤية القدس المنشودة، بعد أن "سقطوا ضحايا السيوف"- كما تقول حنة كومنين. تلكم كانت النتيجة الأولى للمشروع الصليبي، الذي وضعته الكنيسة الكاثوليكية.

لم تكن حركة الفقراء ونهايتها مطابقة لحسابات رجالات الكنيسة، الذين لم يكونوا راغبين- كما سبق ورأينا-في خروج هذا العدد الكبير من الفلاحين من أوربا الغربية، لأن ذلك من شأنه أن يلحق الضرر بمصالح الإقطاعيين، بمن فيهم رجالات الكنيسة نفسها، علماً أن المشروع الصليبي برمته جاء لخدمة هذه المصالح. ثم إن الأحداث اللاحقة لم تكن أفضل، حيث جاء تطور الأحداث متعارضاً إلى حد كبير مع خطط البابوية

ومشاريعها. ومع هذا فإن أبناء الشعب البسيط كانوا أول ضحايا المشروع البابوي، ومن أكثر المتضررين من هذا المشروع الفاشل.

الفصل الثالث:
أمن أجل قبر الرب حقاً؟

"وعلى أكتافهم خاطوا الصلبان الحمراء"

في الوقت الذي كان فيه فقراء الريف يلقون حتفهم في الشرق، كان الإقطاعيون لايزالون في مرحلة التحضير للحملة الصليبية: التي كان من المقرر لها أن تبدأ- حسب مجمع كلير مون- في الخامس عشر من آب/أغسطس/ من عام ١٠٩٦. وبالاختلاف عن الفلاحين، لم يكن الأسياد على عجل في التحضير للحملة، فهم يدركون أن الحملة ضخمة، ويمكن أن تستغرق وقتاً طويلاً، ولذا لابد أن يتم الاستعداد لها بشكل جيد: تجديد السلاح والدروع وادخار النقود، اللازمة في الطريق. وقد حاول الأسياد جمع هذه النقود حيثما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً: بعضهم عن طريق فرض ضرائب إضافية على فلاحيه، وبعضهم عن طريق تكثيف غارات السلب والنهب على جيرانه، وقام آخرون برهن قلاعهم وضياعهم لدى المطارنة والأساقفة، لقاء الحصول على المال اللازم من أجل "المشروع الرباني"، بينما قام البعض الآخر ببيع قراه وأملاكه وطواحينه وبساتينه لهم. وقد استغل رجال الكنيسة هذه الفرصة، فأقبلوا على شراء الأملاك من الفرسان النبلاء بثمن بخس.

بعد جني المحصول، زحفت قوات الصليبيين الرئيسة- الفرسان، البارونات والأمراء- لخوض الحرب المقدسة، وذلك خلال الفترة مابين آب وتشرين الأول من عام١٠٩٦. كان الأسياد برفقة الخدم وحملة السلاح، بينما سار الإقطاعيون ومن خلفهم الرعاع الريفيون،"الحفاة العراة"، أولئك الذين لم يتمكنوا من الانضواء تحت راية "الموجة الأولى" من حركة الفقراء. وكان الفرسان يشكلون نواة القتال الأساسية لهذه الجحافل.

وهؤلاء الصليبيون، الذين ساروا في طريق الرب، لم يكونوا حشوداً، لا ناظم لها من المشردين، بل انطلقوا نحو الشرق بسلاح جيد، وعدة مناسبة وبشكل منظم نسبياً. فلدى كل فارس سيف طويل ذو حدين فولاذيين قاطعين، ورمح خشبي ذو نهاية معدنية على شكل مُعَيَّن /عادة ما كان طول الرمح يزيد على المترين/. ومن أجل الاحتماء من سهام الخصم ورماحه، كان الفارس يعتمد على الترس الدائري، أو على شكل مثلث متطاول،/ بطول قامة الإنسان تقريباً/، وكان الفارس يمسك هذا الترس بيده اليسرى، فيغطي به جذعه كله. وبالإضافة إلى ذلك كان يرتدي تحت القفطان، الذي يحمل قطعة من القماش الأحمر، على شكل صليب، الزرد، وهو عبارة عن قميص مصنوع من الحلقات المعدنية المجدولة بكثافة، وفي بعض الأحيان كانت الحلقات توضع في طبقتين /الزرد المزدوج/، وكان هذا الزرد يصل إلى الذقن من الأعلى وإلى الركبتين من الأسفل. ولم يكن يعيق حركة الفارس، ويؤمن له في الوقت نفسه حماية "مدرعة"، إضافة إلى الترس. لكن أسعار هذا الزرد كانت غالية، ولذا لم يكن اقتناؤه في متناول جميع الفرسان، فكان أغلبهم يكتفي بتغطية القسم العلوي من الجسم بالدروع المعدنية الخفيفة والمتينة. وأما غطاء الرأس فكان عبارة عن خوذة شبه دائرية، أو ذات شكل أسطواني، لها شبكة من الأمام، وفتحتان للعينين. والساقان بدورهما كانتا مزودتين بغطاء جلدي للركبتين وآخر معدني يصل حتى الكعبين.

ولقد أخذ الفرسان احتياطياً كبيراً من السلاح والدروع. فكانت العربات، المحملة بالسلاح والعتاد، تسير في ركاب الخيالة الفرسان. وهنا، تحت الدروع و الزرد و البلطات /تستخدم في معركة المشاة/، خُبئت العلب، التي تحتوي على النقود الذهبية والفضية، ووضعت تحت حراسة الخدم المخلصين، أما الفرسان الأقل غنى، فوضعوا ما لديهم من نقود قليلة في أكياس صغيرة، مثبتة بالحزام، الذي يحمل غمد السيف.

وبين العربات، التي تجرها الخيول أو الثيران، تتراكض أسراب كلاب الصيد، وفي العربات نفسها، بالقرب من العتاد، تنتصب الأقفاص، ذات

القضبان الحديدية. ومن هناك يتردد صياح الطيور، ذات المناقير المعقوفة الحادة. فعند التحضير للحرب المقدسة، لم ينس الإقطاعيون عاداتهم في التسلية والمتعة، وأخذوا معهم الكلاب والصقور وكل ما يلزم للصيد والقنص. صحيح أنهم ذاهبون لتحرير المقدسات، لكن ما الذي يمنع من صيد الطرائد، أو الوحوش البرية في الطريق؟

لكن مجموعات الفرسان، التي انطلقت تحت ستار هدف واحد، لم تكن تشكل جيشاً موحداً. ولم يكن للفرسان، الذين ينتمون إلى بلدان ومناطق مختلفة، خطة عمل مشتركة، ولا قيادة عليا موحدة. فمنذ البداية تحركت كل مجموعة عبر الطريق، الذي اختارته، دون أن تكون لديها أية معلومات عن الطريق الذي سلكته المجموعات الأخرى، وعن مكان تواجدها. الجميع كان يعرف شيئاً واحداً: نقطة التجمع هي القسطنطينية، ومن هناك نحو مدينة القدس. ثم إن المجموعات لم تكن متشابهة من حيث الحجم، بعضها كان يضم عدة آلاف من الفرسان، بالإضافة إلى عشرات الآلاف من المشاة، وبعضها كان أقل عدداً، وبعضها الآخر لايتجاوز عدة مئات من المقاتلين. ولكل فرقة من الفرسان قائدها الخاص- السيد الذي يتزعم أتباعه. وقد حفظ لنا المدونون الغربيون والشرقيون أسماء بعض هؤلاء القادة، وتحدثوا بهذا القدر من الصدق أو ذاك، عن الأسباب، التي حدت بهم للمشاركة في الحرب المقدسة. ومن خلال مقارنة أخبار المدونين مع المعلومات الشحيحة، التي تقدمها لنا المصادر الوثائقية (سندات البيع وثائق الرهن سجلات العقارات) ومع معطيات المراسلات، يمكن أن نتوصل إلى رسم الملامح الأساسية لصور زعماء الصليبيين.

هاكم، على سبيل المثال،غودفروا الرابع، دوق لوزر نجي السفلى، قائد المجموعة اللوزرنجية، والمعروف باسم غوتفريد البولوني /نسبة إلى مقاطعة بولونيا في شمالي فرنسا/. كان في السادس والثلاثين من عمره، طويل القامة، مكتنز الجسم، عريض الكتفين، له لحية شقراء وعينان زرقاوان. كان واحداً من أوائل المشاركين في الحملة- آب١٠٩٦، يقول المدون كفار ودي كاسكيفيلوني الجنوي إن الدوق غودفروا تعرض لضرب "المارقين" عند

عودته من الحج، وهذا ما دفعه إلى المشاركة في الحملة لاحقاً. وتعتبر هذه الرواية واحدة من الأساطير، التي نسجت، فيما بعد، حول اسم غودفروا البولوني. والتي صورته للأجيال البطل الرئيس للحملة الصليبية. وبعد عشرات السنين راح الشعراء في قصائدهم والكتاب في رواياتهم والمدونون في أسفارهم يتغنون ببسالة الدوق المجيد، ويطنبون في وصف تقواه، فقد كان يمضي الساعات الطويلة يصلي خاشعاً. وتتفق كل هذه المؤلفات على أن الدوافع، التي حدت بغودفروا الرابع، إلى حمل الصليب هي: حماسته الدينية ولاشيء آخر. حيث نقرأ عند ألبير من آخن، الذي يعتبر أول من أطنب في مدح غودفروا البولوني: "لم يغادر أرضه وذويه من أجل المكاسب، بل قام بالحملة إلى القدس من أجل المسيح".

لكن الواقع يدحض هذه المزاعم. وعلى الرغم من أن هذا الإقطاعي كان يحمل لقب الدوق، و يتحدر من نسب عريق، يكاد يصل إلى شارل العظيم، فإنه لم يكن غنياً، حتى أنه لم يكن مطلق اليدين في تلك الأملاك القليلة، التي كانت تابعة له. كان غودفروا الرابع في وضع التبعية للإمبراطور الألماني، ويحلم بالانعتاق من هذه التبعية، وقد جاءت الحرب من أجل قبر الرب لتحقق له هذا الحلم. اضطر الدوق، من أجل تأمين المال اللازم للحملة، إلى رهن قلعة العائلة (قلعة بولونيا) و طاحونتين عند أسقف ليبح مقابل ١٣٠٠مارك فضي (لقاء ١٥٠٠مارك حسب رواية أخرى). لكن من الواضح أن هذا المبلغ لم يكف. فلم تكد جحافل الدوق تصل إلى كيولن، ومن ثم ماينيس، حتى عمد غودفروا إلى نهب اليهود المحليين، وأرغمهم على دفع ألف مارك. وإجمالاً فهو لم يكن يهتم بالانتماء الديني لضحاياه عندما ينهب ما لديهم، فقد عرف عنه أنه لم يكن يتورع عن السطو على أملاك الأديرة، القريبة من قلعته. صحيح أنه عشية الحرب المقدسة قدم لأخوية الرهبان هدايا قيمة لكي يُبيض سمعته استعداداً للمشاركة في الحملة الصليبية. أما القائد الصليبي الآخر، وأحد كبار منظمي كل هذه المغامرة الصليبية، فهو رايموند الرابع كونت تولوز، الذي انطلق في تشرين الأول /الشهر العاشر/ من عام ١٠٩٦على رأس جيش كبير من جنوبي فرنسا. وعلى

الرغم من تجاوزه الخمسين، فقد تميز بصحة يحسد عليها. ولما كان إنساناً في منتهى العناد والعنجهية، فقد ظل طيلة الحملة على خلاف مع بقية الأمراء، ومنذ البداية كان يتطلع نحو لعب دور القائد العام للجيوش الصليبية.

يزعم المدون السرياني من القرن الثاني عشر أن الحملة الصليبية ظهرت على الشكل التالي: لدى وصول أحد الأمراء، واسمه **سانشيل** إلى بوابة القدس، التي جاءها حاجاً، دخل في عراك مع حارس هذه البوابة، وأثناء العراك فقد سان شيل إحدى عينيه. وهكذا، فما إن عاد الأمير الغاضب إلى الديار، حتى يشرع يؤلب الفرسان، ويدعوهم إلى تحرير الأراضي المقدسة، ولكي يبرهن على ضرورة هذه الحرب كان يعرض على الجميع عينه المفقودة نتيجة عدوان "المارقين". وسانشيل هو تحريف للاسم الفرنسي سان جيل، وغالباً ماكان لقب الكونت سان جيل يطلق على رايموند التولوزي. وهذه الأسطورة لاتختلف في جوهرها عن تلك، التي نسجت حول غودفروا البولوني، ومؤداها أن رايموند التولوزي لم يشارك في الحملة إلا لأسباب دينية بحتة.

كان رايموند الرابع واحداً من كبار الأسياد الإقطاعيين، ليس في فرنسا وحدها، بل وفي مجمل جنوبي أوربا. فلا غرابة أن مرافقه، وهو أحد رجال الدين، إلى الشرق، يصوره في دور الشخصية المركزية في الحرب المقدسة، والمنفذ المباشر للتعاليم الربانية. ومع هذا فإن مرافقه، الذي قام بدور المدون لوقائع هذه الحرب، لم يستطع أن يلوذ بالصمت إزاء جشع سيده وعجرفته، لأنهما كانا دون حدود، فحين راودت البابا غريغوري السابع فكرة وضع الإمبراطورية البيزنطية تحت لواء الكرسي الرسولي، بدأ يعلق الأمل في تنفيذ مشروعه على هذا الأمير بالذات. لكن الحرب "لحماية" القسطنطينية تأجلت كما سبق وأشرنا. وفيما بعد حارب سان جيل ضد "الكفار" في شبه الجزيرة الايبيرية أملاً منه في توسيع أملاكه، إن لم يكن في فرنسا، فليكن في إسبانيا. لكن الفشل لحق به إلى هنا أيضاً. غير أن ذلك كله لم يفت في عضده، وزاد من شهيته التوسعية. وقد استحوذت عليه بخاصة فكرة الحرب في فلسطين، التي من شأن نجاحها، أن تمكنه من بسط سيطرته على المدن

التجارية في شرقي المتوسط، التي ترتبط تجارياً مع الموانئ التابعة له في جنوبي فرنسا. لو تمكن من تنفيذ هذا المشروع، إذن لتدفق ذهب كثير إلى خزائنه من الضرائب على السلع، المتبادلة بين الشرق والغرب.

تلكم كانت أهم الدوافع الكامنة وراء انضواء رايموند التولوزي تحت راية الصليب. وبالطبع فإنه لم ينسَ الدين والكنيسة، لكن اهتمامه الأكبر كان منصباً على مصالحه الخاصة. ولابد من الإشارة هنا إلى أن رايموند سبق غيره من الأسياد الفرنسيين في العثور على لغة مشتركة مع البابا أوربان الثاني: ففي طريقه إلى كلير مون التقى البابا مع الكونت في قلعة سان جيل، وهناك اتفقا على أن يعطي الكونت مثلاً للإقطاعيين، فيعرب عن استعداده للمشاركة في الحملة الصليبية، حال إعلان البابا عنها.

كذلك كانت الرغبة الجلية في التربع على عرش إحدى الدويلات في ما وراء البحار، هي ما راودت الإيطالي بوهيموند أمير تورنتو، الذي كان على رأس جيش قليل عديده، لكنه جيد التسليح ومنضبط نسبياً.

وقد رسمت حنة كومنين صورة لهذا الأمير من خلال رؤيته، وسماع حديثه مع والدها، الإمبراطور الكسيوس الأول في القسطنطينية. فقد كان بوهيموند طويلاً، مورد الخدين، منتصب القامة، كأنه لا يزال شاباً، على الرغم من تجاوزه سن الشباب. وكان ذا شعر قصير، وهذا غير مألوف لدى الفرسان، حليق اللحية، خلافاً للآخرين، ذوي اللحى الطويلة والكثيفة. لكنه كان يبدو قاسي الملامح، حتى ابتسامته كانت كئيبة--- وبالفعل فقد كان بوهيموند من أكثر قادة الصليبيين مكراً ودهاء، ويبزهم من حيث الطمع والجشع. وكان يتقن فن التستر على نواياه الحقيقية، التي لم تكن تمت إلى الدين بصلة، وكانت ذات طابع أناني بحت.

وبوهيموند هو ابن الزعيم النورماندي المعروف روبير جيسكار من زواجه الأول. وكان روبرت على رأس فرقة من الفرسان الاسكنديناقيين، الذين استولوا على شبه جزيرة نورماندیا في شمال- غربي فرنسا، وفي القرن الحادي عشر ثبتوا مواقعهم في الوديان الخصبة في جنوبي إيطاليا. وكان بوهيموند قد اشترك مع أبيه في أكثر من حملة في إيطاليا، وفي بيزنطة بخاصة.

لكن الأب لم يلبث أن رضخ لإلحاح زوجته الثانية، وترك لابنه منها كل أراضيه وعقاراته ومدنه، وحتى لقبه الدوقي، بينما لم يوص لبوهيموند إلا بأمارة تورنتو المتواضعة. ومن هنا رغبته الجامحة في الحصول على الأملاك والسلطة، التي تؤمن له النفوذ والمداخيل، بما لا يقل عما ورثه أخوه غير الشقيق. ولم يكن بالإمكان تحقيق ذلك إلا بقوة السلاح- بالاستيلاء على الأراضي، وتأسيس دويلة فيها. ولذا فقد غادر وطنه، كما تقول حنة كومنين،"تحت ستار الحج إلى هيكل السيد، أما الهدف الفعلي فهو الحصول على الأملاك".

ومن المعروف أن بوهيموند كان من ألد أعداء بيزنطة. ففي الحروب معها تكبد نورمانديو جنوبي إيطاليا هزيمة مخزية. صحيح أن ذلك حدث منذ عقد ونصف من الزمان، لكن بوهيموند لم ينس الماضي.

غير أن حنة كومنين تبالغ كثيراً حين تزعم أن أمير تورنتو لم يتحرك نحو الشرق إلا بغرض الانتقام من أبيها، "فيطيح به ، ويستولي على العاصمة". إن هذه المزاعم لا تتفق مع الواقع، غير أنه مما لاشك فيه أن النوايا المعادية لبيزنطة لم تكن غريبة على بوهيموند. لم ينس وصية أبيه له، والتي يقول فيها، حسب المدون النورماندي أورد يريك فيتاليوس " يحكم القسطنطينية شعب مخنث، يعيش من أجل ملذاته فقط، ويستسلم للموبقات. ولذا فقد قررت، بعون الله، إخضاع هذا الشعب، بالاعتماد على محاربي الكاثوليك".

من الواضح أن بوهيموند كان ينوي من مشاركته في الحملة الصليبية، كما يؤكد بعض المدونين الغربيين، أن ينتزع من بيزنطة الأراضي، التي سبق له أن استولى عليها في البلقان مع أبيه، روبيرت جيسكارد (من دراتش وحتى سالونيكا). لكن بوهيموند كان يتطلع إلى أبعد من ذلك، ويعلق الكثير من الآمال على الشرق، ويتطلع، على غرار زميله الدوق سان جيل، نحو: بسط قبضته الحديدية، بعد تأسيس إحدى الإمارات هناك، على تجار جنوبي إيطاليا، الذين جنوا الثروات الطائلة من التجارة القديمة مع سورية وفلسطين.

كان بوهيموند من تورنتو يميز جميع القادة الصليبيين الآخرين من حيث مواهبه: كان دبلوماسياً بارعاً، و لم يكن يتورع عن استخدام شتى الأساليب من أجل بلوغ مراميه. وكان، حسب وصف حنة كومنين،" حاضر البديهة في شتى الظروف، ويتفوق على جميع اللاتين، الذين عبروا بلادنا، بالحقارة والجرأة، على الرغم من أنهم كانوا يبزونه في حجم القوات ووفرة النقود".

كما تميز بين القادة الصليبيين الأسقف أديمارمن بوي في الجنوب الفرنسي، والذي فوضه أوربان الثاني بأن يصبح المرجع الروحي للجيوش الصليبية قاطبةً. وقد تميز هذا الأسقف بأسلوبه الدبلوماسي، وتفكيره الناضج، وقدرته على فض النزاعات وكبح جماح المتخاصمين، هذا بالإضافة إلى مواهبه القتالية، فقد سبق له أن استبدل بعكاز الأسقف سيف الفارس لكي يدافع عن أملاكه ضد الإقطاعيين المجاورين. ويقال إنه كان "فارساً ماهراً، يتقن استخدام السلاح".

انطلقت جحافل الصليبيين في طرق مختلفة، بعضها في موازاة نهر الرين، والبعض عبر إيطاليا، وآخرون بحراً، نحو القسطنطينية- نقطة التجمع. وكما كتبت حنة كومنين، فقد كان الفرسان أكثر من حبات الرمل على الشاطئ ومن النجوم في السماء، وعلى أكتافهم الصلبان الحمراء، متظاهرين بأنهم يرومون محاربة الترك انتقاماً لهيكل السيد. لكن دوافعهم الفعلية كانت التوسع والنهب بالدرجة الأولى.

الصليبيون في القسطنطينية

بدأت طلائع القوات الصليبية تقترب من العاصمة البيزنطية في شتاء ١٠٩٦-١٠٩٧. ففي كانون الأول /ديسمبر/ ١٠٩٦ كانت قوات غودفروا البولوني أول من رأى أسوارها العالية وأبراج حصونها. وفي نيسان /أبريل/ ١٠٩٧ أشرف على المدينة النورمانديون بقيادة بوهيموند تورينتو، والبروفانسايون بزعامة رايموند التولوزي، وغيرهم من القوات. وقبل وصولهم بفترة طويلة راجت في القسطنطينية إشاعة مفادها أن "الغرب برمته" يزحف نحو الشرق، وكما كتبت حنة كومنين لاحقاً، فإن "كل

قبائل البرابرة، الموجودة في ذلك الجانب من الأدرياتيكي، وحتى أعمدة هرقل" زحفت شرقاً. وكان الموظفون البيزنطيون، حكام المدن والولايات، ينقلون للإمبراطور أخبار زحف هؤلاء البرابرة، حملة الصلبان عبر شبه جزيرة البلقان، باتجاه العاصمة. وكانت هذه الأخبار مقلقة جداً، فهذه الجحافل الجرارة من اللاتين، كانت تظهر في تقدمها كل العداء لبيزنطة، ولا تتورع عن نهب السكان المحليين وترويعهم، بمن فيهم الصرب- أولاً، ومن ثم البلغار و الإغريق، الذين ذاقوا الأمرين على يد هذه القوات، ومن أجل النجاة بجلدهم كان الفلاحون يغادرون قراهم، بعد أن يذبحوا مواشيهم، ويتلفوا مخزونهم من المواد الغذائية، كي لا تقع في أيدي الغزاة. وفي كثير من الأحيان كان السكان يدخلون القتال ضد عصابات الصليبيين المسلحة.

استبد الغضب بالصليبيين إزاء رفض السكان المحليين بيعهم المواد الغذائية، أو تزويدهم بالأدلاء، فلجأوا إلى تصرفات لا تليق بالفرسان، ولا بالمسيحيين. ففي سلا فونيا /دلماسيا/ لم يتورع الدوق سان جيل، حسب كاتب يومياته، عن التفنن في تعذيب ستة من الدلماسيين، حيث أمر بسمل عيون اثنين منهم، وقطع أيدي اثنين آخرين، وقطع أيدي وأرجل الخامس والسادس". أما عن عمليات النهب والسلب، التي ارتكبها فرسان رايموند التولوزي، في مدينتي تراقيا روسو و ريديستو، فحدث ولا حرج، حيث اقتحموا المدينتين، وهم يهتفون: "تولوز،تولوز،" ونهبوا جميع التجار والصناع. وفي بلغاريا أحرق أتباع بوهيموند أمير تورينتو، بيلاجونيا، بعد أن نهبوا كل ما وجدوه في حوزة سكانها. لقد استولى الصليبيون على مدن بيزنطية ودمروها بكاملها. كل هذا أثار قلقاً كبيراً لدى الأوساط الحاكمة في القسطنطينية. صحيح أنه سبق لألكسيوس الأول أن استنجد بالأمراء الغربيين وببابا روما نفسه، لمساعدته في التصدي للسلاجقة، لكن تلك المحنة انتهت.أضف إلى ذلك أن كل الدلائل تشير إلى أن الصليبيين لاينوون مساعدة البيزنطيين: على العكس، فهم إنما جاؤوا الشرق فاتحين، ولا ينوون على ما يبدو أخذ مصالح دولة الإغريق بعين الاعتبار.

ومما زاد في قلق الإمبراطور أن بوهيموند، أمير تورنتو، عدو بيزنطة القديم، يخطط للتفاوض مع الدوق غودفروا البولوني حول شن الحرب على الإمبراطور. صحيح أن الأخير رفض هذا العرض، وأعلن أنه لم يشارك في هذه الحملة ليحارب ضد ملك مسيحي، لكن هذا الكلام المعسول لم يمنع قواته من متابعة أعمال النهب في تراقيا.

اتخذ الكسيوس كومنين، السياسي المجرب والحذر، والجريء في اتخاذ القرارات عند الضرورة، تدابير حاسمة، لكنها مموهة بكل مهارة، من أجل حماية أملاك الإمبراطورية في البلقان من الصليبيين الدخلاء. فقد أرسل سفراءه للقاء قوات البرابرة، فأثار هؤلاء السفراء بثيابهم، المصنوعة من الديباج والمخمل، والمبطنة بفراء القندس، دهشة الفرسان الأوربيين وإعجابهم. وازدادت دهشة الفرسان لدى سماعهم العبارات المنمقة، المفعمة بالمديح والإطراء، والموجهة إلى الدوقات و الكونتات وقادة الصليبيين، فلم يدركوا فحواها مباشرة، لأنهم لم يعتادوا أساليب التزلف والتودد، المتبعة في دبلوماسية البلاط.

كان فحوى كلمات السفراء الرنانة بسيطاً: أوقفوا السلب والنهب، تقدم لكم المواد الغذائية، ويمكنكم أن تشتروها في أسواقنا بأسعار معقولة.

وفي الوقت، الذي كان فيه مبعوثو الإمبراطور ينحنون أمام غودفروا وبوهيموند المتعجرفين، ويتحفونهما بالابتسامات والعبارات المنمقة، بدأت الأوامر الامبراطورية السرية ترسل على جناح السرعة إلى السلطات العسكرية المحلية، أن يتم توزيع وحدات المشاة والخيالة (من المرتزقة البيتشينيغ) على كل الطرق، المؤدية إلى العاصمة، على أن يتم ذلك خفية، وأن تقوم هذه الوحدات بالتصدي لمحاولات اللاتين الرامية إلى تخريب المدن والقرى البيزنطية، وأن يشن الحلفاء البيتشينيغ بين الفينة والأخرى غارات مفاجئة على تجمعات الفرسان، لكي تلحق بها أكبر ضرر ممكن، وأخيراً تخويف هؤلاء المقاتلين الأوغاد، الذين يتوهمون أن أحداً لايستطيع معاقبتهم، وحماية الأملاك البيزنطية من خطرهم، وجعلهم يشعرون أن الإمبراطورية مازالت قوية، وأنهم عاجزون عن التطاول على إمبراطور القسطنطينية.

وفي الوقت نفسه سارع الإمبراطور الداهية، "الذي يجيد استقراء المستقبل واتخاذ التدابير الوقائية" حسب شهادة ابنته، إلى إصدار الأوامر بتقديم المواد الغذائية للصليبيين، وكلف بذلك أشخاصاً، عينهم لهذا الغرض "لكي لا تظهر لدى اللاتين أية حجة أو ذريعة للاستياء" ومن البديهي أن أوامر الامبراطور نفذت في الحال.

واجهت وحدات الصليبيين صعوبات بالغة في تقدمها. فتارة يمطرها البيتشينيغ بوابل من السهام عند عبورها المخاضات، أو تسلقها الجبال، وتارة أخرى تدخل وحدات ضخمة من القوات الإغريقية في معركة مباشرة مع الفرسان، وتوجه لهم ضربات موجعة.

أراد الكسيوس الأول، بممارسة هذه السياسة، ذات الوجهين، ليس فقط حماية إمبراطوريته من الخطر الخارجي، وكبح جماح أكثر الفرسان حماسة، بل وكسب ود الصليبيين، لكن لماذا؟ لأن القسطنطينية بدأت تخطط لاستخدام القوات الصليبية لما فيه مصالح الإمبراطورية، وذلك عن طريق جعل هذه القوات تابعة للامبراطور، كذلك جعل الأراضي، التي سيستولون عليها في الشرق من "الكفار"، أراض إقطاعية، خاضعة للتاج البيزنطي. لكن هل يستطيع البازيلوس(الإمبراطور البيزنطي) أن يستميل البرابرة الأوربيين، العاجزين على الأغلب عن كتابة أسمائهم، والحريصين في الوقت نفسه على ألقابهم الطنانة ونسبهم العريق، ويرغمهم على الاعتراف به سيداً عليهم؟..

ما إن وصلت قوات غودفروا البولوني أسوار القسطنطينية، وأبلغت مراكز الحراسة أن الخيام والفساطيط نصبت في السهل المغطى بالثلج الخفيف، غير بعيد عن العاصمة، حتى دبت الحياة في القصر الإمبراطوري، الذي بدأ محاولاته الأولى، الرامية إلى تنفيذ المشاريع المبيتة. فقد انطلق لملاقاة الدوق مبعوث الكسيوس الأول، ولم يكن هذا المبعوث سوى الفارس هوجوفيرماندوا، أخو الملك الفرنسي، فيليب الأول. وكان هذا الأمير النبيل، والفقير، قد سبق الجميع في الوصول إلى القسطنطينية، وفي ظروف غير مواتية له أبداً، إذ غرقت سفينته عند شواطئ اليونان، وللحال نقله موظفو الإمبراطور إلى العاصمة. وهناك أجزل له الإمبراطور العطاء، فوافق فوراً

على أداء قسم الولاء لألكسيوس الأول، وأن يصبح أحد أتباعه. كانت مهمة هوجو الآن هي إقناع دوق بولونيا أن يحذو حذوه، فيضع سيفه في خدمة الإمبراطور البيزنطي. بيد أن غودفرا راح يؤكد بعناد أن هدفه هو تحرير هيكل السيد، ولن يأخذ على نفسه أية التزامات أخرى- أضف إلى ذلك أنه مرتبط بقسم التبعية والولاء للإمبراطور الجرماني. وحينذاك جاءت الدعوة من الإمبراطور بزيارته في قصره، لكن الدوق العنيد لم يرغب في قبول الدعوة، وأرسل نيابة عنه ثلاثة من فرسانه، اكتفوا بسماع عروض ألكسيوس كومنين، دون أن يعدوه بشيء. راح الوقت يمر في مداولات كلامية عقيمة، لكن الزمن لم يكن لصالح الكسيوس الأول، فهو يدرك أن قوات جديدة من البرابرة لن تلبث أن تصل، وأن من الخطر الكبير تركها تلتقي كلها في القسطنطينية، فيصبح التغلب عليها أمراً بالغ الصعوبة.

ومن أجل إرغام غودفروا البولوني على الخضوع، قرر الإمبراطور ضرب اللاتين بسيف الجوع. وكان يعرف بالتجربة جيداً أن الأساليب القاسية أجدى في التعامل، حيث لا تنفع الكلمات المعسولة. وهكذا أمر بوقف تموين الصليبيين بالخبز والسمك والنبيذ، والتبن لخيولهم. بدأت قوات غودفروا تشكو وتتذمر، ولم تلبث أن انتقلت إلى نهب الضواحي، أما غودفروا فقد ثارت ثائرته من ضغط الامبراطور. ولم يتورع عن الخروج بفرسانه من المعسكر، والهجوم على العاصمة البيزنطية.

تقول حنة كومنين: "كانوا يعتمدون على كثرة عديدهم. التي جعلتهم يزدادون وقاحة، فأضرموا النار في البوابة، الواقعة تحت القصر الإمبراطوري " وحينذاك تدخلت قوات الكسيوس كومنين، وأرغمت الفرسان الصليبيين على التراجع إلى المعسكر، وللحال أحاط الخيالة البيتشينينغ بالمعسكر، وأمطروه بوابل من السهام. حاول الصليبيون التصدي لهم، لكن محاولاتهم باءت بالفشل، فقد كانت قوات الإمبراطور الأخرى تحارب إلى جانب المرتزقة. كان بوسع غودفروا أن يمطر الإمبراطور الداهية باللعنات، كما يحلو له، لكنه وجد نفسه مضطراً لأن يقف صاغراً أمام منطق القوة. ولم تمض سوى أيام قليلة حتى أدى للإمبراطور يمين التبعية والولاء، بحضور أعيان

بيزنطة. "وقد التزم- كما تقول حنة كومنين- بأن يسلم كل الأراضي والمدن والقلاع التي سيستولي عليها، لذاك الذي سيكلفه الإمبراطور بتولي حكمها". (المقصود الأراضي، التي سبق أن كانت تابعة لبيزنطة).

أنعم ألكسيوس الأول على الدوق البولوني وحاشيته بسخاء، وأقام على شرفهم مأدبة عامرة في قصر بلاشير. ومن ثم قدمت للقوات الصليبية المراكب اللازمة لعبور مضيق البوسفور إلى شاطئه الآسيوي. كل هذا جرى في بداية نيسان /أبريل/ من عام ١٠٩٧، أي في الوقت الذي بدأت تصل القسطنطينية طلائع القائد الصليبي المعروف بوهيموند دوق تورنتو، الذي كان الكسيوس كومنين يرى فيه الخصم الأكثر خطورة، ولم يكن مخطئاً في اعتقاده. فقد كانت نوايا بوهيموند المعادية لبيزنطة أمراً لاشك فيه، وتثير مخاوف الإمبراطور البيزنطي وحاشيته. وهنا تذكر الكثيرون النبوءة القديمة القائلة، إن أحد الفرنجة (كما كان يطلق على سكان بلدان أوروبا الغربية في بيزنطة) سوف يسلب إمبراطور القسطنطينية حياته ودولته، وكان بالإمكان اعتبار بوهيموند، دوق تورنتو، المرشح الأوفر حظاً لتحويل هذه النبوءة إلى واقع.

لكن الذي فاجأ الجميع، وأثار الريبة لديهم، أن بوهيموند لم يتصرف كعدو لبيزنطة أبداً. فقد ترك قواته في الضواحي، ودخل العاصمة، وليس برفقته إلا ما يقرب من عشرة فرسان، فاستقبله الإمبراطور في قصر بلاشير.

لم تخفِ حاشية الإمبراطور البيزنطي الإعجاب بالضيف الكبير: قامته، دروعه، خوذته الخفيفة، المزخرفة بالفضة، والمنتهية بعرف على شكل تنين مفتوح الشدقين، بالإضافة إلى سيفه القصير في غمد من المعدن والعاج، وإلى مهمازيه الفضيين، اللذين يطلقان الرنين لدى كل خطوة.

لم يكد ألكسيوس كومنين ير خصمه القديم، وهو يتقدم نحو عرشه، غير هياب ولا وجل، حتى نهض بنفسه للقائه، ورحب به، لكأنه صديقه وحليفه، ثم أجلسه إلى جانبه، وسأله طويلاً، وبكل تعاطف، عن الرحلة، وأين ترك قواته... لقد حاول- كما تقول ابنته حنة: "أن يمحو بحديثه الودي الذكريات عن الخصومة القديمة والحروب، التي دارت بينهما"...

وأقيمت للضيف مائدة غنية بكل ما لذ وطاب من اللحوم والمقبلات... ثم جاءه الطهاة بلحوم الحيوانات والطيور، غير المطبوخة، وقالوا له: "لقد أعددنا الطعام على طريقتنا، إذا كان لا يعجبك، هاهي ذي اللحوم النيئة، وسوف نطهوها لك بالطريقة التي تريد".

كان ألكسيوس كومنين يعتقد، وهو اعتقاد له ما يبرره، أن بوهيموند لن يتناول شيئاً من الطعام الإمبراطوري خوفاً من أن يدس له السم، وبالفعل فإن الأمير النورماندي رفض تذوق الطعام، الذي قدم له، خوفاً من غدر مضيفه، وراح يوزعه على الحاضرين، وقد انتهت المأدبة على خير، ولم يصب أحد بأذى.

وفي الأيام اللاحقة حاول الكسيوس كومنين وبوهيموند التباري في تبادل الاحترام وعواطف الصداقة والود. ولما كان الإمبراطور يعرف أن الدوق بحاجة إلى المال، فقد أنعم عليه بالكثير من الذهب والفضة والثياب وغيرها من الأشياء، التي لا تقل عنها قيمة. وبدوره حاول الدوق، "ذو العقل البالغ التكتم، والذي لايكف عن حوك المكائد"، كما تصفه حنة كومنين، التظاهر بالتودد إلى الكسيوس الأول. وحين تطرق الحديث- أخيراً- إلى موضوع قسم التبعية والولاء، لم يتردد الزعيم النورماندي لحظة واحدة، بل سارع إلى أدائه، والتزم بوضع الأراضي، التي سيتم الاستيلاء عليها من "الخوارج"، والتي كانت أراضٍ بيزنطية، تحت سلطة الإمبراطورية. وكان بوهيموند، حسب وصف المؤرخة البيزنطية "كذوباً بطبيعته، ولذا فقد استجاب لرغبة الإمبراطور بكل طيبة خاطر"، ولم يبخل عليه بتأكيد وده وصداقته. لم يكن أمير تورنتو يقل عن سيده الجديد، دهاء ونفاقاً، أما يمين الولاء فقد نسيها حتى قبل أن يؤديها. لكنه كان يدرك أنه ليس بحاجة إلى توتير العلاقات مع الإمبراطور الآن، سيما وأن الأخير أغدق عليه العطايا والهبات، حتى أنه أقطعه أرضاً قرب أنطاكية، بطول ١٥ يوماً وعرض ٨ أيام من المسير. /هذا ما يذكره أحد المدونين، اللاتين، المعروف باسم "النورماندي المجهول" نظراً لأن النسيان طوى اسمه الحقيقي./

وبالطبع فإن الكسيوس الأول بدوره كان شديد الريبة بصدق ونزاهة الدوق، لكنه كان الآن بحاجة إلى ربطه ولو بيمين شكلية، أما المستقبل فلديه الخطط بشأنه أيضاً. لم تلبث فرقة أمير تورنتو أن عبرت البوسفور بدورها، بينما استمرت قوات الصليبيين الجديدة بالتدفق على القسطنطينية، التي وصفها بول دي شارتر بقوله : "يا للمدينة النبيلة والجميلة، وكم فيها من الأديرة والقصور، الرائعة البناء، ومن الأشياء التي تدهش النظر في الساحات والشوارع. وإنه لمن الصعوبة بمكان إحصاء وفرة ما يوجد هنا من الثروات بأنواعها، والذهب والفضة والأقمشة المتنوعة، والتحف المقدسة". وإزاء هذه المغريات لم يتمالك الفرسان، الذين اعتادوا النهب والسلب، أنفسهم، فامتدت أيديهم الطويلة إلى الدكاكين في الأسواق، الطافحة بأكوام الأقمشة الشرقية المزخرفة، وبالصناديق الملأى بالتوابل، ذات الروائح النفاذة، وغير ذلك من البضائع. وكان الصليبيون يتجمهرون بأعداد كبيرة أمام دكاكين الصاغة، ينظرون جاحظي العيون، إلى محتوياتها، وغالباً ما يتشاجرون بين بعضهم ومع أصحابها، فكان الحراس الإغريق يجدون صعوبة بالغة في كبح جماح فرسان الصليب.

أما عن أوساخ الغربيين فحدث ولا حرج، فقد راح العاملون في حمامات القسطنطينية يتحدثون عن قذارة الصليبيين، والأوساخ التي تدفقت من الحمامات أنهاراً، بعد دخول الغرباء إليها. وبالفعل فقد كان هؤلاء البارونات و الكونتات يجهلون إمكانية استخدام الماء الساخن في الحمام. ومع هذا كله فقد راح هؤلاء البرابرة يسخرون من عادات الإغريق الدينية، ومن رجالات الدين الأرثوذكس.

كان الإمبراطور يدرك جيداً ضرورة السهر على الأمن والنظام في العاصمة، ومنع وقوع العراك والمشاجرات، التي من شأنها أن تتحول إلى صدامات مسلحة.

وبينما كان المقاتلون الغربيون يتأملون ثروات القسطنطينية فاغري الأفواه، ويغسلون أوساخهم، ويعتدون على تجار الأسواق، استمر الإمبراطور في بذل محاولاته، الرامية إلى استمالة الزعماء الصليبيين الآخرين،

ودفعهم، بالهدايا والكلام المعسول، إلى أن يحذوا حذو غودفروا البولـوني " الباسل" وبوهيموند، دوق تورنتو "الفارس المغوار"، يقول بـول شـير دي شارتر: " لقد أغدق الإمبراطور عليهم العطاء مـن الكنـوز، والأقمـشة الحريرية والخيول والمال، التي كانوا بأمس الحاجة إليها، من أجل القيام بهذه الحملة" ومع هذا فلم يكن إقناع الزعماء الصليبيين بـالالتزام بالخـضوع للإمبراطور بالأمر السهل، مما اضطر الدبلوماسية البيزنطية لأن تستخدم كل ما في جعبتها من فنون.

أثارت اقتراحات ألكسيوس كومنين تفسيرات متناقضة بين الصليبيين. فبعض زعمائهم رأى أن التحالف مع بيزنطة لقاء مثل هذا الثمن الزهيـد- يمين الولاء والتبعية، سيعود عليهم بمنافع جمة، بما في ذلك الحـصول علـى المؤونة اللازمة، ودعم الأسطول البيزنطي. فثمة أمامهم مسافة طويلة وصعبة إلى القدس، واليونانيون يعرفون الطريق جيداً، مداخلها ومخارجها، ولديهم أدلاء محنكون. بينما رأت الأغلبية أن اعتراف زعماء الـصليبيين بالتبعيـة للإمبراطور تجعلهم يفقدون كل ثمار جهودهم، حيـث سيـصبح مـصير سلطتهم في الإمارات، التي سيستولون عليها رهنـاً بمـشيئة الإمبراطـور البيزنطي. فلماذا الحرب إذن؟.

وفي نهاية المطاف خرجت الدبلوماسية البيزنطية مظفـرة مـن هـذه المنافسة في الدهاء، إذ أقسم جميع الفرسان، باستثناء قلة منهم، يمين الـولاء للإمبراطور، وراحوا، الواحد تلو الآخر، يركعون أمامه، ويقسمون، ويدهم على الإنجيل، أن يعترفوا به سيداً لهم في الأراضي، التي سيستولون عليها، من الكفار. وراح الأعيان الإغريق، الذين لم يسبق لهم أن رأوا شيئاً من هـذا القبيل، يراقبون هذا الاحتفال البربري، برأيهم، أما بالنسبة للفرسان فإن قلة قليلة منهم فقط كانت تعتبر الأمر جدياً.

وهكذا أصبح زعماء الصليبيين من أتباع الإمبراطور البيزنطي. وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت الريبة القاسم المشترك في العلاقات بين الطرفين، وهذا شيء بديهي، فالصليبيون في أغلبهم قدموا هذه التنازلات الجلية لكي يسهل عليهم بلوغ أهدافهم التوسعية، بينما كان ألكسيوس كومنين، وهو

يحاول استعادة حدود إمبراطوريته القديمة في الشرق، يدرك جيداً أنه من المستحيل الاعتماد على "البرابرة" والثقة بهم. وإلى ذلك أشارت ابنته بقولها: "لقد رأى مسبقاً مدى عدم أمانة اللاتين، وقلة احترامهم لكلمتهم ... فهم يندفعون من تطرف إلى آخر، ومستعدون، بدافع تأمين مصالحهم، إلى بيع زوجاتهم وأطفالهم بأرخص الأثمان".

في ظل تلك الظروف تم، مع مطلع صيف ١٠٩٧، نقل جحافل الصليبيين إلى آسيا الصغرى، واحداً إثرَ آخر.

"وسقطت نيقيا العظمى"

مع عبور البوسفور وجد الصليبيون أنفسهم في بلاد معادية، فغير بعيد عن البحر طالعتهم الأسوار الحصينة لمدينة نيقيا، عاصمة الدولة السلجوقية، وقد أدركوا جيداً أن عليهم أن يبدؤوا الحرب ضد أعداء المسيح من هنا بالذات: فنيقيا تقع على الطريق المؤدية إلى آسيا الصغرى.

و نيقيا مدينة يونانية عريقة، ظلت لمئات السنين تابعة لبيزنطة، وعلى ارتباط وثيق بالأحداث المسيحية الهامة: في عام ٣٢٥ عقد فيها المجمع المسكوني المشهور، وفيه أقر آباء الكنيسة "قانون الإيمان"، الذي أصبح إلزامياً على كل مسيحي. وفي القرن الرابع أيضاً تم تحصين المدينة، وامتدت أسوارها إلى أكثر من ستة كيلو مترات، وفي القسم الغربي من المدينة، المطل على بحيرة أسكان، كانت هذه الأسوار تبدو وكأنها مزروعة في الماء، وكانت على شكل مخمس غير منتظم الأضلاع، غنية بالأبراج العالية، التي يربو عددها على المئتين، وعلى الثلاثمائة حسب بعض المصادر.

في الوقت الذي كانت فيه جحافل الصليبيين الجرارة تتدفق باتجاه هذه المدينة- القلعة، كان السلطان قلج أرسلان يحاصر مدينة ميليتوس، في عمق آسيا الصغرى. ففك الحصار عن المدينة، وعاد على عجل.

حاولت قوات الفرسان اقتحام المدينة مباشرة، لكنها قوبلت بوابل من السهام وسيول من القطران في درجة الغليان، مما اضطرها إلى ضرب الحصار حول المدينة. وفي رسالته إلى زوجته آديلا، كتب الدوق إيتان بلوا يقول:

حين رأى أمراؤنا المبجلون أن مدينة نيقيا محاطة بالأبراج... التي يستحيل اقتحامها بالوسائل العادية، بذلوا جهوداً كبيرة من أجل بناء أبراج خشبية شاهقة، ذات فتحات، بالاضافة إلى الأدوات المختلفة "(المنجنيق، الأكباش والسلالم وغيرها). استمر الحصار ما يقرب من ستة أسابيع. وقد حاولت قوات رايموند التولوزي حفر نفق تحت الأبراج الجنوبية،لكن محاولتهم باءت بالفشل.

و لم يمض من الوقت إلا أقله حتى جاءت من الشرق،من قبادوقيا، القوات، التي أرسلها السلطان، لنجدة المحاصرين في عاصمته.ودارت بين الطرفين معركة طاحنة، وصفها المدون الأرمني متى الرهوي بقوله:"راحت الأرض تميد من هول الصراخ وترتجف أبدان الخيول خوفاً من صفير السهام". ولما كان جيش قلج أرسلان قد استترفت قواه في الحروب ضد الأمراء السلاجقة، فقد لقي شر هزيمة على أيدي الصليبيين. يقول إتيان بلوا في رسالته آنفة الذكر: "راحت قواتنا تطارد السلاجقة، فقتلت الكثيرين،وجرحت عدداً أكبر،وفرت أغلبية القوات المعادية،ولولا الجبال الشديدة الانحدار،التي تجهلها قواتنا،إذن لكان العدو مني بهزيمة ساحقة،علماً أن أحداً لم يسقط من جانبنا". لكن هذا الكلام بعيد عن الواقع، إذ تدل المصادر المختلفة على أن خسارة الصليبيين في ذلك اليوم لم تقل عن ثلاثة آلاف شخص. ومع هذا فقد كان النصر مؤزراً، ورفع الصليبيون رأسهم تيهاً وفخاراً، وكانوا يعودون من ساح المعركة، كما تقول حنة كومنين "رافعين رؤوس الأعداء على أسنة رماحهم، يلوحون بها كما الرايات، لكي يراها البرابرة، فيدب الذعر في قلوبهم، ويركنوا إلى الفرار". وبهدف زعزعة معنويات المحاصرين في نيقيا. راح الصليبيون يرمون هذه الرؤوس خلف التحصينات، مستخدمين لهذا الغرض الحبال، التي عثروا عليها في معسكر السلاجقة، والتي كان السلطان قد أمر بإعدادها مسبقاً، من أجل الأسرى، إلى هذه الدرجة كان واثقاً من النصر، لكن الآمال، التي علقها الصليبيون على فعلتهم، خابت، و لم تستسلم حامية نيقيا.

فالفرسان، حين ضربوا طوق الحصار حول المدينة، من جميع الجهات تقريباً، فاتتهم ناحية هامة، فقد ظل الوصول إلى القلعة ممكناً من البحيرة، مما سمح للسلاجقة بالحصول على المؤن والسلاح والنجدة من الخارج. وحينذاك طلب زعماء الصليبيين مساعدة الإغريق، و لم يتأخر الكسيوس الأول في تقديم النجدة، فقد أصدر أوامره إلى الأسطول الإغريقي بدخول البحيرة، فتم بذلك إحكام الحصار التام على نيقيا، و لم يبق أمل في الحصول على النجدة.

أخيراً، حدد زعماء الصليبيين التاسع عشر من حزيران- يونيو موعداً لشن الهجوم. وقد أمضى الصليبيين الليل في التحضير للهجوم الوشيك. وعند الصباح "ترددت- كما تقول حنة كومنين- صيحات القتال من الجانبين، واندفع السّلت (كما يطلق على الفرسان الغربيين) بحماسة لاقتحام القلعة". وكم كانت دهشة الصليبيين واستياؤهم كبيرين حين فوجئوا- صغار المقاتلين على الأقل- برؤية رايات الإمبراطور البيزنطي، تخفق فوق أسوار نيقيا. لم يكن ذلك يعني إلا شيئاً واحداً- لقد استسلمت حامية نيقيا، لكن ليس للصليبين، الذين شنوا هجومهم على المدينة، بل للإغريق.

وهذا ما حدث بالفعل. فبينما كان الصليبيون مشغولين بحصارهم العقيم للمدينة، بدأ ميخائيل فوتوميت، الذي أرسله ألكسيوس الأول على رأس القوات البيزنطية لدعم الصليبيين، المفاوضات السرية مع القيادة السلجوقية. لم يكن الإمبراطور واثقاً من أن الصليبيين سيلتزمون بوعودهم، ويعيدون نيقيا إلى السيادة البيزنطية، بعد استيلائهم عليها، هذا أولاً، وثانياً لم يكن ألكسيوس الأول يريد السماح للصليبيين بتدمير المدينة، فأية فائدة من مدينة شبه مدمرة؟ ومن ناحيتهم فضل الترك، وقد أدركوا أن السلطان غير قادر على تقديم أي دعم مجد لهم، أن يسلموا المدينة لألكسيوس الأول، لا إلى الصليبيين، خوفاً من التعرض للتدمير على أيدي المقاتلين الكاثوليك المتعصبين. تم التوصل إلى الاتفاق مع الإغريق، وفي ليلة التاسع عشر من حزيران الشهر السادس دخلت قوات الكسيوس الأول نيقيا. وهكذا وجد الصليبيون أنفسهم وقد انتزعت منهم الغنيمة، التي كانت في متناول يدهم،

فثارت ثائرة الفرسان. إذ بدلاً من دخول المدينة دخول الفاتحين، ونهب كنوزها، حتى ولو كانت أغلبية سكانها من المسيحيين، هاهم أولاء مضطرون للانصياع لأوامر القائد البيزنطي، بدخول المدينة في مجموعات صغيرة، من عشرة أشخاص، وتحت رقابة صارمة. كان ميخائيل فوتوميت- كما تكتب حنة كومنين "يعرف السّلت جيداً، و لم يسمح بدخولهم المدينة دفعة واحدة".

كان الأمل يحدو الفرسان في نهب الثروات الكبيرة وجني المبالغ الطائلة من فدية أعيان السلاجقة، في حال وقوعهم بين أيديهم، لكنهم اكتشفوا أن إشراف المسلمين نقلوا مع ثرواتهم إلى مقر القيادة البيزنطية في مدينة بيليكان، القريبة من نيقيا. والأكثر من هذا أن بازيلوس أطلق سراح السلطانة بدون فدية، واستقبلت في القسطنطينية بكل المراسم الملكية. و لم يكتف الإمبراطور بذلك كله، بل إنه تمكن، بعد سقوط نيقيا، من الحصول على ولاء أولئك الفرسان، الذين حاولوا التهرب من ذلك في السابق.

في البداية لم يخف الصليبيون استياءهم من الخداع، الذي تعرضوا له على يد حليفهم وولي أمرهم الجديد، لكنهم لم يلبثوا أن رضخوا للأمر الواقع، سيما بعد أن أتقن الكسيوس الأول العزف على الوتر الضعيف لفرسان الصليب- الجشع. فقد أغدق العطايا والهبات على الفرسان وزعمائهم من خزنة قلج أرسلان. يقول المدون البروفانسالي ريموند آجيل: "وعد ألكسيوس أمراء الفرنجة وشعبهم بأن يسلمهم كل الذهب والفضة والجياد وكل المؤن، الموجودة في المدينة"، وهكذا لم يعد الصليبيون ينظرون إلى سقوط نيقيا في أيدي البيزنطيين على أنه فشل. على العكس لم يلبث هؤلاء أن أقنعوا أنفسهم بسهولة أنهم حققوا أول نصر على "الكفار"، وهو نصر هام للمستقبل، لم يكلفهم الكثير، وذلك خلال فترة زمنية قصيرة. وارتفعت الروح المعنوية للمتفائلين منهم، وبدأت الأوهام تراودهم في أن جعبة المستقبل تحمل لهم الكثير من الانتصارات الأكبر والأهم. فقد كتب إتيان دي بلاوس وشارتر في رسالته إلى زوجته يقول: "في التاسع عشر من

حزيران الشهر السادس انتصرنا، وسقطت نيقيا العظمى... وفي حـال لم تعرقل أنطاكية مسيرتنا، سنكون بعد خمسة أسابيع في القدس".

لكن السنيور الفرنسي أخطأ في حساباته إلى حد كبير فقد تحققـت مخاوفه من أنطاكية، وبدلاً من الأسابيع الخمسة، مر زهاء عـامين قبـل أن يتمكن الصليبيون من بلوغ هدفهم المنشود.

هذا وقد توجه زعماء الصليبيين إلى الإمبراطور في بيليكـان، وهـم مرتاحون ومطمئنون لما حصلوا عليه من هبات إمبراطوريـة، حـتى أنهـم استدعوا- كما تقول حنة كومنين- أولئك الذين لم يؤدوا له يمين الـولاء، فأدوها".

ومع نهاية حزيران ١٠٩٧ "عبر السّلت المضيق من جديد، وفي اليـوم التالي غصت بهم الطرق، المؤدية إلى أنطاكية".

"سنقتحمها معاً"

توجه الصليبيون من نيقيا نحو الجنوب الشرقي، عبر تلال صـحراوية عالية، تكاد تكون خالية من النباتات، ومن مصادر المياه، باسـتثناء بحـيرة مالحة، مغطاة بالطين، وبالنباتات المستنقعية، أو جدول جبلي صـغير. ولم يكن بوسعهم الحصول على المياه العذبة إلا من الآبار العميقة، القائمة على مسافات بعيدة عن بعضها، في الوقت الذي كان فيه القيظ لا يطاق، خاصة بالنسبة للأوربيين، الذين لم يألفوا مثل هذا الجو الحار.

انقسم الصليبيون إلى جيشين، سار كل منهما في أعقاب الآخـر، لتسهيل عملية تأمين الطعام والشراب. كانوا يتقدمون على الأغلب لـيلاً، ويضطرون إلى خوض المعارك. فالوحدات السلجوقية تظهر هنا وهنـاك، وتفاجئ الصليبيين، الذين أضناهم الحر. ولكي يتفرغ السلطان لحرب مـع الصليبيين، عقد الصلح مع خصوم البارحة- أمراء المناطق الشرقية في آسـيا الصغرى.

وفي نهاية حزيران /الشهر الـسادس/ ١٠٩٧ اسـتعدت القـوات السلجوقية الموحدة لملاقاة الفرنجة في واد بالقرب من مدينة دوريلي. حيث

تمركز السلاجقة على التلال المحيطة بالوادي. و لم تكد طلائع الـصليبيين، بقيادة بوهيموند دوق تورنتو، تدخل الشعب، مع إنبلاج الفجر، وتـستعد لأخذ قسط من الراحة، وإرواء عطشها، وعطش جيادها، حتى أن الـبعض نزع دروعه، حتى أمطرهم السلاجقة بوابل من الـسهام. لقـد اسـتخدم السلاجقة أسلوبهم المفضل في القتال: مباغته العدو بالهجوم عليه بالنبال، وما إن تدب البلبلة في صفوفه حتى تندفع الخيالة في هجوم كاسح. وبالفعل فقد اخترقت خيالة السلاجقة صفوف الصليبيين، وأعملت فيهم قـتلاً. الآلاف منهم سقطوا بالحراب والنبال، وجرت الدماء أنهاراً، وتردد صراخ الجرحى وزعيق وبكاء النساء والأطفال من شدة الرعب، وقد وقع المئات في أسـر المسلمين.

بعد زوال صدمة المفاجأة، ثاب الفرسان إلى رشـدهم، وتـسربلوا بدروعهم، ثم اندفعوا لملاقاة العدو، شاهري السيوف والرمـاح. وكـان بوهيموند في طليعة المقاتلين. فبعد أن عقد مجلساً ضم أقرب المقاتلين إليـه، دعاهم إلى أن يكونوا يداً واحدة في القتال من أجل العقيدة، كما وعـدهم "بالثروات الطائلة بعون الله". وهكذا فقد ازداد القتال ضراوة.

ومع حلول الظهيرة وصلت القوات الصليبية الرئيسة، بقيادة رايمونـد التولوزي، وهنا وجد السلاجقة، الذين كانوا قاب قوسين مـن النـصر، أنفسهم في موقف لا يحسدون عليه.

وقد دب في صفوفهم الذعر لدى ظهور وحدة من الفرسان، نزلـت الوادي من إحدى التلال القريبة، وكان على رأسها رجل ذو مظهر لايمت للمقاتلين بصلة. إذ كان في جبة طويلة، تصل إلى الكعبين، وفي عنق هـذا المقاتل العجيب يتأرجح صليب فضي، بينما يحمل في يده عـصا قـصيرة وغليظة. إنه الأسقف أديمار، مندوب البابا، وقد استبدل بالسيف العـصا، لأن سفك الدم محظور على رجل الدين. ودبت البلبلة في صفوف المسلمين، و لم يلبث أولئك الذين كانوا على وشك النصر، أن تخلوا عـن أسـراهم وعتادهم وخيام الأمراء والسلطان الطافحة بالمجوهرات.

ولت جحافل السلاجقة الأدبار دون أن تدخل المعركة. وقد جرت هذه المعركة قرب دوريلي في الأول من تموز- يوليو١٠٩٧، وفيها أخذ الصليبيون، كما يقول المدون المجهول "غنائم كبيرة، والكثير من الذهب والفضة والخيول والحمير والإبل والثيران وغيرها".

أمضى السنيورات والفرسان ثلاثة أمام في الوادي الأخضر، استردوا خلالها قواهم، ودفنوا قتلاهم، ثم تابعوا رحلتهم.

على الرغم من أن هزيمة السلاجقة في دوريلي كانت كارثة حقيقية، فإنهم لم يتخلوا عن المقاومة، لكنهم غيروا تكتيكهم، إذ نادراً ما كانوا يتجاسرون على الدخول في قتال مباشر مع الصليبيين، لكنهم بذلوا قصارى جهدهم من أجل عرقلة تقدم العدو. حيث وجد الصليبيون أنفسهم مضطرين للسير في أماكن صحراوية، تحيط بها من جهة الجبال الشاهقة، ومن الجهة الأخرى السهول القاحلة. ولا تسل عن خوف الفرسان من الوحوش البرية والأفاعي والسحالي، التي كانت الكائنات الحية الوحيدة تقريباً في المناطق، التي سلكتها جحافل الصليبيين.

و لم يكن للظل من أثر في أي مكان، ومنذ الصباح الباكر وحتى حلول الليل يستمر الحر الحارق. و لم يكن الليل بأفضل من النهار، حيث يصبح الجو خانقاً لا يطاق. كان عذاب العطش شديداً، ويضاعف الحر من قسوته. كان الماء شبه معدوم: فقد عمد السلاجقة، أثناء تراجعهم، إلى ردم الآبار بالرمال والحجارة. و لم تقتصر المعاناة على البشر، وخاصة كبار السن منهم، بل وشملت الحيوانات.

ففي يوم واحد أودى الحر والعطش- كما يقول المدون، بحياة ما يقرب من ٥٠٠ شخص. "كان المقاتلون، وقد أضناهم العرق المتدفق والحر الهائل، بالكاد يتابعون السير، وأفواههم مفتوحة، ظناً منهم أن الهواء يمكن أن يخفف من شدة العطش، لكن معاناتهم لم تخف". وراحت الخيول العطشى تتساقط، مما اضطر العديد من الفرسان إلى السير على الأقدام، أو ركوب الثيران، الأكثر قدرة على التحمل، وانتقلت مهمة جر العربات، المحملة بالعتاد، إلى الماعز والنعاج وحتى الكلاب، وكانت هذه الأخيرة

بالكاد تدب على قدميها، وقد تدلت ألسنتها. أما الصقور وغيرها من طيور القنص، التي جلبها الأعيان والأشراف، فقد أودى العطش بحياتها - كما يقول ألبيرت آخن - وكذلك كلاب الصيد نفقت هي الأخرى بسبب العطش". وفيما بعد كتب المدون المجهول يقول: "بالكاد استطعنا النجاة بجلدنا، والأصح أننا بالكاد تمكنا من الخروج من هناك سالمين".

لم يكتف السلاجقة بحرمان الصليبيين من مصادر المياه، بل وحرموهم من مصادر التموين" فالحقول خالية، والقرى خاوية، ولم يكن ثمة من يصادفونه ليسألوه عن الطريق، أما بالنسبة للأدلاء الإغريق فلم يكونوا موضع ثقة الصليبيين، الذين أصبحوا، منذ أحداث نيقيا، ينظرون إلى الإغريق على أنهم خونة، لا يؤتمن جانبهم.

استطاع السلاجقة، بفضل تكتيك الجوع والعطش، النيل من معنويات القوات الزاحفة لإنقاذ إنقاذ هيكل السيد، وبدأ الفرسان يعانون من الأمراض المعوية، ولم يسلم من المرض الدوق رايموند التولوزي استمرت معاناة الصليبيين طويلاً، ولم تنته إلا حينما حلت برودة الغوطات الظليلة، محل قيظ الصحراء. ومن بين هذه الغوطات، تلك الواقعة عند مدينة إيقونيا، والتي وصلها الصليبيون في منتصف آب الشهر الثامن ١٠٩٧. صحيح أن المدينة نفسها كانت خراباً يباباً، بعد أن دمرها السلاجقة، كي لا يستفيد الأعداء من خيراتها، لكن الفرسان اكتشفوا بالقرب منها البحيرات والمروج الغناء، والغابات والمياه الجارية.

لكن مثل هذه الواحات كانت نادرة. وبعد معركة قصيرة وناجحة ضد الترك، تجاوز الصليبيون هرقلياً، وتوجهوا نحو الشمال الشرقي، ومن ثم نحو الجنوب، مارين بـ كوكيسوس وكومانا إلى أن برزت أمامهم السلاسل الجبلية. كانت تلك سلسلة جبال أنتي طوروس أو "جبال الشيطان"، كما وصفها أحد المدونين الفرسان، الذي كان برفقة الصليبيين، أثناء عبورهم لها. كان الوقت بداية الخريف /شهر تشرين الأول/، وقد هطلت الأمطار، فجرفت الممرات الجبلية الضيقة، مما اضطر الصليبيين إلى

قطع عشرات الكيلومترات في ظروف قاسية جداً، فهم تارة يتسلقون حتى الذرى، وأخرى يتزحلقون نزولاً عبر الجروف الصخرية.

يقول المدون المجهول في وصف تسلق الصليبيين: "إن جبل الشيطان، من الارتفاع وممراته من الضيق لدرجة أن أياً من جماعتنا لم يتجاسر على أن يكون أول من يعبر الممر الواقع على حافة الجبل". وفي كثير من الأحيان كان الناس والخيول والثيران يسقطون في الهوة العميقة. ولما كانت حيوانات الجر قد ربطت مع بعضها، فقد كان يكفي أن تزل قوائم أحدها، حتى يندفع نحو الهوة، جاراً وراءه العشرات من أمثاله، والعربات المحملة بالعتاد والمؤونة.

وغالباً ما وجد الفرسان أنفسهم مضطرين للتخلي حتى عن سلاحهم. لكن أكثرهم تدبيراً عمد إلى بيعها للمقاتلين المشاة. "لما كان الفرسان يجهلون مصيرهم، فقد راحوا يبيعون تروسهم ودروعهم الممتازة وخوذهم لقاء ثلاثة- خمسة دنانير، أو أي ثمن آخر، ومن لم يتمكن من يتمكن بين بيعها كان يلقي بها بعيداً، ويتابع طريقه".

بيد أن عبور صحراء فريجيا القاحلة، والسلاسل الجبلية لم يضعف رغبة الفرسان في القتال. على العكس، فقد أصبح بمقدور قوات الصليب الآن، وبعد كسر شوكة السلاجقة، إن لم نقل القضاء عليهم، أن تشرع بتنفيذ الهدف، الذي يراود الكثيرين- الاستيلاء على الأراضي. وبالفعل فقد توجه بعض الفرسان من قوات الدوق غودفروا البولوني وبوهيموند دوق تورنتو، حال تجاوز هرقلياً، توجهوا جنوباً، نحو بلاد الأرمن- كيليكيا "حيث يقع عدد من المدن الكبيرة نسبياً. ولم يكن الصليبيون يفرقون بين أراضي "الكفار" أو "أخوتهم المسيحيين" الشرقيين، بمن فيهم الأرمن، المهم هو الاستيلاء على الأراضي، بغض النظر عن هوية أصحابها الدينية. حتى أن الدوق بودوين. الأخ الأصغر لغودفروا البولوني، لم يتورع عن دعوة تنكريد، ابن أخ بوهيموند، إلى نهب مدينة تايس المسيحية، وتقاسم الغنائم: "دعنا نقتحم المدينة وننهبها، وليأخذ كل قدر استطاعته من الغنائم".

ولم يلبث بدوين وتنكريد أن دخلا في قتال دام نتيجة الخلاف على مدن كيليكيا- أضنة، مميسترا وطرسوس. وفي ذات مرة اشتبك الطرفان في قتال ضار، راح ضحيته قتلى وجرحى وأسرى، وفي نهاية المطاف فض الخصمان النزاع، وأبرما بينهما صلحاً شكلياً، نص عملياً على إبقاء الأمور على ما هي عليه في الواقع، أو كما يقول المدون راؤول ووكايان، "ما كسبه أحدهما فقد كسبه، وما خسره أحدهما فقد خسره".

بعد ترك حاميات صغيرة في مدن كليكيا/بحجة حمايتها من السلاجقة/، انضم بودوين وتانكريد إلى قوات الصليبيين الرئيسة. وقد تبين أن بودوين كان أوفر حظاً، حيث تمكن من التوغل داخل الأراضي الأرمنية على رأس قوة قوامها حوالي الألفي مقاتل، بمن فيهم المشاة. فاستولى على عدد من القلاع، ومع مطلع عام ١٠٩٨ ثبت أقدامه في مدينة إزاسا الغنية. في البداية تظاهر أنه ينوي حماية إزاسا من الأمراء السلاجقة المجاورين. لكنه، ما إن تمكن من تثبيت مواقعه في المدينة، حتى أطاح بحاكمها الشرعي الأمير طوروس، بعد أن اشترك في المؤامرة، التي حاكها ضده أعيان الأرمن، الراغبون في إزاحة الأمير، وبكل وحشية شرع في نهب سكان المدينة المسيحيين، وراح يوزع الأسلاب على المقربين إليه. يقول متى الإزاسي: "في كل يوم يغدق الهبات من الذهب والفضة على أصحابه".

لم يلبث الإزاسيون أن تمردوا على "محرريهم"، حتى أنهم استنجدوا بالسلاجقة، لكن بودوين وفرسانه قمعوا التمرد بوحشية، وضربوا العصاة بيد من حديد: فأعدموا العشرات، وزجوا في السجون بذوي الثروة، وطالبوهم بمبالغ طائلة لإطلاق سراحهم. وفيما بعد كتب أحد المدونين من إزاسا بمرارة: "لقد ارتكبوا هذه الآثام من أجل الكنوز، فنهبوا البلاد، وأنزلوا العذاب بالناس. كان همهم الوحيد هو الشر، واقتراف الموبقات".

على هذا النحو تأسست دوقية إزاسا (الرها) أول دويلة صليبية. وفيما بعد ظهرت، بالأسلوب نفسه، دويلات فرسان الصليب في الشرق. ولا غرابة في ذلك، إذ كان السلب والنهب، كما سبق وذكرنا، الهدف الرئيس لأولئك الإقطاعيين، الذين شاركوا في الحملة الصليبية. كانت المشاريع

التوسعية القاسم المشترك بينهم، وفي إزاسا وجدت هذه المشاريع تجسيدها الجلي، حين بقي قسم من الصليبيين في الأراضي الأرمنية، واستقر فيها.

فما إن وقعت عيون فرسان الصليب على الذهب والفضة وحقول القمح الواسعة، وقطعان المواشي، وبساتين الفواكه، حتى تبخرت أفكارهم عن المقدسات الدينية، وإجمالاً كل تصوراتهم المسيحية. لكن المدونين اللاتين، يحاولون طمس الحقائق، والحديث عن وحدة الكلمة، بفضل الأهداف الدينية النبيلة. يقول بول شيرى دي شارتر: "على الرغم من أننا نتحدث بلغات مختلفة. فقد كان يبدو وكأننا أخوة وأقارب، يؤالف حب الرب بيننا". أما في الواقع فقد كانت هذه الوحدة في غاية الهشاشة. وكان الصدام بين بودوين وتانكريد في كليكيا الحلقة الأولى في سلسلة طويلة من الصدامات الحادة والدامية بين السنيورات والفرسان، الذين كان "يؤالف حب الرب" بينهم. فلم يمض من الوقت إلا أقلة حتى تجددت هذه الاشتباكات في نهاية خريف ١٠٩٨ في أعقاب دخول الصليبيين إلى سورية، بلاد الوديان الخصبة، التي تدر المحاصيل الوفيرة من الحبوب والخضار، والغنية ببساتين الحمضيات والكرمة، وحيث تنتشر الجبال والبوادي.

معجزة الرمح المقدس

كانت أنطاكية بوابة الدخول إلى سورية، وهي مدينة كبيرة، تقع في سهل، يمتد في الشطر الشمالي من البلاد، ولا يفصلها عن البحر سوى ١٨ كم، وبجوارها يمر نهر العاصي، بينما يرتفع جبل سيلبيوس من الجهة الأخرى. يقول المؤرخ العربي ابن بطلان في وصف هذه المدينة عام ١٠٥٠: إنها قلعة حصينة، تحيط بها حلقة مزدوجة من الأسوار، ترتفع في الجنوب الغربي، بانعطاف حاد نحو الجبل. والأسوار عريضة جداً لدرجة أن بوسع مركبة، تجرها أربعة خيول، أن تمر فوقها. وعلى طولها تمتد الأبراج الحجرية الثلاثمائة والستون(أكثر من ٤٠٠ حسب مصادر أخرى)، ذات الفتحات العلوية لرمي العدو، وأماكن الحراسة في الأسفل، وإلى جانب الأسوار الخارجية كانت هناك قلعة داخلية ضخمة، تقع على جبل سيلبيوس.

تعود بدايات تحصين أنطاكية إلى القرن السادس. إبان عهد الإمبراطور البيزنطي يوستينيان، حين كانت تابعة للإمبراطورية البيزنطية. وفيما بعد تمكن الإغريق في القرن العاشر من استردادها من العرب، بعد أن بقيت في أيديهم أكثر من ثلاثة قرون (من عام٦٣٧ حتى عام ٩٩٦). ثم زادوا من تحصينها و جعلها قلعة منيعة، نظراً لما كان لها من أهمية تجارية كبيرة، ولكثرة ما كان فيها من صناعيين مهرة (صناعة السجاد والحرير والفخار والمجوهرات والزجاج). كانت صناعاتهم تتمتع بالشهرة بعيداً عن حدود البلاد. صحيح أن أنطاكية بعيدة إلى حد ما عن الشاطئ البحري، ومع هذا فقد كان لديها مرفأ كبير، يربطها بالبحر المتوسط، مما جعلها همزة وصل هامة بين الشرق والغرب، هذا عداك عن الدور الكبير، الذي لعبته في الحياة الثقافية.

كانت المدينة غنية جميلة، تغص بالبساتين. هذا بالإضافة إلى حماماتها الشهيرة، ذات المياه الساخنة، والتي وصفها ابن بطلان بالتفصيل.

والصليبيون كانوا يعرفون أن أنطاكية بالغة الغنى، وهذا ما زاد من رغبتهم في بسط يدهم عليها. وكان الدوق ريموند التولوزي الأكثر حماسة واندفاعاً. فأثناء عبور الجحافل الصليبية "جبال الشيطان" في آسيا الصغرى، أرسل الدوق إلى أنطاكية قوة قوامها ٥٠٠ رجل، أملاً في الاستيلاء عليها، وسبق القادة الآخرين، دون أن يخبرهم بما فعل. وكانت قد راجت إشاعة مفادها أن الترك أخلوا المدينة، لكن تبين أن هذا الخبر غير صحيح، وأن أنطاكية لا تزال تحت حكم الأمير السلجوقي ياغي سيان. وهكذا عاد البروفانساليون بوفاض خال، ولا تسل عن غضب بوهيموند، دوق تورنتو، حين عرف بتصرف رايموند التولوزي الانفصالي، فقد ثارت ثائرته، إذ كان هو نفسه قد وضع الاستيلاء على أنطاكية نصب عينيه.

والآن، ومع وصول كل الفرق الصليبية تقريباً أسوار أنطاكية، ظل رايموند أكثر القادة حماسة واندفاعاً، فقد أعلن، بما اتصف به من تسرع، ضرورة شن الهجوم على جناح السرعة، ومن الحركة. لكن القادة الآخرين لم يشاطروه هذا الرأي، فقد بدت لهم المدينة في غاية التحصين، واعتبروا

محاولة اقتحامها عقيمة لا جدوى منها ، هذا عداك عن الخسائر، التي يمكن أن يتكبدوها دون طائل. وفي هذا الوقت وصلت الأخبار بأن جحافل صليبية جديدة بدأت تزحف من الغرب، مما رجح كفة الرأي، الداعي إلى الانتظار، وحصار المدينة.

نصب الصليبيون الخيام قرب أسوار المدينة، وبدأوا حصارها، دون أن يضعوا أية خطة لذلك، ودون أن تكون لديهم قيادة مشتركة، تشرف على الحصار، وتنسق بين الفرق المختلفة، حيث راح كل قائد يوزع قواته في المكان وبالشكل، الذي يراه ضرورياً. كلٌ كان يتصرف على هواه دون التشاور، أو التنسيق مع الآخرين، ولهذا السبب فقد ظلت الجهة الجنوبية من المدينة مفتوحة، لم يشملها الحصار. وعلى الرغم من قلة عدد المقاتلين السلاجقة فإنهم راحوا يشنون الغارات المتكررة على القوات الصليبية، ويلحقون بها الضرر الكبير.

هذا واقترن غياب التنسيق بأنانية الصليبيين وجشعهم. فقد راح الفرسان وحملة التروس يغيرون في مجموعات على الدساكر المحيطة بأنطاكية، ينهبون خيراتها من المواشي والمؤون والفواكه ودنان الخمرة، ثم يحيون المآدب وحفلات السكر. يقول رايموند الآجيلي في وصف حياة الفرسان المرفهة، نتيجة نهب السكان المحليين: "لم يكونوا يتناولون من الثور إلا اللحم الطري، ونادراً ما كانوا يأكلون من منطقة الصدر، أما الخبز والنبيذ فكانت لديهم وفرة كبيرة منهما" ويضيف هذا المدون: غالباً ما كانت غاراتهم تلحق الضرر الكبير بـ"أخوتهم المسيحيين"، أولئك، الذين جاءوا إليهم بحجة إنقاذهم من تحت النير الإسلامي. و لم يكتف الصليبيون بذلك كله، بل إنهم دخلوا في علاقات دبلوماسية مع المسلمين. ففي بداية شباط- فبراير- ١٠٩٨ وصل إلى ضواحي أنطاكية سفراء السلطان المصري، وأجروا المفاوضات مع قادة الصليبيين، وتم الاتفاق على استئنافها في مصر نفسها. وبالفعل فقد عاد السفراء المصريون إلى بلادهم، وبرفقتهم مبعوثون عن الصليبيين للتوقيع هناك على اتفاقية تحالف مع السلطان ضد أعدائه السلاجقة، وحول تقاسم سورية وفلسطين.

مع نهاية الشهر الثالث للحصار أصبحت مؤونة الصليبيين، الخاصة بهم، وتلك التي نهبوها، على وشك النفاد، وبدأ الجـوع يتفـشى في معـسكر المحاصرين /بالكسر/. هذا في الوقت الذي استمرت فيه غارات السلاجقة. وبغية وضع حد لذلك لجأ الصليبيون إلى بناء أبراج حصار خشبية، أقاموها في مواجهة بوابات المدينة، ووضعوا داخلها مقاتلين قادرين على التـصدي لتسلل العدو.

ومن أجل البحث عن المؤن نظمت في نهاية كانون الأول /ديـسمبر/ ١٠٩٧/ حملة كبيرة، أرسلت إلى وراء العاصي، إلى الجنوب من المدينـة، وكان على رأسها الدوق روبيرت الفلاندري وبوهيمونـد دوق تورنتـو، وتضم عشرين ألفاً من المشاة، أي ما يقرب من نصف عـدد الـصليبيين. وبالقرب من مدينة البارة تعرضوا لهجوم قوات الأمير دقمـاق صـاحب دمشق" وغيره من القادة السلجوقيين، المتجهين لنجدة أنطاكية المحاصـرة. صحيح أن الصليبيين تمكنوا من صد الهجوم بفضل وصول بوهيمونـد في الوقت المناسب، /وكانت فرقته متأخرة عن فرقة روبيرت الفلاندري، التي تعرضت لهجوم الترك/، لكن بعد أن تكبدوا خسائر كبيرة.

تفاقمت حدة الجوع بين المحاصرين /بالكسر/ خاصة في أيام كـانون الثاني/يناير/ المكفهرة والممطرة. مئات الناس راحوا ضحية الجوع، ولم تكن الحيوانات أوفر حظاً. إذ يؤكد المدون أنه لم يبق لدى الصليبيين سوى ٧٠٠ حصان، وحتى هذه لم يكن بالإمكان تأمين العلف لها. ولم يلبث الفرسان، الذين كانوا، حتى عهد قريب، يحيون الولائم العامرة، ولا يـأكلون مـن اللحوم إلا ما لذ وطاب، أن راحوا يتململون، ثم بدأوا يغادرون المعـسكر زرافات ووحدانا، وكان في عداد الفارين بطرس الناسك، صحيح أن قـوة أرسلت وراء الفارين، وتمكنت من إعادتهم إلى المعسكر، لكن البلبلة ضربت أطنابها بين الصليبيين، وهذا ما يعترف به بول شيرى دي شارتر: "سـيطر اليأس على الجميع" وبدأ الكثيرون يفكرون سراً بالنجاة بجلدهم، بـالهرب، إما براً، أو بحراً".

إن المدونين اللاتين لا يبخلون في رواياتهم في صب المدائح والإطـــراء للصليبيين وقادتهم، وتصوير شجاعتهم وبسالتهم. لكن الواقع أن "فضائل" هؤلاء "الأبطال" كانت في منتهى التواضع. حيث كانت صفوفهم- كمـــا يؤكد شهود العيان- تغص بالجبناء وذوي الروح المعنوية الضعيفة، والخائفين من الصعاب، والذين لا يتورعون عن الهرب من الصفوف لدى أول فرصة. حتى أن بعض الأسياد والفرسان، من حملة الأسماء والألقاب، انـــضموا إلى هؤلاء الفارين، بمن فيهم الدوق إيتان دي بلاوس وشارتر، الذي أوكل إليه الأمراء في نهاية آذار- مارس-١٠٩٨ مهمة الإشراف على حصار أنطاكية. لكنه وكما يقول المدون، "أصيب بمرض عضال"، وقبيل سقوط المدينة "فر بشكل مُخز" إلى اسكندرونة.

يروي مدون شرقي القصة التالية:ذات مساء رأى الفرنجة المـــسلمين، وهم يدفنون في المقبرة، الواقعة خارج المدينة، موتاهم، الـــذين ســـقطوا في الصدام مع الصليبيين، فلم يحرك الفرسان ساكناً، ولم يمسوا أعداءهم بأذى، لكن ما إن أشرقت الشمس، حتى هرعوا إلى المقبرة، ونبشوا قبور أمـــس، وانتزعوا المجوهرات من جثث الموتى، صحيح أن هذه الجواهر لا تشبع من جوع، لكن النهب أصبح عادة مألوفة بالنسبة للفرسان.

وحده بوهيموند دوق تورنتو ظل متماسكاً، محافظاً على رباطة جأشه في ظروف الحصار الطويل القاسية، وظل الأمل يراوده في أن يصبح أمـــير أنطاكية. وقد نقل إليه بعض عيونه أن قائد أحد أبراج الحراسة في القـــسم الغربي من السور يكن الكراهية للأمير السلجوقي بسبب ما لحق به من ضيم وإساءة، فسارع الدوق إلى إجراء الاتصالات السرية مع هذا القائد، وتمكن من إقناعه بالسماح لفرسانه بدخول المدينة، لقاء مبلغ كبير.

حين أبلغ بوهيموند أقرانه من قادة الصليبيين أنـــه يعـــرف طريقـــة للاستيلاء على أنطاكية بسرعة، وطلب منهم أن يقسموا على تسليمه أمارة المدينة، تردد هؤلاء، فكيف يتخلون له طوعاً عن الغنائم، التي تنتظرهم هـــا هنا؟

وفي هذا الوقت بدأت تصل التعزيزات، ففي ميناء القديس سيمون، كما كان يسمى مرفأ أنطاكية، رست عشرات المراكب الجنوية تلتها المراكب القادمة من إنجلترا وعلى متنها الأخشاب، اللازمة لبناء أبراج الحصار والمعدات القتالية المختلفة. كل ذلك يبشر بالنصر القريب. فما الداعي للتخلي لبوهيموند عن كل شيء! وكان دوق تولوز أكثر المعارضين لأطماع بوهيموند. فكان لا يكف يذكر القادة الصليبيين بقسم الولاء، الذي أدوه لألكسيوس كومنين. علماً أن أنطاكية كانت تابعة لبيزنطة، والغريب أن هذا الدوق كان أكثر من القادة الآخرين رفضاً لأداء يمين الولاء للإمبراطور البيزنطي.

رد بوهيموند على الدوقات والكونتات بكل برودة: "إذا كنتم لا تريدون، فلا حاجة لذلك، أما أنا فثمة أمور عائلية عاجلة تضطرني للعودة إلى الديار".

كان من شأن مغادرة بوهيموند، الأجدر بين قادة الصليبيين في مثل هذه الظروف العصيبة، أن تؤدي إلى عواقب وخيمة، ليس أقلها فشل حصار أنطاكية. وهذا ماكان يثير مخاوف أغلب القادة الصليبيين، وهي مخاوف لها ما يبررها. ففي منتصف أيار انتشر بين صفوف الصليبيين خبر مشؤوم، نقله المسيحيون (الأرمن اليونانيون والسريان)، الهاربون من المدينة، ومفاده أن جيشاً جراراً قادم لنجدة أمير أنطاكية من الشمال والشرق، وأن الأمراء السلاجقة وحدوا كلمتهم، وزحفوا لمحاربة الفرنجة، وعلى رأسهم حاكم الموصل كربوغا، وقد ضاعف هذا الخبر مخاوف الصليبيين، وزاد من قلقهم، وبالتالي من عدد الهاربين منهم، بمن فيهم كبار الأعيان.

وفي ظل هذا الذعر والخوف وجد القادة الصليبيون أنفسهم مرغمين على الرضوخ لطلب بوهيموند، والتنازل له عن حكم أنطاكية. وهكذا وقفت فرقة من الفرسان النورمانديين في أحد ليالي حزيران ١٠٩٨ تحت البرج المعروف باسم "برج الأختين"، الواقع في الشطر الشرقي من المدينة، بينما تمركزت قوة أخرى في مكان قريب، مواجه لبوابة القديس جرجس. وبين الفينة والأخرى كان الحراس يظهرون فوق الأسوار، وحين وصلت

الدورية إلى "برج الأختين"، وعادت أدراجها، أعطى الخائن فيروز، الإشارة المتفق عليها، وفي صمت مطبق أسند الفرسان السلم إلى السور، وراحوا يتسلقونه. يقول المدون: "لما كان الجميع في عجلة من أمرهم، كل يود أن يسبق الآخر، فقد تحطم السلم". لكن مجموعة من الفرسان تمكنت من الوصول إلى داخل المدينة النائمة، وحطمت البوابة القريبة من الداخل، أما البوابات الأخرى فتم تحطيمها من الخارج بالأكباش الخشبية المسلحة.

اقتحم الصليبيون أنطاكية، وهم يطلقون الصرخات المدوية: "الله يريد"، ولم يلبثوا أن استولوا على بقية الأبراج، بعد أن فشل المحاصَرون في التصدي للهجوم المباغت. وقد لقي أغلب هؤلاء حتفهم في الحال، وتمكنت حفنة قليلة من البواسل من التمترس وراء أسوار القلعة الداخلية. لقد تحققت مخاوف الأمير كربوغا، وفتح أحد قادته الخونة باب المدينة للفرنجة. أما بوهيموند فلم يضيع الوقت سدى، وأمر بنصب رايته على تلة مواجهة للقلعة- كما يقول أحد فرسانه المدونين.

ما إن دخل المحتلون أنطاكية، حتى ارتكبوا مجزرة وحشية. وأعملوا فيها قتلاً وتدميراً، دون تمييز بين المسيحيين و"الكفار". وبكل صفاقة يتحدث المدونون عن تلك الجرائم، التي يندى لها الجبين. يقول المدون المجهول: كل الساحات كانت مغطاة بجثث القتلى، إلى درجة أن أحداً لم يكن قادراً على الاقتراب من المكان بسبب الرائحة القوية. ولم يكن بوسع أحد السير في الشوارع إلا على جثث القتلى".

لقد قام الصليبيون بتصفية جميع الذكور، القادرين على حمل السلاح.

كما تعرضت المدينة للنهب الوحشي، وفي وصف ذلك كتب أحد شهود العيان يقول: "إننا لنعجز عن القول كم من الغنائم أُخذ من أنطاكية، تصوروا قدر استطاعتكم، وزيدوا على ذلك. كما نجهل كم سقط آنذاك من الترك والساراتسين. الذين لقوا حتفهم بأشكال مختلفة.

أما الصليبيون فراحوا يحتفلون بالنصر، ويعوضون عن الحرمان، الذي تعرضوا له إبان الحصار. وقد كتب القس رايموند دي آجيل، يعرب عن استيائه من تصرفات الفرنجة هذه، "إذ نسوا الله، الذي حباهم بهذا النصر،

وراحوا يولمون المآدب، ويتمتعون بأغاني الساحرات الوثنيات"، وإن هي إلا أيام معدودات حتى نضب احتياطي الخبز، واللحوم، وهو احتياطي كان قليلاً أصلاً. بعد سبعة أشهر من الحصار.

بينما انصرف الفرسان إلى اللهو والمجون، وشرع الأُتباع في تنظيف الساحات والدروب من الجثث، خوفاً من تفشي الأوبئة، وصل أسوار المدينة جيش كبير، قوامه ٣٠٠ ألف شخص، بقيادة الأمير كربوغا.

ضرب السلجوقيون طوقاً تاماً من الحصار حول المدينة، ووجد الصليبيون أنفسهم محاصرين /بالفتح/ بعد أن كانوا لأربعة أيام خلتَ مُحاصِرين /بالكسر/. وفي رسالتهم إلى البابا أوربان الثاني، فيما بعد، كتبوا له يقولون: "لقد حاصَرنا الترك من كل الجهات، لدرجة أن أياً منا لم يعد قادراً على الخروج، ولم يعد بوسع أي كان القدوم إلينا".

ومن جديد راح الجوع والأمراض تحصد قوات المسيح، واضطر الصليبيون إلى التهام كل ما يقع بين أيديهم من المواد الجلدية ولحاء الأشجار والأعشاب والقطط الميتة. وإزاء عجزهم عن تحمل قسوة الجوع، عادوا إلى الفرار، فكانوا يضعون السلالم المجدولة من الحبال، ويفرون تحت جنح الظلام وبعد عبور خطوط العدو، يندفعون نحو المراكب الراسية في الميناء، وقد عُرِف هؤلاء باسم "هاربو الحبال".

لم يبق لجنود الصليب، للخروج من هذا المأزق، إلا الاعتماد على القوة الخارقة، فلجأوا، وقد استبد بهم الخوف من أن يتمكن كربوغا من اقتحام المدينة، إلى الابتهالات الدينية، وراح البعض منهم يقضي سحابة النهار راكعاً خاشعاً متضرعاً في كنائس أنطاكية، طالباً العون من السماء، وإرسال المعجزة.

ولقد تحققت هذه "المعجزة" فعلاً. وفيما بعد روى قصتها رايموند دي آجيل، علماً أنه أحد المساهمين في وضع السيناريو لها، وكبير الممثلين في عرضها، لكنه بالطبع يتستر في كتابه "تاريخ الفرنجة، الذين أخذوا القدس" على حقيقة هذه المعجزة. بيد أن علماء القرنين التاسع عشر والعشرين توصلوا، من خلال مقارنة روايته مع روايات المدونين الآخرين، شرقيين

وغربيين، إلى الكشف عن سر هذه "المعجزة الربانية". ومن الواضح أن الهلوسات الدينية، التي استحوذت على عقول عدد من الصليبيين، المشاركين في الحملة، قد اقترنت بالتدابير المسرحية، التي جرى التحضير لها سراً.

ففي ذات مرة أعلن أحد الأرقاء البروفينسال، المدعو بطرس بارتيليمي /ربما كان رجال الكنيسة هم من لقنه ذلك، أو أنهم استغلوا هلوساته الدينية/ أنه رأى في المنام الملاك أندريوس، الذي كشف له مشيئة الرب، وأخبره بوجود رمح مطمور في كنيسة القديس بطرس في أنطاكية، وهو الرمح، الذي طعن به أحد المقاتلين الرومان السيد المسيح في جنبه، حين كان مصلوباً. وأكد الملاك أن هذا الرمح، في حال تمكن الصليبيون من العثور عليه، سوف ينقذهم من جحافل العدو الجرارة.

بدءاً من القرن السادس كانت قد انتشرت في الغرب الخرافات عن هذا الرمح على نطاق واسع، وذكر أن اسم ذلك المحارب الروماني، صاحب هذا الرمح هو لونغين، الذي نسجت من حول اسمه الأساطير، بما فيها شفاؤه من مرض العيون ما إن وقعت قطرة من دم المسيح المصلوب على يده، ولامس بها عينيه، واعتناقه المسيحية إثر ذلك، ومن ثم كيف راح ضحية اضطهادات المسيحيين في قيصارية. وبكلمة مختصرة فقد أصبح لونغين واسع الشهرة والتقدير بين المسيحيين، وتحول رمحه إلى واحد من أهم المقدسات لديهم. ما إن وصل نبأ حلم بطرس بارتيليمي مسامع رايموند دوق تولوز، حتى أرسل مجموعة من الفرسان ورجال الدين إلى كنيسة القديس بطرس، للبحث عن الرمح.

بعد يوم من الحفر في أرض الكنيسة، عثرت المجموعة على قطعة من الحديد، يعلوها الصدأ... إنه الرمح المقدس، الذي كشف عنه الملاك أندريوس لبطرس بارتيليمي. وعن هذه المسرحية كتب رايموند دي آجيل، وهو واحد من أبطالها، يقول: "كانت مشيئة الرب أن نعثر على هذا الرمح، وقد قمت بتقبيله، ما إن أخرج من الحفرة".

والواقع أن قصة معجزة الرمح حيلة مدبرة من ألفها إلى يائها. وإذا كانت هذه الحيلة قد انطلت على البسطاء وتلقفها المتعصبون، فإن الكثيرين من الصليبيين البارزين رفضوا تصديق هذه "المعجزة"، بمن فيهم مبعوث البابا، أديمار دي بوي، والكثير من رجال الدين المرافقين للحملة. أما القس المدون فولهيردي شارتر. فقد اعتبر بطرس بارتيليمي "مذنباً في تزوير قصة الرمح. وفي كلمته أمام مجلس القادة تهكم بوهيموند، دوق تورنتو، علناً من عملية تزوير الرمح " المقدس"، وسخر من أولئك الذين "ينسبون الفضل في النصر، الذي أحرزناه، إلى قطعة من الحديد الصدئ وبدوره يصف المدون راؤول من كائين بطرس بارتيليمي بـ "المخترع الماكر للدجل". وباختصار فإن العديد من الصليبيين لم يصدقوا هذه القصة المفبركة.

لكن أولئك، الذين كانوا وراء وضع هذه المسرحية وتمثيلها كانوا يعرفون عملهم جيداً، ويدركون مدى أهمية ما يقومون به لرفع روح قوات الصليب المعنوية، ووضع حد لظاهرة الفرار، وغرس الثقة بالنصر القريب على السلاجقة.

انتشر خبر "المعجزة" بين المحَاصَرين /بالفتح/ انتشار النار في الهشيم، فقويت مشاعرهم الدينية، وازدادت حماستهم لخرق الحصار، والإفلات من براثن الجوع، أو لتجنب الوقوع في الأسر، فالرمح المقدس لا شك سوف ينتشلهم من هذه المحنة.

سارع القادة إلى طرق الحديد وهو حام، فقاموا بتوزيع قواتهم إلى ست فرق، وفي الثامن والعشرين من حزيران- يونيو- من عام ١٠٩٨ شن الصليبيون هجومهم على قوات السلاجقة، وقد كان الدور الرئيس من نصيب بوهيموند، أما دوق تولوز فقد أقعده المرض. اندفع الصليبيون، الذين أضناهم الجوع، إلى الهجوم، وكأن بهم مسا. وكان رايموند دي آجيل في جبته البيضاء يوسع خطاه، يرفع في يده الرمح المقدس، بحيث يراه المهاجمون فيقاتلوا العدو بضراوة، وينتزعوا النصر.

ولحسن حظ الصليبيين أن الخلاف دب بين أمراء السلاجقة عشية الهجوم، وقام عدد من هؤلاء، كما يقول المؤرخ العربي ابن الأثير، بالتخلي

عن كاربوغا، الذي يكنون له الكراهية، وفروا مع قواتهم من ساح المعركة، مما أدى إلى تقلص قوات المسلمين إلى حد كبير، وقد ضعفت هذه القوات بشكل ملموس خاصة بسبب رحيل الأمير الدمشقي.

فوجئ السلاجقة بهجوم الفرنجة. وعلى الرغم من أن نبالتهم أمطروا صفوف الصليبيين بوابل من السهام المسمومة، فقد تمكن هؤلاء من اختراق مركز المحاصرين /بالكسر/، الذين دبت في صفوفهم البلبلة، و لم يلبثوا أن ولوا الأدباء. ويختتم ابن الأثير رواية أحداث ذلك بقوله: "قتل الفرنجة عدة آلاف من المسلمين، واستولواعلى كل ما كان في المعسكر من الطعام والمال والجياد والسلاح".

عادت أنطاكية إلى الصليبيين في الثامن والعشرين من حزيران ١٠٩٨، وهنا اتخذ التنافس للاستيلاء عليها بين أمير تورنتو وكونت تولوز شكلاً سافراً. كان كل منهما يحاول الفوز بها، ومن أجل ذلك لم يتورعا عن اللجوء إلى كل الأساليب والسبل. فرايموند التولوزي، الذي كان حتى عهد قريب، يرفض أداء يمين الولاء لألكسيوس الأول، راح، فجأة يلح بإصرار على تسليم المدينة للإمبراطور، بموجب معاهدة التبعية، المهم أن لا تقع في أيدي بوهيموند. وراح قادة الصليبيين يعقدون الاجتماع تلو الاجتماع في كنيسة القديس بطرس، تلك التي عثر فيها على الرمح المزعوم، وهم يتجادلون، وقد بحت أصواتهم، حول مصير أنطاكية، ولمن ستسلم. أما المتنافسان فراح كل منهما يباري الآخر، وقد علا الرغاء فمه، في البرهان على مدى مساهمته في الاستيلاء على المدينة، وبالتالي أحقيته في الفوز بالسلطة فيها. وفي الوقت الذي اضطر فيه جميع القادة للقبول بالأمر الواقع، والتخلي لبوهيموند عن كل التحصينات، التي استولوا عليها بعد هزيمة كربوغا، رفض الدوق التقي سان جيل رفضاً قاطعاً التخلي له عن "نصيبه". –البوابة القريبة من الجسر القائم على العاصي. أخيراً تمكن الأسياد والأساقفة، الذين توسطوا بين الطرفين، من فض الخلاف بينهما، وذلك في شهر أيلول– سبتمبر ١٠٩٨

بمنح بوهيموند دوق تورنتو حق حكم المدينة، تشكلت ثـاني دولـة للصليبيين في الشرق. و لم يعد أمير أنطاكية الجديد يفكر بمتابعة الحملـة إلى القدس، فقد حقق ما كان يصبو إليه، أمـا الأرض المقدسـة فليحررهـا الآخرون.

"لسوف نهدم المدينة"

بدورهم لم يكن الأسياد والفرسان الآخرون مستعجلين في التحـرك باتجاه القدس، وقد بدا وكأنهم لم يعودوا يفكرون بهيكل السـيد، وأنهـم قانعون جداً بخيرات الأرض السورية الوفيرة. وعلى عادتهم راح الصليبيون يطوفون أرجاءها، ينهبون، بينما انصرف قادتهم إلى ترسـيخ مـواقعهم في المناطق التي احتلوها، وعمدوا إلى احتلال مناطق جديدة فغودفروا البولوني استولى على قلعتي تل باشر وراويندان، بينما استولى روبيرت النورماندي على مدينة اللاذقية البحرية، واستولى النورمانديون الإيطاليون على مدينـة المعرة، ذات العدد الكبير من السكان.

وكما يروي المدون النورماندي فإن بوهيموند الجشع أمـر سـكان المدينة بالتجمع في الساحة العامة، بعد أن وعدهم بإنقاذهم مـن المـوت، وحين تجمعوا هناك رجالاً ونساءً وأطفالاً، حاملين كل ما لديهم... انتزع منهم كل شيء من ذهب وفضة، وغيرها من الأحجار الكريمة، التي عثـر عليها بحوزتهم، ثم أمر بقتل البعض منهم، ونقل البعض الآخر إلى أنطاكية، لبيعهم هناك.

ولم يكن النورمانديون وحدهم من مارس أعمال النهب في المعرة، بل وشاركهم ذلك جميع الصليبيين. حيث يقول المؤرخ العربي، ابن القلانيسي "لقد نهب الفرنجة كل ما تمكنوا من العثور عليه، وطالبوا الناس بالمستحيل" وغالباً ما كان الفرسان يتناحرون فيما بينهم، أو مع أتباعهم "بسبب الغنائم أو الأسلاب"- كما يعترف رايموند الآجيلي.

خلال العامين والنيف طرأ نقص كبير على عديد الـصليبيين: ففـي المعارك في آسيا الصغرى وقرب أنطاكية، وكذلك بسبب الأمراض والجوع، أحاق الهلاك بأكثر من نصف الصليبيين.

ولم يلبث المقاتلون العاديون (صغار الفرسان، الفرسان المفلسون، والخدم والفلاحون بشكل خاص) أن راحوا يعربون عن استيائهم وتذمرهم من أنانية زعمائهم، ويبدون رغبتهم في التوجه على جناح السرعة إلى القدس. لتحريرها من "الكفار".

وبينما كان زعماء الصليبيين يجتمعون ويتشاورون حول من منهم سيستولى على إمارة أنطاكية (أربع مرات اجتمع مجلس النبلاء للبت في هذه المسألة)، نفد صبر عامة الصليبيين، فاقتحم عدد من "الحفاة العراة"، المسلحين بالهراوات والسكاكين الكنيسة، حيث يعقد مجلس الإقطاعيين، وراحوا يطالبون زعماءهم بوقف تناحرهم، والتوجه إلى القدس، ويهددونهم بهدم أنطاكية، موضوع النزاع، وبوقف الحملة والعودة إلى الديار. كانت تلك بواكير التمرد، الذي لم يلبث أن اندلع بقوة في المعرة.

ففي شتاء ١٠٩٨- ١٠٩٩ تفاقم الوضع في معرة النعمان، التي اختلف رايموند دوق تولوز مع القادة الآخرين حول الفوز بها، مما آثار الاستياء في صفوف القوات، ومن ثم دفعهم إلى التمرد والعصيان. ففي "تاريخ الفرنجة، الذين أخذوا القدس" نقرأ أن الشباب والشيوخ، وحتى الضعفاء والكتعان على عكاكيزهم، انضووا تحت لواء التمرد، ومما زاد في استياء الفقراء أن الدوق أعلن عن نيته إبقاء الكثير من الفرسان والمشاة من قواته في المعرة من أجل حمايتها. ويضيف صاحب "تاريخ الفرنجة..." أن كثيراً من الدهماء في صفوف الصليبيين أعلنوا: "في البداية كان الخصام على أنطاكية وفيما بعد حدث على المعرة. وفي كل مكان ينعم الرب علينا بالنصر يختلف قادتنا على اقتسام الغنائم، بينما يتقلص عديدنا. كلا، لسوف نضع حداً للخصام في هذه المدينة. فلنذهب، وندك أسوارها، وحينذاك يقتنع الدوق أنه لن يخسر المدينة". وللحال قرن الدهماء أقوالهم بالأفعال، حيث زحفوا على تحصينات المعرة. و"بكل سهولة انتزع أحد الأشخاص، وهو يكاد يسقط جوعاً، حجراً ضخماً من سور المدينة، لا يكاد يقوى على حملة زوج من الثيران، ودحرجة بعيداً".

عبثاً حاول رجال الدين وأزلام دوق تولوز، وهم يطوفون أرجاء المدينة، كبح جماح الغوغاء، وإيقافهم عن تهديم سور المدينة. وخلال يوم واحد دكت تحصينات المعرة وأبراجها من الأساس، و لم يبق أمام الأسياد من شيء يتخاصمون من أجل نيله.

جعل تمرد البسطاء بعض القادة الصليبيين يثوب إلى رشده، بمن فيهم الدوق سان جيل، وهكذا صدرت الأوامر بمتابعة الحملة. وفي ربيع ١٠٩٩، أي بعد مرور قرابة ثلاث سنوات على بدء الحرب المقدسة، دخل الصليبيون فلسطين. واندفعوا نحو القدس على عجل، ودون نظام، ليس رغبة منهم في أن يكحلوا أعينهم بالمدينة المقدسة، بل لسبب آخر، وهذا ما يضطر للاعتراف به المدون، شاهد العيان، فيقول: "كل منهم كان يريد سبق الآخرين، والأمل يحدوه في الاستيلاء على القلاع والقرى... لأن العرف لدينا أن كل من يقترب من قلعة، أو قرية، وينصب رايته عليها، ويضع حرسه فيها، تصبح له، ولا يحق لأحد منازعته عليها... وللأسف أن قلة قليلة منا كانت تذكر الرب".

"إذا ما رُويت الحقيقة، بدت أغرب من الخيال".

في صباح أحد أيام حزيران الحارة من عام ١٠٩٩، وقف الأسياد والفرسان و"الصعاليك" فوق جبل عال، عرف فيما بعد باسم "جبل الفرح"، ورأوا أخيراً مدينة على الصخور، إنها القدس، الهدف المعلن لحملتهم.

كانت القدس آنذاك مدينة عربية، يحكمها السلطان المصري، الذي سبق لقواته أن انتزعتها من السلاجقة العام الماضي. رأى الصليبيون أمامهم مساجد كثيرة، ذات قباب نصف دائرية، ومآذن عالية، وبيوت كبيرة وصغيرة، وطرق ودروب، تتلوى بشكل عجيب.

منذ القرن الرابع، أصبحت القدس، بعد بناء كنيسة القبر المقدس فيها، مركزاً مقدساً للمسيحيين، إضافة إلى اعتبارها مكاناً مقدساً بالنسبة لليهود، كما تعتبر مقدسة لدى المسلمين أيضاً. وهكذا فقد كانت مدينة مقدسة للأديان الثلاثة، مما زاد في حدة الحروب، التي اندلعت بين الأقوام والدول

المختلفة من أجلها. وهي في الحقيقة حروب لم تندلع لأسباب دينية أبداً، وإن كانت قد شنت تحت الرايات الدينية، ولم تكن الحملة الصليبية في نهاية القرن الحادي عشر استثناء من هذه القاعدة.

والقدس مدينة في غاية التحصين، فمن الجهات الثلاث يزنرها خندق عميق، هذا بالإضافة إلى أسوارها العريضة، ذات الأبراج، المجهزة بالفتحات الواسعة، التي تسمح برمي الأعداء بالسهام والمز راق والأحجار، وصب الزيت الغالي على رؤوسهم. ولحماية هذه الفتحات من سهام العدو ورماحه، وضعت من الداخل أكوام من القطن والقش، يمكن أن تستخدم أيضاً عند محاولة العدو تحطيم الأسوار باستخدام الأكباش الخشبية.

كان لدى المدافعين احتياطي كبير من النبال، لكن حجم الحامية كان قليلاً، لا يزيد على ألف مقاتل، هذا بالإضافة إلى السكان الموالين لهم، المسلمين منهم على الأقل. وعلى الرغم من أن القدس تقع في مكان صحراوي خال من الماء، فقد كانت ذات احتياطي كاف من المياه العذبة، محفوظ في الصهاريج والبراميل، بينما كانت مياه الآبار، الموجودة في الضواحي، غير صالحة للشرب، بعد أن تم تسميمها قبل وصول الصليبيين.

في البداية حاول جنود الرب الاستيلاء على القدس بالهجوم، لكن محاولتهم باءت بالفشل، فقد كانوا يفتقرون إلى آلات القذف وإلى السلالم، اللازمة لتذليل أسوار القدس. فمن أين يأتون بذلك كله؟

لم يلبث التجار أن أسرعوا لنجدة الفرسان. ففي مرفأ يافا، الذي يعتبر ميناء للقدس، رست أربعة مراكب إنجليزية ومركبان جنويان، وعلى متنها الأخشاب والحبال والمسامير والمطارق، أي كل المواد الأولية اللازمة لبناء وسائل الحصار، هذا بالإضافة إلى الصناع المهرة، الذين ساعدوا الصليبيين في بناء آلات دك الأسوار، المعروفة بالأكباش الخشبية، والمكسوة بالحديد من أحد طرفيها، وكذلك بناء الأبراج العالية، المتعددة المناسيب، والتي تتحرك على عجلات، لدفعها والمقاتلون داخلها، لتلتصق بأسوار المدينة. ولم تمض سوى عدة أيام حتى تم تجهيز كمية كبيرة من الحبال، أما الأخشاب اللازمة لبناء وسائل الحصار، فقد عثر عليها في ضاحية السامرية القريبة. يقول

المدون اللاتيني: "لا يخطرن ببالك يا من تقرأ هذه السطور أن تلك كانت مدينة صغيرة، ولا يحتاج فتحها إلى بذل جهود حثيثة، فقد كانت المسافة بين المكان الذي كانت تصنع فيه أقسام هذه الوسائل، والمكان الذي يتم تجميعها فيه ميلاً كاملاً".

عدة مرات هاجم الصليبيون أسوار القدس، لكن الرماة العرب والسكان الموالين، ردوا الفرنجة على أعقابهم، بعد أن أمطروا أبراج الحصار الخشبية بقذائف "النار الإغريقية". وهي عبارة عن مزيج من السيليترات والنفط، استخدمه البيزنطيون منذ القديم في المعارك البحرية، لكن العرب والسلاجقة، الذين أصبحوا يعرفونها إبان الحملات الصليبية، راحوا يستخدمونها في المعارك البرية أيضاً. لم يكتف المحاصرون /بالفتح/ برمي أعدائهم بالأحجار والسهام، بل وقذفوهم- كما يقول شاهد عيان- بجذوع الأشجار وأكوام القش المشتعلة. "ثم راحوا يرمون وسائل حصارنا بقطع الخشب، بعد وضعها في القطران ودهنها بالشمع والكبريت، ولفها في أقمشة، وإضرام النار فيها. وكانت مدهونة من كل جهاتها بالكبريت، وقد دقت فيها المسامير لكي تتعلق أينما سقطت، وتتوهج"، ومن أجل درء خطر هذه القطع الخشبية عمد الصليبيون إلى لف وسائل الحصار بجلود الوحوش، التي سبق للدوقات الكونتات أن اصطادوها.

أما عن العطش فحدث ولا حرج. حيث كان عذابه لا يطاق، ونفقت بسببه حيوانات النقل. يقول المدون المجهول: "أثناء ذلك الحصار ذقنا من العطش الأمرين، لدرجة أننا خطنا جلود الثيران والحمير، ورحنا ننقل الماء فيها من مسافة ستة أميال. كان الماء الذي نشربه من هذه الأوعية في منتهى الفظاعة، ولم تكن معاناتنا اليومية من تناول خبز الشعير أقل من معاناتنا من هذا الماء المقرف. ومن البديهي أن الساراتسين نصبوا لنا الكمائن قرب مصادر المياه في الضواحي، في كل مكان كانوا يقتلون جماعتنا ويقطعون أوصال من يصادفون، ويسوقون الدواب...

ومع هذا لم يتوقف الخلاف بين الإقطاعيين، الذين راحوا يتقاسمون جلد الدب، قبل أن يقتلوه. لكن خلافاتهم خمدت ما إن وصلتهم الأخبار عن قرب وصول التعزيزات العربية إلى القدس.

في مطلع شهر تموز بدأ التحضير للهجوم الحاسم. وتحت وابل مستمر من الأحجار وطلقات "النار الإغريقية" نصبت السلالم على أسوار القدس من الشمال وكذلك من الجنوب والشرق، كما اندفعت الأبراج المتحركة نحوها.

وبهدف رفع الروح المعنوية لدى الصليبيين أقام رجال الدين الصلوات والابتهالات، ونظموا مسيرات الصلبان من حول المدينة، وأعلنوا الصوم لمدة ثلاثة أيام. كانوا يسيرون حفاة، يرتلون الأناشيد الدينية. وتوجهت المسيرات، وعلى رأسها رجال الدين، الذين يحملون الصلبان الخشبية الكبيرة ويلوحون بالمباخر، نحو جبل صهيون والزيتون. وهنا ألقى كبار رجال الدين العظات وأتبعوها بالوصايا. وكان بطرس الناسك في عداد هؤلاء الوعاظ، حيث أطلق لبلاغته العنان.

صباح الخامس عشر من تموز الشهر السابع، انطلقت الفرق الصليبية في الهجوم على القدس. وقد وجه الصليبيون ضربتهم الرئيسة في مكان لم يتوقع المصريون أن يكون مركز الهجوم. تمكن الصليبيون في إحدى النقاط من تسلق السور والاشتباك مع العرب في معركة بالأيدي، وتضييق الخناق على المدافعين. وفي نقطة أخرى، ما إن وضع البرج المتحرك، المغطى بالجلود، حتى راح الساراتسين، كما يقول بولشيرى دي شارتر "يصبون الزيت المغلي والمشاعل المتوهجة، على البرج ومن في داخله من الفرسان. وهكذا فقد كان الموت يحصد أرواح الطرفين بسرعة". استمرت المعركة عدة ساعات، ولم تلبث كفة الصليبيين أن رجحت، وغصت شوارع المدينة بهم، وامتلأت أجواؤها هتافهم. لكن "حتى بعد استيلاء الفرنسيين على المدينة ظل الساراتسين يبدون المقاومة للدوق رايموند التو لوزي، لكأن المدينة لم تسقط". ومع هذه فقد انكسرت شوكة المدافعين، ولم يلبثوا، كما يقول المؤرخ العربي ابن القلانيسي، "أن ولوا الأدبار، بينما دخل الفرنجة

المدينة، واستولوا عليها"، وهكذا سقطت القدس بعد حصار استمر خمسة أسابيع.

فاقت جرائم القتل والنهب، التي ارتكبها الصليبيون في القدس، كل الجرائم التي سبق لهم أن اقترفوها في أي مكان آخر عنفاً وفظاعة. يقول شاهد عيان: " يا له من منظر رهيب- جثث القتلى، الملقاة في كل مكان، وقد تبعثرت أشلاؤها. الأرض كلها مصبوغة بالدم. و لم يقتصر الأمر على الجثث المشوهة والرؤوس المقطوعة، بل إن الصليبيين أنفسهم كانوا مضرجين بالدم من الرأس حتى أخمص القدمين".

"راح الفرسان يجوبون شوارع المدينة المقدسة، يعملون قتلاً وتدميراً وحرقاً، يبحثون عن ضحاياهم في الأزقة والدروب، ويقتحمون البيوت، ثم يغادرونها، وهم يسوقون الرجال والنساء والأطفال، فيضربونهم بالسيوف، أو يرمون بهم من على السطوح".

"كثيرون من المسلمين التجأوا إلى المساجد أملاً في أن يجدوا فيها، أو بجوارها، ملاذاً لهم، لكن عبثاً. فقد كان جنود الصليب يعتقدون أن الكثير من الكنوز القيمة مخبأ في المسجدين الكبيرين العمري والأقصى، اللذين يعود بناؤهما إلى العهد الأموي. وكان غودفروا البولوني وتانكريد أول من اندفع إلى هنا، وفي أعقابهما جاء الفرسان الباقون، الذين اقتحموا المسجد الأقصى شاهري السيوف. وإلى هنا لجأ، مئات من الشيوخ والنساء والرضع والعجزة والأولاد. وبالقرب من أسوار المسجد وقف آلاف المسلمين من الجنسين ومختلف الأعمار. لكن الفرسان لم يرحموا أحداً. فقد أمسكوا- كما يقول المدون المجهول- الكثير من الرجال والنساء في المسجد، وقتلوا من أرادوا، وسبوا من أرادوا". و لم يتورعوا عن قتل الأطفال، بضرب رؤوسهم بالصخور. وفي حديثه عما جرى في المسجد الأقصى يعرب رايموند دي آجيل عن شكه في أن يصدق أحد روايته: "أية فظائع ارتكبت هناك؟ إذا ما رويت الحقيقة بدت أغرب من الخيال. يكفي القول إن الدم في هيكل سليمان (كما يسمي المدونون الغربيون المسجد الأقصى، الذي بني على

أطلال هيكل سليمان القديم) كان يصل إلى ركب الفرسان وإلى مقاود الخيول".

يؤكد المدونون اللاتين أن عدد من قتل في منطقة المسجد الأقصى وصل إلى عشرة آلاف شخص، أما المدونون العرب فيضاعفون هذا الرقم سبع، لا بل وعشر مرات، ويرون أن الصليبيين قتلوا آنذاك بين ٧٠- ١٠٠ ألف شخص. هذا عداك عن أولئك "الذين تبعثرت جثثهم في الطرقات والساحات، ومن قتل في المناطق الأخرى من المدينة، "والذين لم يكن عددهم بالقليل"، كما يقول المدون الفرنسي. امتدت ألسنة المذبحة، فشملت المدينة كلها. وفي وصف تلك الفظائع يقول رايموند دي آجيل " كان المنظر مدهشاً- بعض الساراتسين دقت رؤوسهم، وهذا أحد أسهل أشكال الموت، وبعضهم الآخر اضطروا، وقد أصابتهم السهام، إلى السقوط من فوق الأسوار، وآخرون تعذبوا طويلاً، وذاقوا سكرة الموت بين أحضان اللهب".

لم يكن المقاتلون وحدهم من ارتكب مثل هذه الجرائم الوحشية ضد السكان المدنيين، بل إن رجال الكنيسة أنفسهم لطخوا أيديهم بدم الأبرياء. وذلك على الرغم من أن الدين المسيحي يحرم عليهم إراقة الدم. حيث نقرأ في "الحولية الكونية" للمدون الشرقي ميخائيل السرياني، المسيحي المتدين، كيف خرج بطريرك القدس نفسه إلى الشارع والسيف في يده، يضرب به ذات اليمين وذات الشمال، وفي طريقه قتل كل من صادف من "الكفار". إلى أن وصل كنيسة الهيكل المقدس، والسيف المضرج بالدم لا يزال في يده. وبعد أن دخل الكنيسة، وغسل يديه، شرع هذا الراعي في أداء القداس الاحتفالي، الذي اعترف أثناءه أنه لم يسبق له أن قدم للرب قرباناً بمثل هذه المتعة".

استمرت أعمال القتل الوحشية ثلاثة أيام متواصلة. وبعد هذه المجزرة الكبيرة " اقتحم الصليبيون- كما يقول بول شيري الشارتري، منازل سكان المدينة، واستولوا على كل ما وجدوه فيها. وكان النظام السائد أن كل من يقتحم أحد البيوت، سواء كان غنياً، أو فقيراً، يستولي على البيت

ومحتوياته، ويصبح ملكه دون منازع". فكان كل جندي من جنود الـرب، ما إن يعجبه هذا البيت أو ذاك، حتى يسارع إلى تعليق ترس، أو أي سلاح آخر على بابه " إشارة إلى الآخرين أن عليهم متابعة طـريقهم، لأن لهـذا البيت رباً". وفي البحث عن الذهب "راح مخلصو قبر الرب" يفتشون كـل زوايا البيوت بشكل محموم. حتى أنهم راحوا يبقرون بطون الموتى، لكـي يستخرجوا القطع الذهبية منها. "ظناً منهم أن هؤلاء قد خبأوها في بطونهم. ومن أجل هذا الغرض عمد الفرسان إلى جمع الجثـث في كومـة كـبيرة، وأضرموا النار فيها، لكي يسهل عليهم استخراج القطع الذهبية من الرماد".

وفي الوقت، الذي أطلق فيه الفرسان العنان لغرائزهم الوحشية، راحوا يصلون ويتوبون عما اقترفوه من آثام. بعضهم يضرب جباهه بأرض كنيسة القبر المقدس، وآخرون ينتظمون في الهجمات، من حول الأماكن المقدسة، بينما حاول البعض الآخر الابتهال إلى الله طلباً للغفران ووزعوا على الفقراء جزءاً مما نهبوه. وبعد أداء العدد المطلوب من الركعات، كـان الفرسـان يعودون إلى النهب والاغتصاب. ولقد تمادوا في غيهم إلى درجة أنهم- كما يقول مؤرخ القرن الثاني عشر المعروف، وليم الصوري، أصبحوا في نهايـة المطاف يشعرون بالقرف من رؤية ما اقترفت أيديهم".

لكن رايموند الآجيلي، ذلك الكاثوليكي، الذي شـارك في الحملـة الصليبية، والمعروف بتدينه، يختتم روايته لوقائع الاستيلاء على القدس بكيل المديح والتمجيد للصليبيين، فيقول: "سوف يبقى هذا اليوم /يقصد ١٥ تموز /الشهر السابع/ من عام ١٠٩٩/ مجيداً إلى الأبد، فهو يوم سقوط الوثنيـة وظهور المسيحية". لكن الواقع أن يوم ١٥تموز يشكل صفحة عار سـوداء في تاريخ الكنيسة المسيحية، وفي مجمـل تـاريخ الغـرب الكـاثوليكي- الإقطاعي. و لم تكن هذه الصفحة هي الأخيرة.

الصليبيون في الشرق. حملات صليبية جديدة.

تكللت حملة السلب، التي قام بها الفرسان إلى الشرق بأخذ القدس ونهبها، وتم إنقاذ "قبر الرب" من خطر "الكفار" المزعوم، وتحقق الهدف المعلن للمشروع البابوي. لكن مسألة القبر والمقدسات كانت منذ البداية ثانوية في حسابات المحتلين الإقطاعيين من أوربا الغربية، ولهذا السبب بالذات راحوا، قبل وقت طويل من احتلال القدس، يستقرون في الأراضي المحتلة في الشرق.

ففي عام ١٠٩٨ تأسست إمارتا إزاسا وأنطاكية. وفي عامي ١٠٩٩-١١٠٠، وبعد الاستيلاء على القدس، والتغلب على قوات القائد المصري الأفضل، قرب مدينة عسقلان في ١٢ آب من عام ١٠٩٩، أسس الصليبيون ثالث مملكة لهم في الشرق- مملكة القدس.لكن حتى هذا الفوز الحاسم بدا للإقطاعيين غير كاف. فقد استغل المحتلون الغربيون تفرق كلمة العالم الإسلامي، وتمكنوا نتيجة الحروب مع مصر والسلاجقة في مطلع القرن الثاني عشر، من الاستيلاء على العديد من المدن الساحلية في سورية ولبنان وفلسطين، وذلك بمساعدة الجمهوريات التجارية في شمالي إيطاليا- بيزا، البندقية، وجنوة، التي حصلت على امتيازات تجارية كبيرة في الأراضي، التي أصبحت تحت سلطة الصليبيين. ولم تلبث أن أضيفت إلى الدول الصليبية الثلاث دويلة أخرى - كونتية طرابلس (إلى الشمال من القدس).

سادت في كل الدويلات الصليبية الجديدة الأنظمة الإقطاعية، الشبيهةَ بتلك، التي كانت قائمة في بلدان المحتلين. حيث وزعت المدن والقرى بين الأسياد ورجال الكنيسة، أما السكان المحليون فقد تحولوا إلى خدم أرقاء، وأثقل كاهلهم بالضرائب وأعمال السخرة، بغض النظر عن انتمائهم الديني، مسلمين كانوا، أم مسيحيين. ففي هذا المجال أيضاً لم تكن للعوامل الدينية أهمية جوهرية.

عادت الحملة الصليبية الأولى بالثراء على عدة آلاف من الإقطاعيين من بلدان أوربا الغربية المختلفة، والفرنسيين بخاصة، وسمحت للكنيسة

الكاثوليكية بتوسيع رقعة أملاكها ونفوذها. كما عادت بفوائد جمة على التجار، وبخاصة الإيطاليين منهم. أما فيما يتعلق بجماهير الشعب في الغرب، الذين استجابوا للدعوة الدينية البابوية، وشاركوا في الحملة بحماسة، فإن الأمر لم يقتصر على أن آمالهم في الحصول على الأرض والحرية خابت، بل وتعداه إلى أن هذه الحرب جرت عليهم الكثير من الويلات والمحن. حيث سقط عشرات الآلاف من هؤلاء "الحفاة العراة" قتلى في أراضي "الكفار" النائية. كما دفع الثمن غالياً الفلاحون الفقراء لكي يتمكن الآلاف من الفرسان ذوي الحسب والنسب، والمعدمين، وعدة مئات من الدوقات، والكونتات من كسب الضياع في الشرق. هذا عداك عما ألحقته هذه الحملة بسكان بلدان الشرق من أرزاء وكوارث، وعما تحمله من فظائع وأهوال، جراء هذه الحرب الدامية، التي حاول كبار رجال الكنيسة الكاثوليكية إعطاءها طابع الحرب المقدسة.

ككل عدوان لم تكن نتائج هذه الحملة قوية ومتينة. ثم إن الفضل في نجاحها لا يعود إلى ما اجترح المشاركون فيها من بطولات ومآثر، وإلى أنهم كانوا يشكلون قوة كبيرة، بقدر ما يعود إلى تفرق كلمة المسلمين.

ولد التدمير الوحشي والمجازر الجماعية، التي ارتكبها الصليبيون، الحقد والكراهية في نفوس السكان تجاه المحتل. ورداً على الحرب المقدسة، التي شنها الغرب المسيحي، دعا العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر إلى الجهاد- الحرب المقدسة ضد الفرنجة المسيحيين.

وإن هي إلا أربعة عقود ونيف حتى وجه السلاجقة، بعد أن وحد إمام الدين زنكي، حاكم الموصل وحلب، صفوف إماراتهم في ما بين النهرين وسورية، الضربة الأولى إلى مكاسب الصليبيين. ففي كانون الأول- ديسمبر- خسر الفرنجة، الذين لم يكف أسيادهم عن التناحر فيما بينهم، ومع بيزنطة، إمارة إزاسا (الرها)، التي استولى عليها الأتابك زنكي. ولم يلبث ابنه وخليفته نور الدين، أمير حلب، أن زحف نحو حدود إمارة أنطاكية. وهنا قرعت البابوية ناقوس الخطر. فالقدس- وهذا يعني المصالح الحيوية للإقطاعيين والكنيسة- في خطر. وسارع بابا روما إلى تنظيم حملة

صليبية ثانية، وكان على رأسها الملكان الفرنسي والألماني. لكن الإقطاعيين الأوربيين الغربيين منيوا هذه المرة بهزيمة ساحقة على يد الأعداء، الذين توحدت كلمتهم، وهكذا باءت الحملة الصليبية الثانية(١١٤٧- ١١٤٨) بالفشل الذريع، وعاد قادتها إلى ديارهم يجرون أذيال الخيبة والعار.

وإن هي إلا أربعون عاماً أخرى حتى حلت بالكنيسة الكاثوليكية والأسياد الغربيين كارثة أخرى- ففي عام ١١٨٧ تمكن السلطان المصري المشهور، صلاح الدين، بعد أن بسط سلطانه على سورية، من انتزاع القدس والعديد من مناطق الشرق من أيدي الصليبيين. فدقت نواقيس الخطر في روما من جديد، وراح الباباوات يدعون الغرب لجرد حملة صليبية ثالثة.

وفي عام ١١٨٩ انطلق الفرسان من فرنسا وألمانيا وإنجلترا "لإنقاذ" قبر الرب. وكان على رأس هذه القوات الملك الفرنسي فيليب الثاني أوغسط، والإمبراطور الجرماني فريدريك الأول بارباروس ("أشقر اللحية") والملك الإنجليزي ريتشارد الأول، المعروف بقلب الأسد، نظراً لطبعه القاسي. ولقد تزعم هؤلاء الملوك الحملة الصليبية ليس لأن قناعاتهم الدينية لم تسمح لهم بالقبول بضياع المدينة المقدسة، بل كانت المكاسب المالية والسياسية المحرك الرئيسي للإمبراطور الجرماني والملكين الإنجليزي والفرنسي.

فمن أجل ترسيخ سلطتهم في ممالكهم كان هؤلاء الثلاثة بحاجة إلى مبالغ مالية طائلة. ومع نهاية القرن الثاني عشر شهد البحر المتوسط تجارة قوية بين الغرب والشرق. فكان التجار الإيطاليون والفرنسيون الجنوبيون والإنجليز والإسبان وغيرهم، يرسلون قوافل المراكب بانتظام، إلى سورية وفلسطين ومصر وبيزنطة. بعضها ينقل الحبوب وآخر الأخشاب وبعض ثالث الجلود والقماش والخيول، كل هذه السلع كانت تباع وتشرى على قدم وساق في مدن الصليبيين- أنطاكية، يافا، عكا وصور. وهنا كانت المراكب الأوربية تشحن بالبضائع الشرقية، التي يتم شراؤها من تجار بلدان المشرق، بما فيها النسيج الحريري والقطني، ودنان الخمرة، وأكياس سكر

القصب والصناديق الهندية المطعمة بالجواهر والأحجار الكريمة، وسلال الفاكهة، كل ذلك كان يجد سوقاً رائجة في البلدان الأوروبية.

من الطبيعي أن السلطة الملكية في تلك البلدان الأوربية، التي تتاجر مدنها مع الشرق، كانت تحصل على فوائد جمة منها، على شكل رسوم لصالح الخزينة، تجبى من الصفقات التجارية ومن هنا رغبة الممالك الإقطاعية، التي راحت تنمو في أوربا آنذاك، في الحفاظ على سيطرة الصليبيين في سورية وفلسطين، لا بل وتوسيعها عن طريق الاستيلاء على الأراضي الجديدة من المسلمين.

أثارت انتصارات صلاح الدين قلق الإمبراطور الجرماني فريد ريك غوغينشتاوفن والملكين ريتشارد بلانتاغينت الإنكليزي وفيليب الثاني الفرنسي. كان كل من هؤلاء الثلاثة يود بسط سيطرته على أراضي الليفانت ("مشرق الشمس")، التي تشكل همزة وصل تجارية مع بلدان الغرب، بهدف التحكم بهذه التجارة والاستفادة منها في رفد خزينة الدولة بالأموال اللازمة، هذا عداك عن أن الاستيلاء على أراضٍ جديدة في الشرق من شأنه أن يزيد من هيبة ملوك الصليبيين في أوربا الغربية، ومن هنا ترؤس كبار الملوك الغربيين لجيوش الفرسان، التي انضوت تحت لواء الحملة الصليبية الثالثة.

بيد أن الحملة الثالثة منيت بدورها بالفشل الذريع. فقد تفرق شمل الجيش الألماني بعد أن فقد زعيمه فريدريك بارباروس، الذي غرق أثناء عبور نهر جبلي جارف في قيليقيا- وذلك في ١٠ حزيران من عام ١١٩٠. وحسب رواية المدون الألماني، فإن موته شكل صدمة للجميع إلى درجة أن "المحنة جعلت البعض ينتحر، بينما تخلى البعض الآخر عن مسيحيته، واعتنق هو وأتباعه الوثنية". وكما يتضح من شهادة هذا المدون، فإن المشاعر الدينية لدى الصليبيين الألمان لم تكن ثابتة، وهذا ما كان يتجلى باستمرار في اللحظات الحاسمة من الحملات الصليبية في الشرق، على الرغم من أن المشاركين في هذه الحملات كانوا يتبجحون ويتفاخرون بجرأتهم وتفانيهم في خدمة الصليب. كما يقول أحدهم:

القيظ في الصحراء كما نار جهنم
لكنني جهنم لا أهاب
ويا ويل الساراتسين
- من سيفي البتار.

وهكذا فقد انتهت الحملة الصليبية الألمانية في آسيا الصغرى، أما الفرنسيون والانكليز فقد أوقفتهم قلعة عكا، صحيح أنهم تمكنوا من الاستيلاء عليها بعد شهور عديدة ، لكن القدس ظلت في أيدي "الكفار". وفي عام ١١٩٢ اضطر الصليبيون إلى الاعتراف بضياع المدينة المقدسة، بعد أن أبرموا الصلح مع صلاح الدين.

مع نهاية القرن الثاني عشر فقدت جماهير الشعب في الغرب ثقتها وإيمانها بالحملات الصليبية، وان كانت الدعوات الصليبية ظلت تنتعش بين الفينة والأخرى. وراح الفلاحون يزدادون إدراكا أن عليهم الوصول إلى الأرض والحرية هنا في ديارهم، وليس هناك، في البلدان البعيدة، وعلى حساب سكان هذه البلدان، ومن هنا راحوا يفقدون- بالتدريج — اهتمامهم بهذه، الحملات.

ومنذ ذلك الوقت تحولت الحروب المقدسة في الشرق إلى حملات إقطاعية توسعية سافرة. وأصبحت شعاراتها الدينية مجرد يافطة شكلية يستخدمها الإقطاعيون والباباوات للتمويه، وجني الثروات، فبدءا من ثمانينات القرن الثاني عشر فرضت ضرائب استثنائية من أجل تمويل الحروب المقدسة، وقد عرفت هذه الرسوم ب "عِشر صلاح الدين" وكانت خزينة باباوات روما تحصل على القسم الأكبر من هذه الضرائب.

مع مرور الزمن راح يتكشف الجوهر الحقيقي، أي غير الديني أبداً، للحملات الصليبية، وبالتالي راحت تفتضح أهدافها الحقيقية وأطماع الداعين إليها- الكنيسة الكاثوليكية.

الفصل الرابع
في سبيل المسيحية

"وتركوا للريح أشرعتهم"

في الصباح الباكر من أحد أيام شهر أيار[×] ١٢٠٣ غـــادرت شـــواطئ جزيرة كورفو اليونانية عبارة ضخمة، تضم زهاء ٤٠٠ مركب من مختلـــف الأشكال والأحجام، من مراكب الشحن الضخمة إلى القوارب الـــصغيرة، ذات المجذافين.

كان الطقس دافئاً مشمساً، تهب على البحر ريح خفيفـــة، فترفـــرف الأشرعة، وتصطفق على وقعها. وعلى متن المراكب يتردد قرع النـــواقيس، وعلى أنغامه يرفع الرجال مجاذيفهم ويتزلوها، بشكل متزامن، وبين الفينـــة والأخرى تتردد الصافرات وإيعازات الربابنة إلى البحارة، طـــوال القامـــة، بارزي العضلات، فيشد هؤلاء عوارض الـــصواري، أو يحلونهـــا،ويطوون الأشرعة، أو يتركونها للريح تداعبها.

ابتعدت المراكب عن الجزيرة، وعلى صواريها تخفق الرايات البيـــضاء والزرقاء والوردية... المزدانة بشارات الصليب السوداء والحمراء والخضراء، والألوان الأخرى. وعلى جوانب المراكب علقت على مسافة معينة التروس، المزخرفة بشعارات الأسر الإقطاعية النبيلة من بلدان أوربا الغربية المختلفة.

إن بوسع البحار الخبير أن يدرك من النظرة الأولى أن المراكب، الـــتي غادرت كورفو تابعة للبندقية. وحدهم البندقيون يملكون مثل هذه المراكب العملاقة: الثقيلة، الواسعة، ذات الأشرعة الكـــبيرة والـــصواري المتعـــددة، وحدهم البندقيون يملكون هذا النوع من مراكب الشحن الضخمة، الخرقاء، ذات الجوانب المدورة، ووحدهم البندقيون لديهم هذه المراكـــب القتاليـــة

[×] ٢٤ أيار ١٢٠٣ / المترجم

الطويلة، الضيقة، السريعة. ذات الأنوف الحادة، المعقوفة، والقدرة العالية على المناورة. ثم من كان بوسعه، عدا البندقية، الدولة البحرية القوية في أوروبا الغربية آنذاك، أن يرسل مثل هذا الأسطول الضخم، الذي كان يضم حوالي ٧٠ قادساً (سفينة كبيرة) هذا عداك عن الكثير من المراكب الأخرى- الحربية والنقل والشحن؟ وبالفعل فإن الأسطول، الذي خرج إلى عرض البحر في ذلك اليوم كان تابعاً لجمهورية القديس مارك. أما الصلبان على الرايات، المثبتة على الصواري، فتدل على أن المراكب تقل القوات، الذاهبة لمحاربة "الكفار"، إنها دفعة جديدة من الصليبيين، المزودين بالمنجنيقات والأكباش، والذين ينتسبون إلى دول مختلفة (فرنسا، إيطاليا وألمانيا).

لكن وجهة الحملة الصليبية الجديدة ليست سورية ولا فلسطين. فها هو ذا الأسطول يدخل بحر إيجه، ويتجه نحو الشمال الشرقي، مارا بجزيرتي إيفبريو وأندروس، ثم يمم وجهه شطر القسطنطينية- العاصمة البيزنطية.

على متن إحدى السفن، المدهونة باللون الأرجواني، وفي قمرة مستقلة، رحبة جداً، تقع في كوثل السفينة، كان ثمة شاب في حوالي العشرين، يرتدي لباس الفرسان، يجلس في كرسي وثير، ذي مسند، وفي يده قدح خمرة. لم يكن هذا الشاب يعرف لا الفرنسية ولا الألمانية، وبالكاد يتحدث اللغة الإيطالية. وقد أحاطه الصليبيون، ظاهرياً على الأقل، بكل أنواع العناية والاهتمام. ففي ساعات القيظ كان العبد المكلف بالعناية به، يلوح بمهواة كبيرة من رئيس الطاووس الناعم فوقه. وعندما يحين وقت تناول الطعام، يجلب له العبد إياه الأصناف الفاخرة، التي لا عهد للفرسان الأوربيين بها.

لم يكن هذا الشاب سوى الكسيوس، ولي عهد بيزنطة، ووريث الإمبراطور إسحاق الثاني. لكن ماذا يفعل ولي العهد البيزنطي على المراكب الصليبية، ولماذا يحيطونه بهذه العناية والرعاية، ويسهرون عليه؟ ولماذا تيمم العمارة البندقية، التي تقل الفرسان وعدتهم وسلاحهم وخيولهم، وجهها، لا

شطر القدس، الواقعة منذ نيف وخمسة عشر عاماً تحت حكم السلطان المصري، وإنما شطر القسطنطينية، المدينة المسيحية؟

تقتضي الإجابة على هذه الأسئلة عرض الأحداث، التي جرت في الغرب في نهاية الثاني عشر.

البابا إينوقنتيوس الثالث ومشاريعه الشرقية

في الثامن من كانون الثاني من عام ١١٩٨ اختار الكرادلة، عقب اجتماعهم في دير القديس أندريوس في روما، لوثاردي سينيه حبراً أعظم، وأصبح يعرف باسم إينوقنتيوس الثالث.

فكيف تم اختيار هذا الرجل، الذي لم يتجاوز السابعة والثلاثين، لشغل مثل هذا المنصب الهام، الذي لا يشغله عادة إلا الكهول؟

لا شك أن أسباباً مميزة تكمن وراء هذا الاختيار.

حظي إينوقنتيوس الثالث، المنحدر من أسرة أرستقراطية، بهذا المنصب الكبير بفضل مواهبه البارزة كسياسي ودبلوماسي. كان يتمتع، إلى جانب عقله الراجح، بطاقة لا تنضب، وإرادة صلبة، وإصرار لا يلين، وقدرة على اكتشاف نقاط ضعف خصومه، وتوظيف نواياهم لخدمة مشاريعه. وقراءة الأحداث الجارية، واستقراء المستقبل، كما كان في الوقت نفسه بالغ الحذر وفي منتهى النفاق والدهاء. لقد بز جميع البابوات مهارة في إخفاء الأهداف الحقيقية للسياسة البابوية تحت ستار تقواه الشخصية، وفي إعطاء المبررات اللاهوتية والقانونية المقنعة لكل خطوة دبلوماسية يخطوها.

لم يكن اجتماع كل هذه الصفات في البابا الجديد من باب المصادفة، ففي سنوات الشباب تلقى تعليمه في جامعتي باريس وبولونيا، الأفضل بين الجامعات آنذاك، وكما يقول مدون سيرة حياته، فإنه "بز جميع أقرانه في معرفة الفلسفة واللاهوت والحقوق" أضف إلى هذا كله إتقانه فن الخطابة.

تابع إينوقنتيوس الثالث سياسة غريغوري السابع، وظل على مدى ١٨ عاماً يكرس كل وقته وجهده من أجل هدف أساسي واحد: بسط السلطة البابوية التامة على كل الدول المسيحية، وتوسيع عظمة الكرسي الرسولي. حتى أنه لم يتورع ذات مرة عن الإعلان أن الله هو الذي طوبه، وجعله على رأس البشر.

منذ البداية شغلت الحملة الصليبية إلى الشرق المرتبة الأولى في نشاط البابا السياسي. حيث راح يتطلع، من خلال استنهاض همم الفرسان لشن الحرب المقدسة ضد المسلمين، إلى الاقتراب من الهدف المنشود- بسط السلطة البابوية على العالم بأسره.

*أين ربكم؟

بعد أقل من أربعة أشهر على انتخابه، أرسل إينوقنتيوس الثالث إلى كبار الأساقفة في بلدان أوربا الغربية كلها رسالة، ضمنها مشروعه للحملة الصليبية. وفي الوقت نفسه وجه البابا رسائل مماثلة إلى الملوك والكونتات والبارونات، يهيب بهم أن يحشدوا القوات، استعداداً للحرب المقدسة المقبلة. ومن أجل التأثير على عقول الكاثوليك وقلوبهم اختلق الحبر الأعظم الكثير من الحجج والذرائع. فبعبارات بالغة الحزن والأسى راح يصور معاناة الكنيسة الكاثوليكية ومسيحيي الشرق بسبب سقوط القدس في أيدي المسلمين: "تبكي الكنيسة وتنوح، بصوت يجتاح الأرض من أقصاها إلى أقصاها: نتيجة آثام الشعوب المسيحية تمكن الوثنيون من الاستيلاء على أرض المسيح، وغمروا بالدم سهول القدس، ولم يبق في الأرض المقدسة أحد لكي يدفن جثث القتلى"- كتب البابا في رسالته إلى "المؤمنين بالقديس بطرس".

لم يتورع إينوقنتيوس الثالث، على غرار البابوات السابقين، عن تزوير الوقائع، وتشويه الحقائق في وصف معاناة المسيحيين في فلسطين. فمن المعروف أن صلاح الدين لدى استيلائه على القدس عام ١١٨٧، لم يضطهد المسيحيين، لا بل إنه سمح للفرنجة بمغادرة المدينة بعد دفع فدية

كبيرة. وبموجب شروط الصلح، المبرم، ريتشارد قلب الأسد عـــام ١١٩٢، أصبح بوسع الحجاج الغربيين الحج إلى الأماكن المقدسة في القدس. لكـــن إينوقنتيوس الثالث لم يتوان عن قلب الحقائق وتشويهها وطمسها وتزويرها، مادام ذلك يخدم مشروعه، فلم يكن من عادته أن يتوقف عن تزييف الواقع لخدمة أغراضه.

ومن أجل زيادة كره المسيحيين للمسلمين عمـــد البابـــا إلى تـــدبيج العبارات، المنسوبة إلى المسلمين، والمفعمة بالهزء مـــن الـــدين المـــسيحي، والسخرية من أركانه: "أين ربكم، مادام عاجزاً عن حماية نفسه وحمايتكم منا؟ لقد دنسنا قدس أقداسكم، وتطاولنا على مقدساتكم، واستولينا علـــى كنيسة المهد. ولقد حطمنا رماح الفرنسيين، ودحرنـــا مكائـــد الإنجليـــز، وكسرنا شوكة الألمان، وانتصرنا على الإسبان المتعجرفين. فـــأين ربكـــم؟ دعوه يبعث ويساعدكم ... والآن لم يبق أمامنا إلا أن نقتل بالسيف مـــن تركتم هنا، وأن نغزوكم في عقر داركم، فلا تقـــوم لكـــم بعـــد ذلـــك قائمة...".

بمثل هذه الاختلاقات حاول البابا إثارة مشاعر الكراهية ضد المسلمين. ثم قرن ذلك كله بتوجيه اللوم للفرسان الغربيين على الحروب والنزاعـــات الداخلية، وعلى انصرافهم إلى اللهو وجني الثروات، وغـــير ذلـــك مـــن الموبقات. داعياً إياهم إلى الاستعداد للحملة بأسرع وقت ممكـــن، بحيـــث تكون القوات جاهزة قبل آذار من عام ١١٩٩. وطلب البابا من كل سنيور أن يشكل فرقته بما يتناسب وموارده، مشيراً إلى أن على كل مقاتل أن يخدم القضية المقدسة عامين كاملين، ولقاء ذلك ســـوف تغفـــر كـــل خطايـــا الصليبيين، ويؤجل تسديد ديونهم، وتفوز أرواحهم بالخلاص الأبدي.

لم يكتف البابا بتوجيه الرسائل، الداعية إلى الحرب المقدسة، بل كلف المطارنة والأساقفة والقساوسة والرهبان في كل بلدان أوروبا الغربية بنـــشر الدعوة البابوية. فراح هؤلاء، وكما على عهد بطرس الناســـك، يلقـــون الخطب والعظات الحماسية، ينشرون دعوة البابا ويـــشرحونها، ويهيبـــون بالمسيحيين أن ينضووا تحت لواء الحرب المقدسة من أجل القدس.

اتخذ البابا التدابير العملية الدبلوماسية والمالية، الكفيلة بتسهيل التحضير للحملة، وضمان الزحف نحو الشرق في الموعد المضروب. فوجه الرسائل إلى أولئك الملوك والأمراء الغربيين، الذين يتحاربون مع بعضهم لهذا السبب، أو ذاك، داعياً إياهم إلى وضع حد للحروب الأخوية، والمشاركة في الحرب من أجل إنقاذ الأرض المقدسة، ومهدداً العصاة بالحرمان الكنسي. فقد كتب البابا إلى فيليب الثاني أوغسط وريتشارد قلب الأسد. كما تدخل في الحرب بين المجموعتين الإقطاعيتين ولف وشتاوفين في ألمانيا، التي اندلعت في ربيع ١١٩٨ في أعقاب اختيار اثنين من كبار الاقطاعيين ملكين، كما حاول وضع حد للعداء بين بيزا وجنوا المتنافستين. في كل مكان أخذ البابا على عاتقه القيام بدور الآمر الناهي.

هذا من الناحية الدبلوماسية، أما من الناحية المالية فقد سعى البابا جاهداً من أجل تأمين المبالغ اللازمة لتمويل الحملة الصليبية: استئجار المراكب، تجديد السلاح، تجهيز آلات الحصار، شراء المؤن، تجهيز الخيول. ومن أجل جمع المال فرض البابا ضريبة على مداخيل رجال الدين قدرها ٢,٥% وقد استقبل المطارنة والأساقفة هذا الإجراء بموجة من الاستياء، وغالباً ما كانوا يماطلون في تسديدها، لكنهم اضطروا للانصياع إلى أوامر البابا سيما أنه هو نفسه رصد عشر مداخيل البابوية لتمويل الحملة الصليبية.

إذن كان الكرسي الرسولي جاداً في تنفيذ مشروعه، وكان البابا يعلق على مشروع الحملة الصليبية الكثير من الآمال.

"لقد أعذر من أنذر"

في الوقت الذي كان فيه الإعداد للحملة الصليبية جارياً على قدم وساق، راح البابا يحوك شبكته العنكبوتية الدبلوماسية في القسطنطينية البعيدة.

ففي عامي ١١٩٨ و١١٩٩ وجه البابا الرسائل المسهبة إلى الامبراطور الكسيوس الثالث، الذي قام في عام ١١٩٥، على رأس مجموعة من رجال البلاط المتآمرين، بانقلاب على شقيقه الامبراطور إسحاق الثاني، وأزاحه عن

العرش. وكما هي العادة في بيزنطة، فقد أمر المغتصب بسمل عيني أخيه، وزجه مع ابنه وولي عهده في السجن، لكنه لم يلبث أن أطلق سراح الأخير.

كان البابا يعرف ذلك جيداً، ويدرك أن الكسيوس الثالث في وضع لا يحسد عليه، ولذا فقد وضع أمامه طلبين أساسيين: مشاركة بيزنطة في الحملة الصليبية، سيما وأن لديها المال اللازم لذلك، والجيش المدرب، هذا أولاً، وثانياً- لما كان الوثنيون يشكلون خطراً يتهدد العالم المسيحي برمته، فقد آن الأوان لانضمام الكنيسة اليونانية إلى أمها- كنيسة روما، أي الخضوع للبابا. وأضاف البابا أن الحملة الصليبية ستوجه ضد المسلمين، وأن القدس لا تزال الهدف المنشود، ولكن من يدري كيف ستتطور الأحداث، ولذا، ومن أجل تجنب الأخطار، التي يمكن أن تتهدد بيزنطة من الغرب، يجدر بالامبراطور البيزنطي أن يفكر ملياً في نوعية الدور، الذي ستلعبه بلاده في الأحداث القادمة، وأن يساعد الصليبيين بالمال والسلاح، ويلحق كنيسته بالكرسي الرسولي، ((وإلا فإن الوقت قد يفوت، فتندم ولات ساعة مندم... ولسوف نجد الوسائل الكفيلة بإعادتك أنت وبطريركك وكنيستك إلى جادة الصواب.

أو ليس من الأفضل أن تعمل بما نسدي لك من نصائح، فتنعم بالطمأنينة، وإلا كانت العاقبة وخيمة، ولقد أعذر من أنذر)).

من الواضح أن البابا، وهو يعد العدة للحملة الصليبية، كان يبيت الشر لبيزنطة، وينوي استغلال هذه الحملة لبسط نفوذ الكنيسة الكاثوليكية عليها، ومن هنا ابتزازه.للامبراطور المغتصب. وبعبارة أخرى فقد استغلت الدبلوماسية البابوية الإعلان عن جرد الحملة الصليبية من أجل إرغام الكسيوس الثالث، بالتهديد المبطن، على الرضوخ لمطالب البابا.

بيد أن إينوقنتيوس سياسة الثالث، القائمة على الترغيب والترهيب، لم تؤثر على القسطنطينية، وراح الكسيوس الثالث يتهرب من الرد على مطالب البابا، ولم يلبث أن اتضح بجلاء أن البابا لن يبلغ غايته بالطرق الدبلوماسية، ولا بالأسلوب الترغيبي، ولا حتى بلغة التهديد والوعيد.

مباراة في قلعة إيكرا

لم تلق دعوة البابا إلى الحرب المقدسة الحماسة الغابرة في بلاط ملـــوك أوروبا الغربية. صحيح أن الملكين الفرنسي والإنكليزي نزلا عند رغبة البابا، وأبرما الصلح فيما بينهما، لكنهما، وقد لُدغا في الحملة الصليبية الثالثة، لم يكونا راغبين في المشاركة في حملة جديدة. حيث كان فيليب الثاني أوغسط يرى أن المشاركة في حملة صليبية واحدة تكفي المرء طيلـــة حياتـــه، أمـــا ريتشارد قلب الأسد فقد راح يسخر من أولئك، الذين جاؤوا يدعونـــه إلى المشاركة في الحملة. بينما لم يتوقف الملكان الألمانيان فيليـــب شوابـــسكي وأوتين ويلف،عن القتال فيما بينهما، والذي راح البابا نفسه يصب الزيت في ناره. وفي وصف سياسة البابا المرائية هذه، كتب الشاعر الألماني والتـــر فون دير فيغيلفيد يقول:

كانت روما، تمجيداً للرب،
لا تعرف إلا الكذب والدجل.
فتفاقم الخلاف بين الملكين.
وأصبح في منتهى الشراسة.

لكن الدعوة إلى الحملة الصليبية الجديدة لقيت الاهتمـــام الكـــبير في القلاع الإقطاعية، خاصة في فرنسا. حيث كان كثير من الأسياد والفرسان يتوقون إلى جني الثروة على حساب الآخرين، وحيث درجـــت العـــادة في الأُسَر الإقطاعية على أن يشارك أحد أبنائها في واحدة من الحملات الصليبية من كل بد، باعتبار ذلك واجباً، واختباراً للبسالة القتالية والمشاعر الدينية. لكن أصحاب القلاع، على الرغم من اهتمامهم بالدعوة البابوية، لم يلبوها فوراً. فها قد انصرم آذار ١١٩٩، الموعد، الذي حدده البابا لبدء الحملـــة الصليبية، دون أن يحرك أي منهم ساكناً، ومع ذلك فقد راح الفرسان وعدد من البارونات المتنفذين يميلون إلى تلبية دعوة البابا، وهذا ما بدا جليـــاً في نهاية خريف ١١٩٩.

ففي أحد أيام شهر تشرين الثاني /الشهر الحادي عشر/، وكان يوماً دافئاً، وهذا شيء نادر في تلك الفترة من العام، راح الناس يتوافدون زرافات ووحدانا إلى قلعة إيكري، في كونتية شامبانيا، على نهر إن، قرب ريتيل، للتفرج على المباراة القتالية بين الفرسان. بعضهم جاء للتمتع برؤية المباراة، والبعض الآخر للمشاركة فيها.

على الرغم من أن مباريات الفرسان كانت منتشرة على نطاق واسع، فإنها كانت تجذب جمهوراً كبيراً، وهكذا فقد تقاطر كثيرون إلى إيكري، بمن فيهم كبار الأعيان الفرنسيين. من الرجال والنساء. وقد راح الجميع يراقب الفرسان المتبارين بكثير من المتعة والحماسة.

استمرت المباراة عدة ساعات، وقبيل اختتامها حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد اعتلى حلبة المباراة، بدلاً من الفارسين المنتظرين، رجل طويل نحيف ذو رداء أسود يلامس قدميه.

إنه الكاهن فولك من قرية نيه في ضواحي باريس، والذي يطلق عليه المؤرخون أحياناً اسم بطرس الناسك. وبالفعل فقد كان تعصب فولك شبيهاً بتعصب بطرس الناسك، داعية الحملة الصليبية الأولى. لكنه لم يصبح بمثل هذا التدين إلا في الآونة الأخيرة. وقبل ذلك كان في غاية الضلال، ويبدو أنه الآن، قد تاب، وأراد التفكير عن آثامه، "وقد وصلت شهرة هذا الإنسان المقدس- كما يقول المدون- مسامع البابا، فكلفه رسمياً بالدعوة إلى الحرب في القدس. واعتبره مبعوث الكرسي البابوي في فرنسا، وطلب من الجميع أن يطيعوه في كل شيء.

انكب فولك على تنفيذ المهمة، التي كلفه بها البابا، بكل حماسة، فراح يطوف القرى والقلاع، يلقي المواعظ الملتهبة عن الحملة الصليبية. وقد نسج الفلاحون الجهلاء حوله الخرافات، واعتبروه نبياً- صانع المعجزات، وشافياً من كل داء، يعيد نعمة البصر للعميان، ونعمة السمع للطرشان، والنطق للخرسان، والقدرة على الحركة للمشلولين. وفي وصفه كتب الفارس روبيردي كلاري، مؤلف يوميات "عن أولئك الذين استولوا على القسطنطينية"، يقول: "من خلاله صنع الرب الكثير من المعجزات العظيمة".

وعلى الرغم من ذلك كله لم تجد دعوات فولك أذنا صاغية بين الفقراء، فقد ولت أيام بطرس الناسك.

ومما أثار الريبة لدى بسطاء الناس في سلوك الواعظ المتحمس، أنه لم يكتف باجتراح المعجزات، وإلقاء العظات، بل وراح يجمع من الحضور الأموال اللازمة للحملة الصليبية- على حد زعمه. لكن كثيرين- كما يقول المدون المعاصر- راحوا يتساءلون عما إذا كانت هذه المبالغ ستذهب لتحرير القدس فعلاً.

وإزاء فشل دعوته بين عامة الشعب، أقبل فولك على نشرها في صفوف الفرسان، باعتبارهم العنصر الأهم في الحملة المزمعة، ولهذا السبب جاء فولك إلى إيكري.

لم يهتم الكاهن بالضجة، التي أثارها ظهوره المفاجئ، بدلاً من الفرسان، وألقى عظة حماسية ملتهبة على المشاهدين، ذكّر فيها الفرسان برسالة الحبر الأعظم، وبالوضع المخزي، الذي تعاني منه القدس، على حد زعمه، ولام الأسياد وأتباعهم: فهم هنا يتسلون بتنظيم المباريات، ويمضون الوقت في اللهو واللعب، في الوقت الذي تستنجد بهم الأرض المقدسة أن ينقذوها من تحت نير "الكفار".

تركت عظة فولك تأثيراً قوياً على الحاضرين، وسارع كثيرون من كبار الأعيان وصغار الفرسان إلى وضع الصلبان القماشية، التي وزعها فولك عليهم، على أرديتهم، وأقسموا على المشاركة في الحملة الصليبية. يقول روبيردي كلاري "إن هؤلاء الفرسان من الخيالة والمشاة كانوا من الكثرة بحيث يصعب إحصاء عددهم، الذي كان بالآلاف". ولقد حملوا الصليب، ليس تأثراً على أخوهم المسيحيين في فلسطين، بل لأن مشهد المباراة ألهب مشاعر الفرسان القتالية، وأيقظ الحنين إلى الحملات الصليبية.

أما بالنسبة للأعيان فقد كان التأثير، الذي أحدثته لديهم هذه الموعظة، ذا طابع سياسي، أكثر منه ديني. فالحرب بين فيليب الثاني أوغست وريتشارد قلب الأسد وضعت أوزارها منذ عهد قريب نسبياً، وفي هذه الحرب كان العديد من الأسياد الفرنسيين حلفاء للملك الإنكليزي، ولم

يكونوا راغبين في تعزيز السلطة الملكية في بلادهم. والآن، وبعد موت ريتشارد الأول، أصبح هؤلاء الأعيان يخشون انتقام ملكهم فيليب الثاني. وقد وجدوا في المشاركة في الحملة الصليبية الجديدة أفضل طريقة لتجنب هذا الانتقام، ولإنقاذ أملاكهم من تطاول الملك. فأملاك الصليبيين تتمتع بالحصانة، وتقع تحت حماية الكنيسة، وكان البابا قد أكد على هذه الناحية في رسالته، وأشار إلى أن هذا العرف لا يزال قائماً، هذا عداك عن الغنائم، التي يمكن جنيها، والأراضي الجديدة التي يمكن الاستيلاء عليها. كل هذا دفع كبار الاقطاعيين إلى تلبية نداء البابا، الذي نقله الكاهن فولك، وحملوا الصليب.

وهكذا فمع نهاية عام ١١٩٩ بدأ المشروع البابوي يتحرك نحو الأمام رويداً رويداً، ولم تأت نهاية العام التالي إلا ووصل قوام القوات الإقطاعية، الجاهزة للحملة، إلى ما بين ثمانية، إلى عشرة آلاف مقاتل، وعلى رأسهم مئات البارونات.

"وكلفوا السفراء باستئجار المراكب".

عقب المباراة الآنفة الذكر بفترة قصيرة، اجتمع الأسياد الفرنسيون البارزون، الراغبون في المشاركة في الحملة الصليبية المزمعة، في مدينة كومبيان، الواقعة إلى الشمال من باريس، على نهر واز. وكان في عداد هؤلاء الكونت تيبو الشمباني، ذو الإثنين والعشرين عاماً، (سبق لأبيه أن شارك في الحملة الصليبية الثانية، ولأخيه أن شارك في الحملة الثالثة) والمارشال جوفروا ويلاردوين، وهو في حوالي الخمسين من العمر، ذكي ومتعلم، (فيما بعد أملى على أحد النساخ أحداث الحملة الصليبية في كتابه "الاستيلاء على القسطنطينية". وبدوين، كونت فلاندريا وإينو، ذو الثمانية والعشرين عاماً، المتزوج من شقيقه تيبو الشمباني، وكان واحداً من كبار الأعيان، ومن ألد أعداء التاج الفرنسي، يرافقه أخوه هنري، هذا بالاضافة إلى المقاتل الشاب الكونت لويس بلوا، (سبق لأسلافه أن شاركوا في الحملة الأولى) والكونت سيمون دي مونغور، المعروف بقسوته وأطماعه، والذي

فقد أملاكه في إنجلترا منذ عهد قريب، و لم يبق لديه سوى ضيعة صغيرة في فرنسا. كل هؤلاء، وغيرهم من كبار الأعيان، توافدوا على كومبيان، لكي يقرروا عدداً من المسائل الهامة: لمن ستكون قيادة الحملة، موعـد بـدئها، مكان انطلاقها، وكيف سيتم الزحف لخوض الحرب المقدسة.

في البداية اختار الكونتات والبارونات تيبو الشمباني قائـداً للقـوات الصليبية، بعد أن وجدوه أفضل من يتبوأ هذا المنصب، نظراً لتحدره مـن أسرة نذر الكثيرون من أفرادها أنفسهم للدفاع عن الأرض المقدسة. وهكذا اعترفوا به بالاجماع قائداً أعلى. بعد ذلك تدارس البارونات مسألة الوصول إلى أرض السلطان، خصمهم اللدود، وتوجيه الضربة إلى المسلمين، واتفقوا على ضرورة استئجار المراكب لنقل القوات والخيول والعتاد، لكن من أين لهم بمثل هذا العدد الكبير مـن المراكـب، اللازمـة لنقـل آلاف وآلاف الصليبيين؟

أجمع البارونات الرأي على أن البندقية هي أفضل من يمكن أن يزودهم بالمراكب اللازمة، فمنذ مئات السنين والمراكب البندقيـة تجـوب ميـاه المتوسط، تقل آلاف الحجاج إلى الأرض المقدسة، والسلع من وإلى الـدول المختلفة، بما فيها الإسلامية، وبالطبع فإن بحارة جمهورية القـديس مـارك يعرفون جيداً الطريق إلى مصر وسورية. اتفق الإقطـاعيون الفرنـسيون، المجتمعون في كومبيان، على الطلب من حكومة البندقية استئجار المراكب.

اختار البارونات سفارة من ستة فرسان للتفاوض مع البندقيين حـول هذا الموضوع، بمن فيهم بيلاردوين، المعروف بأسلوبه العملـي وحـذره وقدرته على الاقناع، والبارون كونون بيتيون، الملقب بالفارس- الـشاعر، الذي سبق له أن تميز في الشرق، وكتب قصيدتين عن الحملة الصليبية الثالثة. ولكي يثق البندقيون بهؤلاء الفرسان، زودهم كبار الأسياد (تيبو الـشمباني وبودوين الفلاندري ولويس بلوا) بالوثائق اللازمة، الممهـورة بأختـامهم، والتي تؤكد تمتع حامليها بكافة الحقوق والصلاحيات اللازمة للاتفاق مـع سلطات جمهورية البندقية. حول استئجار المراكب.

وصلت السفارة الفرنسية إلى البندقية في شباط ١٢٠١، وكانت البندقية مدينة مشهورة بغناها الفاحش، وتجارها الذين لا هم لهم إلا جني الثروات، وربابنة سفنها الماهرين وبحارتها المحنكين، وبأسطولها الأكبر والأقوى في الغرب.

وفي الوقت نفسه أرسل البارونات سفارتين أخريين إلى المدينتين التجاريتين الكبيرتين في الشمال الإيطالي- بيزا وجنوا. غير أن الرد بالرفض سرعان ما ورد من بيزا وجنوا، بحجة أنهما لا تملكان العدد الكافي من المراكب، وغير قادرتين على تأمين ذلك، وأصبحت كل الآمال معلقة على حكومة البندقية.

"سنعقد الصفقة معكم بكل طيبة خاطر".

حل السفراء في نزل الأجانب، وفي اليوم التالي توجهوا إلى مركز المدينة، حيث يقوم قصر شاهق هو مقر الدوغ, والدوغ هو لقب حاكم الجمهورية، الذي يترأس مجلس شيوخها، أو المجلس الكبير. وفي يد الدوغ كانت تلتقي كل خيوط السياسة الخارجية والتجارة في دولة البندقية، ويتمتع بسلطة هائلة، وبالتالي فإن مصير مهمة السفارة الفرنسية بين يديه، فهو من سيبت فيها، إن سلباً أو إيجاباً، ومن البديهي أن يذهب السفراء للقائه.

لكن هذا اللقاء لم يكن بالأمر السهل. فقد أمضى الفرسان أياماً عديدة يتفرجون على معالم البندقية، التي لا تشبه أبداً المدن الصغيرة، التي راحت تظهر في بلادهم. فالبندقية- كما هو معروف- مدينة مبنية في الماء، لكأنها تخرج من البحر... أما الطرق فيها فعبارة عن قنوات، تغمر مياهها أقدام منازلها، وتحيط بالأحياء من الجهات الأربع، مما يعطي هذه الأحياء شكل الجزر الحقيقية. أما وسيلة التنقل الرئيسة عبر "شوارع" المدينة فهي الجندول، بدلاً من العربات المعروفة. أثارت هذه المناظر غير المألوفة دهشة الفرنسيين وإعجابهم، لكن ما رأوه في موانئ البندقية فاق كل توقعاتهم. فقد كانت تغص بالمراكب، التي لا حصر لها، بعضها يشحن بالسلع (بما فيها

"البضائع الحية"- العبيد) إلى مختلف- أرجاء المتوسط، بينما يفرغ بعضها الآخر من البضائع. القادمة من البلدان البعيدة إلى "ملكة الأدرياتيك". وقف السفراء الفرنسيون يراقبون ما يجري في الموانئ البندقية، جاحظي العيون، فاغري الأفواه.

أخيراً أبلغوهم أن بوسعهم المثول أمام الدوغ، صاحب النفوذ الواسع. كان يشغل هذا المنصب آنذاك، ومنذ حوالي عشر سنوات، العجوز الكهل إنريكو داندولو، الذي تجاوز الثمانين من العمر، وهو رجل صقلته التجارب والمحن، ومر بالكثير من الأخطار والمغامرات المدهشة، وذاق حلاوة النجاح ومرارة الاخفاق. فقد جنى الثروات الطائلة من التجارة مع العرب والإغريق، وهو إلى جانب ذلك أدميرال بحري، قاد المراكب البندقية أكثر من مرة في المعارك ضد مراكب المسلمين والتجار المنافسين، وأغرق الكثير منها. كما قدم داندولو فوائد جمة للبندقية في المجال الدبلوماسي، حيث دافع عن مصالحها في بيزنطة والبلدان الأخرى. وأثناء وجوده في سفارة لدى القسطنطينية مني بفقدان بصره، وذلك بسبب إصابته في رأسه، كما يقول بيلاردوين، بينما تَذكر حَوْلية نوفغورد أن اليونانيين سملوا عينيه بالزجاج المتوهج.

كان داندولو، المتربع على عرش الدوغ، يبدو عجوزاً هرماً، لا حول له ولا قوة. لكن عقله، المصقول بالمكائد والدسائس، ظل محافظاً على رجاحته بشكل مدهش. وكما في الأيام الخوالي ظل هاجسه الأول مضاعفة جبروت البندقية وثرائها، وقهر خصومها الكثر، المسيحيين منهم والمسلمين، (كان أعداؤها المسيحيون أكثر من أعدائها المسلمين). صحيح أن عيني داندولو لاتريان إلا الظلمة المطبقة، لكنه يتمتع ببعد نظر ورؤية للمستقبل يحسده عليهما كثير من الملوك المبصرين.

لم يلبث سفراء الصليبيين أن لمسوا قوة الدوغ وسلطته الواسعة لمس اليد. فحين قادهم السكرتير إلى صالة الاستقبال، رأوا عجوزاً أعمى، يبدو في أرذل العمر، جالساً على عرشه.

أزاح الدوغ الوثائق، التي سلمها له السفراء، جانباً، ثم طلب منهم أن يشرحوا له طلبهم. راح الدوغ يصغي للفرسان باهتمام. وقد أدار لهم وجهه الناشف، المليء بالتجاعيد والطيات العريضة على الجبين. وحين أنهى السفراء حديثهم "أبدى الدوغ- كما يقول بيلاردوين- الاستغراب، وأدهشته المهمة، التي جاء السفراء إلى بلاده من أجلها". كانت القضية في غاية الأهمية، وتحتاج، قبل البت فيها، إلى كثير من الدراسة والتمحيص.

في الواقع كان داندولو يتظاهر أنه فوجيء بما نقله إليه السفراء. فهو يعرف بالتحضير للحملة منذ فترة طويلة، إذ سبق للكاردينال سوفريدو، أن عرج على البندقية، وهو في طريقه إلى فلسطين، بتكليف من البابا، الذي كان يدرك تماماً أن النجاح لن يكتب للحملة الصليبية دون مساعدة البندقية، ذات الأسطول الضخم، فكلف الكاردينال بطلب الدعم من البندقيين، قبل وصول السفارة الفرنسية. لكن داندولو الداهية قرر أن يماطل في الرد على طلب السفراء، وأن يتركهم يتقلبون على جمر الانتظار، حتى يكاد صبرهم ينفد، مدركاً أن بوسعه حينذاك أن يفرض السعر الذي يريد، والذي يدر على الجمهورية الأرباح الطائلة. أليست الحملة الصليبية مشروعاً مقدساً؟ إذن فليكن الثمن غالياً.

أخيراً استفاق داندولو من تأملاته الاستعراضية، وعاد إلى عالم الواقع، ثم أعلن للسفراء بصوت هادئ أن عليه أولاً أن يتشاور حول طلبهم مع السيناتورات، أعضاء السنيوريا، أو المجلس المصغر، الذي يضم ستة من كبار أعيان البندقية. حيث نقرأ عند بيلاردوين ما يلي: ((ورد عليهم الدوغ أن يمهلوه أربعة أيام، حيث سيدعو إلى انعقاد المجلس، وسيكون بوسعهم آنذاك أن يتقدموا بمطالبهم)).

بعد أربعة أيام عرض السفراء طلبهم من جديد على أعضاء المجلس المصغر الستة. بحضور داندولو. وهنا أيضاً لم يحصلوا على جواب قاطع، وطلب منهم المثول بين يدي الدوغ بعد أسبوع.

عند لقائه السفراء للمرة الثالثة أعرب داندولو عن موافقته على مساعدة الصليبيين بقوله: "سوف نعقد الصفقة معكم بكل طيبة خاطر".

حسب رواية روبيردي كلاري- وأضاف أن حكومة البندقية لن تـــرفض مؤازرة المشروع المقدس، فالبندقيون حريصون على مصالح العقيدة المسيحية أكثر من أي كان. ولذا فإن الدوغ، وبعد مناقشة الموضوع مـــع أعــضاء المجلس، يقترح على السفراء شروط البندقية لقبولها بتقديم الـــدعم لقـــوات الفرسان. وتنص هذه الشروط على أن فرسان الصليب سيحصلون علـــى أسطول كاف لنقل ٤٥٠٠ فارس، والعدد نفسه من الخيول، و٩٠٠٠ من حملة السلاح و٢٠ألف من المشاة، وعلى مدى تسعة أشـــهر ســـيزودون بحاجتهم من المؤن ومن العلف للخيول. وعلى الصليبيين أن يدفعوا للبندقية لقاء ذلك ٨٥ ألف مارك فضة (٢ مارك عن كل فرد و٤ مارك عن كـــل رأس خيل)، على أن يسدد هذا المبلغ على أربع دفعات، بحيث تسدد الدفعة الأخيرة قبل نهاية نيسان /أبريل/ من عام ١٢٠٢ القادم. والأكثر من هذا أن البندقية تبرعت بتجهيز ٥٠ قادساً مسلحة إضافية، وكل ما سيستولي عليه الصليبيون بمساعدة هذه القوادس الخمسين، إن في البر أو البحـــر، تحـــصل البندقية على نصفه: "نحصل نحن على النصف، والنصف الآخر لكم". فإذا كان السفراء موافقين على هذه الشروط فإن الدوغ مستعد لإبرام المعاهدة، والبدء بتنفيذها، وذلك بعد الحصول على موافقة المجلس الموســـع وشـــعب البندقية، فهما وحدهما المخولان حق البت في الموضوع. أما هو -الدوغ- فلا يستطيع تحمل مسؤولية مثل هذا المشروع، المحفوف بـــالخطر، والـــذي يتطلب الكثير من الجهد. واختتم الدوغ كلامه إلى السفراء بقولـــه: "والآن تشاوروا فيما بينكم، إن كان بمقدوركم القبول بهذه الشروط وتنفيذها".

ما إن تلقى الدوغ رد الفرسان بالإيجاب في اليوم التالي، حتى تمكـــن، دون جهد يذكر، من إقناع أعضاء المجلس الموسع، المكون من ٤٠ شـــيخاً، بالموافقة على مشروع المعاهدة، ثم عمد- كما المخرج الماهر- إلى إشـــراك السفراء الستة في تمثيل الفصل الأخير من الكوميديا، التي وضعها بنفـــسه. وقد جرى عرض هذا الفصل مع بداية نيسان في كاتدرائية القديس مارك، حامي البندقية وملاكها الحارس. وكانت هذه الكاتدرائية التي بنيت قبـــل

ذلك بقرن من الزمان، تدهش الزوار بحجمها الهائل، وبزخرفتها الرائعة، وخاصة الفسيفساء الذهبية، التي تزين أرضيتها، المفروشة بالمرمر.

بعد انتهاء القداس، الذي شارك فيه- حسب تقديرات بيلاردوين- حوالي عشرة آلاف شخص، تقدم السفراء الفرنسيون إلى الأمام: كان داندولو قد "اقترح عليهم التذلل إلى شعب البندقية لكي يوافق على التصديق على هذه المعاهدة". وقد قام أحدهم، وهو بيلاردوين، بالانحناء للدوغ أولاً، ومن ثم وجه للمجتمعين كلمة قصيرة باسم السفارة كلها. توسل مارشال شامبانيا في كلمته إلى البندقيين أن يشفقوا على القدس، التي احتلها الوثنيون، وأن يشاركوا في الحملة الصليبية من أجل الرب، ومن أجل الانتقام للاهانات التي لحقت بالمسيح. وأضاف أن "كبار بارونات فرنسا إنما جاءوا إليكم لأن أياً من الشعوب لا يضاهيكم قوة في البحر، وها نحن ننحني عند أقدامكم، ولن ننهض إلى أن ترثوا للأرض المقدسة، الواقعة وراء البحر...". وهنا خر جوفروا بيلاردوين على ركبتيه فعلاً، وللحال حذا الباقون حذوه.

ولقد أحدث هذا العرض المتقن التأثير المطلوب في الحاضرين، فمن شتى الجهات ترددت الهتافات: "نحن موافقون، نحن موافقون".

بعد عودة الهدوء تحدث داندولو، فكرر، باسم الشعب هذه المرة، موافقة البندقية على دعم الصليبيين ((في تحرير ربنا)) من تحت تأثير "الكفار". ويخيل لمن يسمع كلامه أنه في غاية التدين، وأن هاجسه الأول والأخير هو إنقاذ المقدسات المسيحية.

أخيراً حصل داندولو على ما يريد، فقد دفع شعب البندقية إلى الموافقة على دعم الصليبيين، وبذلك رفع عن كاهله المسؤولية في حال فشل الحملة الصليبية، فالشعب وحده سيتحمل، لأنه هو الذي وافق على تقديم الأسطول للفرسان. انتهت التمثيلية، التي عرضت في كاتدرائية القديس مارك. وأصبح بوسع السفارة الفرنسية أن تعتبر أنها أنجزت مهمتها بنجاح، إذ لم يبق سوى الشكليات، المتعلقة بتوقيع المعاهدة.

المعاهدة مع البندقية

أرغم داندولو السفراء الفرنسيين على التقلب على جمر الانتظار المضني، والمشاركة في مسرحية التذلل إلى مجلس الشيوخ والشعب، من أجل هدف جوهري واحد- التستر منذ البداية على نواياه الحقيقية، التي تكمن في تحويل الحملة الصليبية إلى عملية مربحة، والصليبيين إلى أداة لتنفيذ مشاريعه التجارية- القرصنية.

لم يخل قبول السفراء الفرنسيين شروط الاتفاقية حول نقل الجيش الصليبي إلى ما وراء البحار من الشكوك، فقد "تشاوروا، وتداولوا الليل كله"- كما يقول بيلاردوين. من الجلي أن الفرسان أدركوا، وإن بشكل غير واضح، أن الخمسة والثمانين ألف مارك، التي طلبها الدوغ لقاء تقديم المراكب، مبلغ طائل جداً (يعادل قرابة العشرين طناً من الفضة). ومع هذا فقد بدا لهم أن، تسديد هذا المبلغ لن يكون بالأمر البالغ الصعوبة.

والواقع أن الفرسان لم يألفوا حساب النقود، ولا الدخول في التفاصيل، المهم أن يجيدوا استخدام السيف والرمح من أجل الحصول على الذهب والفضة.

أما فيما يتعلق بالدوغ فلم يحدد هذا المبلغ جزافاً، بل بعد حساب دقيق، كما يفعل التاجر الحريص. وقد دلت حساباته على أن كلفة تموين جيش قوامه ٣٣٥٠٠ شخص وعلف ٤٥٠٠ حصان، بالاضافة إلى كلفة بناء الأسطول، ونفقات استخدامه تقارب السبعين ألف مارك، تضاف إلى ذلك نسبة العشرين بالمئة، التي اعتاد البندقيون تحصيلها من كل صفقة تجارية، فيصبح المبلغ ٨٥ ألفاً، هذا عداك عن نصيب البندقية من الغنائم، والذي ربما يتجاوز هذا المبلغ بكثير، أو لم ينص الاتفاق على حصول البندقية على نصف ما يستولي عليه الصليبيون بمساعدة الخمسين قادساً؟

ومع هذا فلا الأموال، ولا الغنائم، كانت الهدف الرئيس في مخططات داندولو، التي كانت ترمي إلى أبعد من ذلك، وهذا ما فات سفراء الصليبيين، الذين سروا بنجاحهم في تنفيذ المهمة.

والواقع أن داندولو تمكن بمهارة من نصب فخ للصليبيين، وهو على يقين من أنهم واقعون فيه لا محالة، وقد وقعوا فيه فعلاً.

ففي سياق المفاوضات التجارية- الدبلوماسية، طرحت بالطبع، مسألة الهدف المباشر للحملة، وأين سترسو مراكب البندقية بالصليبيين. وكما تدل الأحداث اللاحقة فإن السفراء الفرنسيين ذكروا أن وجهة الحملة المزمعة هي مصر- باعتبارها مركز الممالك الإسلامية. ومن المعروف، على كل حال، أن زعماء الصليبيين اتفقوا، لدى اجتماعهم في البندقية بعد عام، على "التوجه مباشرة إلى الاسكندرية، وضرب طوق من الحصار حولها"- كما يقول الراهب غونتر من صومعة بيرس في الألزاس، نقلاً عن الراهب مارتن، وهو من رهبان الدير نفسه، وكان شاهد عيان على أحداث الحملة الصليبية.

لم يكن من مصلحة البندقية أبداً أن يشن الصليبيون الحرب على مصر، التي تربطها بها علاقات تجارية جيدة. صحيح أن السلطان كان يفرض الرسوم المختلفة على ما يصدرونه إلى مصر ويستوردونه منها، لكنه ترك لتجارها حرية التجارة في شتى أنحاء البلاد، دون أية قيود. ((وبغية نمو التجارة وتطورها))- كما ورد في إحدى الوثائق، لم يكن السلطان يثقل كاهل البندقيين بالالتزامات، لا بل إنه سمح لهم بحرية الاقامة في خانهم التجاري في الاسكندرية، تحت حراسة مقاتليهم. كانت ملكة الأدرياتيك تبيع للسلطان السلاح والأخشاب الحديد، وتستورد من مصر مختلف أنواع التوابل. وبالتالي فإن البندقية لم تكن معنية أبداً بمساعدة الصليبيين في غزو مصر، هذا الحليف التجاري الهام. أما الأسباب الدينية، فهذا آخر ما كان يخطر في بال تجار البندقية وربابنتها، الذين ضربوا عرض الحائط بقرارات المجمعات الكنيسة، التي تحرم على الكاثوليك تزويد أعداء العقيدة المسيحية بالسلاح.

أضف إلى هذا أن الحرب ضد مصر كانت محفوفة بالمخاطر... ولذا فإن الدوغ ومستشاريه لم يبدوا الكثير من الحماسة لتوجيه الحملة الصليبية ضد مصر، وفي المفاوضات مع السفارة الفرنسية، أعربوا عن رغبتهم في أن

تتخذ هذه الحملة اتجاهاً آخر، بعيداً عن مصر، وهذا يتطلب وضع فرسان الصليب تحت رحمة البندقية، وجعلهم مقيدين إليها، ولقد وجد الدوغ الوسيلة الكفيلة بتحقيق ذلك.

ألزمت المعاهدة الصليبيين – كما ذكرنا- بدفع ٨٥ ألف مارك، لكن المعاهدة لم تنص في أي من بنودها على الهدف المباشر من الحملة، ولا على الاجراءات، التي ستتخذ في حال لم يصل العدد المطلوب من المقاتلين (٤٥٠٠ فارس، ٩ آلاف حامل سلاح و٢٠ ألف من المشاة) إلى البندقية في الموعد المضروب (شهر نيسان من عام ١٢٠٢). وهذا يعني أن الصليبيين ملزمون بدفع المبلغ المذكور مهما قل عديدهم. وهنا بالذات استطاع الدوغ المكر بالسفراء الفرنسيين. فهو يعرف جيداً أن الصليبيين لن يتمكنوا من حشد هذا العدد، بعد أن خفت حماسة الفرسان الدينية، وقلت الرغبة في الانطلاق في حملة جديدة تحت راية الصليب، وهكذا فحين يحل الموعد المضروب سينتهز الدوغ الفرصة المناسبة لإملاء شروطه على الصليبيين، الذين سيجدون أنفسهم في قبضته حكومة البندقية، باعتبارهم مدينين، غير قادرين على التسديد.

كان الدوغ يعرف جيداً إلى أين سيوجه الحملة الجديدة، وهذه الوجهة لم تكن تخطر ببال حتى أقرب المقربين إليه. إن أعداء البندقية كثيرون، لكن الدوغ كان يعتبر أن لدى البندقية عدواً أكبر وأخطر, فمن هو هذا العدو، الذي راح الدوغ يحوك الدسائس والمكائد حوله؟ وحده البابا أدرك نوايا الدوغ المبيتة، وإلى أين يريد توجيه الحملة. ((شرط أن لا تلحقوا الضرر بالمسيحيين)).

غداة التمثيلية، التي شهدتها كاتدرائية القديس مارك، أعد الكتبة المعاهدة، وحملوها للدوغ إلى القصر الكبير، حيث المجلسان الموسع والمصغر)). وقد تضمنت لفائف البرغام كل الشروط، التي سبق للدوغ أن طرحها على السفراء، ووافقوا، ووافقوا عليها، فخانوا، من حيث لا يدرون، من أوفدهم وكل قوات الصليب، لصالح جمهورية البندقية. كان عدد المقاتلين المذكور في المعاهدة يزيد ثلاث مرات عن عدد الصليبيين،

الذين كانوا جاهزين للزحف آنذاك، لكن هذا لم يثر قلق السفراء، الـــذين اعتقدوا أنهم عقدوا صفقة ناجحة.

أما في الواقع فإن مصير الحملة الصليبية أصبح منذ الآن في يد الطغمة البندقية. فالسفراء، الضعيفون في الحساب، بالغوا كثيراً في حجم القـــوات، التي ستقوم البندقية بنقلها إلى ما وراء البحار.

بعد أن وقع الطرفان المعاهدة، وأقسما على الإنجيل أن يلتزما ببنودها، حملها أحد السعاة، وانطلق إلى روما، لكي يصدق عليها الحبر الأعظم.

لم يحتج البابا إلى التمعن طويلاً في مضمون اللفائف، التي قدمت لـــه، حتى أدرك نوايا الدوغ، فقد كان هو نفسه يتقن فن الدهاء والمكر، لا أقل من تجار البندقية وحاكمهم الداهية. ودون صعوبة اكتشف وجود الثغرات في اتفاقية البندقية مع الصليبيين، وكان يعرف البندقيين جيداً، ويدرك أنهم لا يتورعون عن نقل أي مكان وإلى أي مكان في حال وجود منفعة لهـــم في ذلك. وهكذا فما إن اطلع على بنود المعاهدة، حتى أدرك أن الدوغ يعرف مسبقاً أن الصليبيين لن يتمكنوا من الوفاء بتعهداتهم، وحينذاك سوف يحاول التعويض عن خسارته المالية باستخدام القوات الصليبية لصالح البندقية، أي للتوسع والاحتلال. لكن أين بالتحديد؟ كان البابا يدرك جيداً مرامي الدوغ ونواياه، فمن الواضح تماماً أن الدوغ لن يرسل الصليبيين لمحاربـــة مـــصر، حليفة التجاري الهام: ففي عام ١١٩٨ وجه البابا توبيخاً شديد اللهجة إلى البندقيين على بيعهم السلاح إلى السلطان. ومع هذا فقد استمرت السيوف والبلطات، المسيحية الصنع، تتدفق على بلاد "الكفـــار". إن مثـــل هـــذا الاستخفاف بالتوجيهات البابوية جعل اينوقنتيوس الثالث يعتقد جازمـــاً أن الدوغ إنما يتطلع إلى توجيه الحملة الصليبية نحو بيزنطة، وهذا بالذات مـــا كان يتطلع إليه البابا في الخفاء.

صحيح أن بيزنطة دولة مسيحية، لكن الأهم من ذلك أنها دولة غنية، تملك مفتاح العبور إلى البحر الأسود، هذا عداك عن الكنوز الـــضخمة في معابدها. كان البابوات يتطلعون باستمرار إلى إخضاع الكنيسة اليونانيـــة للكنيسة الرومانية، وجعل امبراطورية القسطنطينية في وضع التابع للكرسي

الرسولي. وليس من باب المصادفة أن حذر البابا امبراطــور القــسطنطينية المغتصب منذ عدة سنوات من "العاصفة الهوجاء"، وها هي البندقية تتطلــع بدورها إلى الامبراطورية البيزنطية. وتسعى إلى بلوغ مآربها فيها باستخدام الصليبيين، فما العمل؟

اتخذ البابا قراراً عاجلاً، قائماً ككل سياسته، على النفاق من ألفه إلى يائه. فهو لم يكن ليستطيع رفض التصديق على المعاهدة بــين الــصليبيين والبندقية، إذ، بدون أسطولها، يستحيل عليهم الوصول إلى ما وراء البحــر. وهكذا فقد صدق عليها، وأعرب في رسالة لاحقــة إلى رجــال الــدين البندقيين، عن ارتياحه لأن "أبناءه البررة، الدوغ إنريكو، وشعب البندقيــة، قرروا تقديم مثل هذا الدعم الكبير للأرض المقدسة". حتى أنه تظاهر أن كل الأمور تجري حسب نواياه، وكأنها تنفيذ لإرادته. وأوعز البابا إلى رجــال الكنيسة في إنجلترا وفرنسا أن يراقبوا بدقة بدء الحملة في الموعد "الذي حدده أبناؤنا البررة، كونتات فلاندريا وشامبانيا وبلوا"، الذين أبرم سفراؤهم اتفاقاً مع البندقيين بهذا الخصوص.

ومع هذا فإن البابا لم يكن، على الرغم من نفاقه، قادراً على أن يبارك بشكل سافر ومطلق مشاريع داندولو الخفية، التي كان يراها واضحة جلية. ولذا فلم يكد يصدق على الاتفاقية، حتى وجه تحذيراً شديداً- من الناحيــة الشكلية على الأقل، داعياً فيه البندقيين والصليبيين إلى عدم رفع السلاح ضد المسيحيين، وعدم إلحاق الضرر بهم، مؤكداً أنه يعترف بشرعية هذه المعاهدة "شرط أن لا تلحقوا الضرر بالمسيحيين".

كل ذلك يمكن أن يعني شيئاً واحداً: موافقة اينوقنتيوس الثالث عملياً على النوايا الخفية لدوغ البندقية، التي تستهدف امبراطوريــة القــسطنطينية المسيحية بالدرجة الأولى.

البندقية والقسطنطينية

كانت للبندقية حسابات قديمة مع اليونانيين: ولهذا الــسبب حــاول الدوغ استخدام الصليبيين لضرب بيزنطة. فكم من مرة ساعد البنــدقيون

بأسطولهم بيزنطة في صراعها ضد أعدائها، وحصلوا، لقاء هذا الدعم على الكثير من الامتيازات التجارية وغير التجارية، فالبضائع، التي يستوردونها من المدن البيزنطية، أو يصدرونها إليها، معفاة من الرسوم. حتى إنه لم يكن يحق لسلطات الجمارك البيزنطية فحص هذه البضائع ومراقبتها، وفي مرفأ العاصمة خصصت لهم ثلاثة أرصفة هم الآمرون الناهون فيها، ثم إن التجار وأصحاب السفن والمرابين البندقيين وأفراد أسرهم وخدمهم، كانوا يعيشون في القسطنطينية في حي خاص بهم، غير خاضع للسلطات اليونانية. وإذا ما تعرض اليوناني للإهانة، أو الضرر من قبل أحد البندقيين فإن المحكمة البيزنطية لا تملك الحق في محاكمة المتَّهم، التي هي فقط من صلاحيات القنصل البندقي، وليس حسب القوانين اليونانية، بل بموجب قوانين البندقية.

ومن البدهي أن تثير سيادة البندقيين في المدن البيزنطية، والامتيازات الاستثنائية، التي يتمتعون بها، خاصة في العاصمة، سخط واستياء التجار والصناعيين اليونان: فهذه الامتيازات تسمح بشراء البضائع بأرخص الأسعار، وبيعها بأغلاها. وهكذا استحوذ التجار البندقيون على الزبن، وجنوا من تجارتهم الأرباح الطائلة، التي لم يكن التجار والصنّاعيون البيزنطيون يحلمون بها. وإزاء هذا الوضع الجائر راح التجار اليونانيون يطالبون حكومتهم بوضع حد لنفوذ البندقيين. وحدث ذات مرة، وقبل ثلاثين عاماً من التحضير للحملة الصليبية الجديدة، أن أصدر الامبراطور مانوئيل كومنين أمراً بإلقاء القبض على جميع البندقيين، الموجودين في الامبراطورية آنذاك، ومصادرة كل ما لديهم من نقود وبضائع.

ومع مرور الزمن، استعاد البندقيون نشاطهم التجاري في بيزنطة، لكنهم وهم المعروفون بالحقد والجشع، لم ينسوا للإغريق ذلك الضرر الكبير، الذي ألحقه بهم مانوئيل كومنين، واستطاعت حكومة البندقية أن ترغم الأباطرة اللاحقين (أندرونيك كومنين، إسحاق الثاني والكسيوس الثالث) على تعويض تجار البندقية وأعيانها عما لحق بهم من ضرر، لكن هذه الالتزامات لم تكن قد نفذت بكاملها في عام ١٢٠١، فمع اقتراب موعد التسديد كان الأباطرة البيزنطيون يدعون أنهم لا يملكون المبالغ المطلوبة،

ويكتفون بالوعود المعسولة، وتقديم الامتيازات الجديدة للبندقيين، الذين لم يرضهم ذلك كله، واستمروا في المطالبة بالحصول على النقود الرنانة. وإزاء استمرار المماطلة ازدادت مشاعر الانتقام لدى سلطات البندقية من بيزنطة.

والواقع أن الديون لم تكن السبب الوحيد وراء التوتر في العلاقات بين البندقية والقسطنطينية، إذ لم يكن حجمها يتجاوز الـ١٤,٥ ألف نوميسم (حوالي ٦٠ كغ من الذهب)، بل إن ما أثار حفيظة البندقيين أن السلطات البيزنطية راحت تغدق الامتيازات على تجار المدينتين الإيطاليتين المنافستين للبندقية- بيزا وجنوا. وقد تفاقم هذا الوضع في عهد المغتصب الكسيوس الثالث، الذي راح يمارس هذه السياسة بالذات: فشمل تجار بيزا وجنوا بالحماية، مما ألحق الضرر الكبير بالبندقية، و لم يكتف بذلك، بل راح يطالب تجارها بتسديد الرسوم الجمركية، خلافاً لبنود معاهدة ١١٩٩، كل ذلك أصبح يهدد بتقليص عائدات البندقيين التجارية مع بيزنطة، وجعل مواقعهم فيها غير راسخة بما فيه الكفاية.

كان حكام البندقية، وداندولو بالدرجة الأولى، يتطلعون نحو تأمين الوضع المناسب لتجار الجمهورية في التجارة الليفانتية، ويعتبرون أنه من حق البندقية أن تكون الآمر الناهي في الموانئ البيزنطية، الواقعة على البحرين المتوسط والأسود. وعاماً بعد عام كان البندقيون يزدادون قناعة أنهم لن يتمكنوا من بلوغ هذه الأهداف إلا بالقوة. لابد بكل بساطة، من كسر شوكة اليونانيين الغادرين، والاستيلاء على مدنهم وموانئهم، وحينذاك لن تبقى حاجة للتفكير بالذهب، الذي انتزعه مانوئيل كومنين، والذي لم يسدد بكامله حتى الآن، كما سيزول خطر المنافسة من جنوا وبيزا. و لم يكن أثرياء البندقية يتورعون عن الكشف عن نواياهم في أحاديثهم المتبادلة. وهكذا فإن الدوغ داندولو أراد أن يترجم إلى الواقع ما كان يراود بني قومه من أحلام، والاستعانة بمقاتلي المسيح من أجل وضع حد لغدر امبراطور القسطنطينية، والاستيلاء على الثروات البيزنطية، والسيطرة على موانئها، دون منازع.

"وقرروا إرسال مبعوثين إلى الماركيز بونيفاتسي مونفيرات في لومبارديا".

لم يكد سفراء البارونات الفرنسيين يعودوا أدراجهم، حتى راحت القلاع تتناقل النبأ المشؤوم- فجأة مات الكونت الشاب تيبو الشمباني، المرشح لقيادة القوات الصليبية، والذي أوصى قبل موته بإنفاق ٥٠ ألف ليفر على الحملة. لكن النقود وحدها لا تكفي، فلا بد للجيوش من قائد، وأن يعين هذا القائد على جناح السرعة، فالمعاهدة مع البندقية أبرمت، والمراكب ستكون جاهزة في الموعد المضروب.

من جديد توافد الأسياد الفرنسيون البارزون على بلدة سواسون، هذه المرة، الواقعة إلى الشرق من كومبيان، لكي يختاروا القائد الجديد، لكن ذلك لم يكن بهذه البساطة. فقد راح الجميع يعتذر عن قبول هذا الشرف، بذرائع مختلفة، بمن فيهم الدوق إيد دي بورغون، وتيبو دي بارلي لوك. أخيراً أعلن بيلاردوين أن أفضل مرشح لقيادة قوات الصليب هو الماركيز بونيفاتسي من إمارة مونفيرات الإيطالية الشمالية. لكن البارونات اعترضوا على هذا الاقتراح، ورفضوا وضع إيطالي على رأس القوات، فما علاقة السنيور مونفيرات البعيد بقضية الفرسان الفرنسيين؟.

تشبث بيلاردوين برأيه، مبرراً اقتراحه بالقول: صحيح أن أملاك الماركيز تقع خلف الألب، لكنه قائد عسكري محنك، ودبلوماسي بارع، أضف إلى ذلك أنه يمت بصلة القرابة للملك الفرنسي فيليب الثاني، والأهم من ذلك أنه سوف يرحب بهذا العرض، لأن مصالح الأرض المقدسة ليست بعيدة عن أسرة مونفيرات: فقد سبق لثلاثة من إخوة بونيفاتسي أن شاركوا في الحملات الصليبية السابقة، واستولوا على الضياع والمدن في فلسطين، لا بل وكانوا يمتون بصلة القرابة لملوك القدس.

كل هذه الحجج لم تكن قادرة على إقناع الكونتات والدوقات لولا أنهم استشفوا من إصرار بيلاردوين ما جعلهم يوافقون على هذا العرض مكرهين: فقد تبين أن مارشال شامبانيا إنما كان يتحدث بلسان الملك

فيليب الثاني، فهو من نصحهم باختيار المركيز قائداً للحملة. وهكذا عمل حتى أولئك المتشددون بنصيحة الملك، "وقرروا- كما يقول روبيردي كلاري- إرسال مبعوثين إلى المركيز بونيفاتسي مونفيرات في لومبارديا".

"أمحبة بالله، ورغبة في مساعدة الأرض المقدسة؟"

أبلغ المبعوثون مونفيرات بقرار الأسياد الفرنسيين، تعيينه قائداً للقوات الصليبية، مما أوقعه في حيرة كبيرة، فلم تكن فكرة الحرب من أجل القدس تخطر له في بال، ومع هذا فقد سارع بونيفاتسي ذو الخمسين عاماً، والذي يبز الأمراء الآخرين حنكة ودراية، إلى السفر إلى فرنسا مع حاشيته وأتباعه، وفي أيلول /سبتمبر/ من عام ١٢٠١ مثل أمام الأعيان، الراغبين في التوجه نحو الشرق، وقد استقبله هؤلاء بالترحاب، وأكرموا وفادته.

والواقع أن بيلاردوين لم يبالغ كثيراً في وصف مناقب المركيز العسكرية والدبلوماسية. أضف إلى ذلك أنه كان، مثله مثل العديد من الإقطاعيين اللمبارديين، يتطلع إلى توسيع أملاكه، عن طريق الاستيلاء على أراضٍ جديدة، لكن اليونان، وليس فلسطين، كانت محط نظر وأطماعه التوسعية. فمنذ أكثر من عشر سنوات استطاع اثنان من أخوة بونيفاتسي تبوء المناصب الرفيعة لدى الأباطرة البيزنطيين، حتى أن رينيه مونفيرات، المتزوج من ماريا، ابنة مانوئيل كومنين، حصل على لقب "قيصر"، ووعد بإقطاعه مدينة سالون، الميناء التجاري الأهم في بيزنطة، بعد القسطنطينية. لكن الأباطرة لم ينفذوا هذا الوعد بحجج مختلفة، وهكذا فقد راح المركيز يتطلع إلى السير على خطا أخيه، والحصول على الأراضي اليونانية بـ"الوراثة"، وعلى الضياع، التي سبق للامبراطور مانوئيل كومنين أن أقطعها لوالده.

تقبل المركيز الصليب في سواسون، وأعلن أنه يقوم بذلك "محبة بالله، ورغبة في مساعدة الأرض المقدسة"، ومن ثم جرت مراسيم تنصيبه قائداً أعلى للقوات الصليبية.

كان المركيز يفهم جيداً الأسباب الكامنة وراء توصية الملك فيليب الثاني باختياره على رأس الحملة الصليبية، كما لم تخف عليه هوية الجهة التي

رشحته لشغل هذا المنصب الهام. ومن أجل التأكد من صحة ظنونه انطلق إلى المانيا، حيث أكد له الملك الجرماني فيليب غوغينشتاوفن أنه هو وراء تزكيته لدى الملك الفرنسي. على مدى سنوات عديدة ظل المركيزات من آل مونفيرات يخدمون الأباطرة الجرمان من أسرة غوغينشتاوفن بكل تفان وإخلاص. وفي الوقت الذي كانت فيه الاستعدادات للحملة الصليبية الجديدة تجري على قدم وساق في فرنسا، بدأ البلاط الجرماني يحوك المكائد الخفية، التي كان نجاحها يتطلب الاستعانة بخدمات بونيفاتسي. وكما سبق وذكرنا فقد تميزت تلك الفترة بتأجج النزاعات بين الإقطاعيين الجرمان، ولم تكن فكرة المشاركة المباشرة في الحملة الصليبية تراود إلا القلة القليلة منهم. أما الملك فيليب فكان يتطلع نحو استخدام المشروع البابوي بشكل غير مباشر لتحقيق مآربه الخاصة، التي لا تمت بصلة لتحرير القدس من تحت نير المسلمين.

يذكر أن هنري السادس غوغينشتاوفن، شقيق فيليب، تمكن، أثناء حكمه، من إخضاع مملكة صقلية. وسبي الكثيرين، بمن فيهم الأميرة إيرينا، ابنة الامبراطور البيزنطي إسحاق الثاني أنجل، وأرملة ولي عهد العرش الصقلي. وقد اتخذ فيليب غوغينشتاوفن الأميرة اليونانية زوجة له، طمعاً في انتهاز الفرصة المناسبة للمطالبة بعرش القسطنطينية، باعتباره صهراً لإسحاق الثاني.

في ميدان السياسة كان فيليب مغامراً حقيقياً، على غرار أبيه فريدريك بارباروس، وأخيه هنري السادس. ولم تلبث الفرصة الملائمة أن سنحت لاستغلال زواجه من الأميرة اليونانية، ففي عام ١١٩٥ سقط إسحاق الثاني نتيجة الانقلاب، الذي دبره الكسيوس الثالث، وزج به في السجن. فمن له الحق الآن في الوقوف إلى جانب الامبراطور المخلوع، ورفع لواء الدعوة إلى استعادته العرش؟ إنه الملك فيليب غوغينشتاوفن بالطبع، باعتباره صهره. وهكذا فقد أقام البلاط الجرماني اتصالات شبه منتظمة مع الامبراطور السجين، الذي لم يجد صعوبة في بعث الرسائل إلى ابنته في المانيا، وتلقي الردود منها عبر سعاة يعملون في الخفاء. وكانت المراسلات السرية بين

الامبراطور المخلوع وابنته وزوجها، الملك الجرماني، تتمحور حول كيفية الإطاحة بالامبراطور المغتصب، واستعادة العرش السليب.

قرر فيليب استخدام أسلوب غير مباشر للوصول إلى هدفه، أي الاستعانة بالبابا (بشكل غير معلن بالطبع) من أجل توجيه الصليبيين نحو القسطنطينية، بغية إعادة الامبراطور الشرعي إلى عرشه.

ومن أجل تنفيذ هذه الخطة كان لا بد من وضع الصليبيين تحت قيادة شخص مخلص، تسهل من خلاله السيطرة على القوات الصليبية، ومن البديهي أن تكون لهذا الشخص- بدوره- مصالحه في بيزنطة، وكان المركيز بونيفاتسي أفضل من يقوم بهذا الدور. والآن، وبعد أن أمضى المركيز شتاء ١٢٠١- ١٢٠٢ بصحبة فيليب غوغينشتاوفن، أصبح يدرك جيداً أبعاد دوره في الحملة الصليبية. على هذا النحو تسربت إلى قيادة الحملة الصليبية المصالح السياسية الإضافية، البعيدة، كما في الحملات السابقة، عن التقوى الدينية.

دبلوماسية روما الخفية

مع بداية حلول الدفء انطلق فرسان فرنسا ولمبارديا وألمانيا جزئياً، وكل من ضاقت به الديار، باتجاه البندقية، يحدوهم الأمل في الابحار منها على متن مراكبها، باتجاه الشواطئ الإسلامية. وفي هذا الوقت، أي في ربيع عام ١٢٠٢، بدأت خيوط الدبلوماسية الخفية تحاك بكل همة ونشاط من حول الحملة الصليبية الرابعة، وكانت روما مركز هذه الدبلوماسية، ذات الشباك الدقيقة والقوية في آن واحد.

استقبل البابا اينوقنتيوس الثالث شخصين، قدر لهما أن يلعبا دوراً بالغ الأهمية في الحملة الصليبية، كان المركيز بونيفاتسي مونفيرات أولهما، وقد جاء بحجة الحصول على مباركة البابا على هذا المشروع المقدس،أما الغرض الحقيقي من زيارته فهو معرفة موقف البابا من الخطط، التي أعدت في بلاط فيليب غوغينشتاوفن، صحيح أنه من المستحيل الحصول على دعم البابا الكامل والسافر، لكن المهم على الأقل ضمان أن لا يعارض احتمال أن

تتخذ الحملة الصليبية الجديدة وجهة مفاجئة ومختلفة، إلى حد ما، عما كان مقرراً.

بالطبع لم يكن البابا يستطيع أن يوافق علناً على طلب قائد الصليبيين، ولذا راح يؤكد بإصرار على أن الهدف من الحملة الصليبية يجب أن يبقى القدس. ثم عاد البابا، وهو مغتبط في سره، يكرر تعليماته، مؤكداً على ضرورة أن لا ينسى الصليبيون واجباتهم المقدسة أمام الكرسي الرسولي مهما كان السياق، الذي سيتخذه تطور الأحداث.

أدرك المركيز بونيفاتسي، المعروف برهافة حسه الدبلوماسي، المغزى الحقيقي لتلميحات البابا. من الواضح أن البابا سوف يوافق على كل شيء، شرط أن تراعى المصالح المباشرة للبابوية. وهذا يعني أن بداية مهمة بونيفاتسي قد تكللت بالنجاح، وأن بوسعه الانتقال إلى المرحلة التالية- محاولة تغيير وجهة الحملة الصليبية. وليطمئن قداسته، فهو سيحصل على ما يريد، ولسوف يؤكد له ذلك الأقطاب الباقون للمشروع، الذي جاء المركيز إلى روما، من أجله. وبالفعل لم يلبث القول أن اقترن بالفعل، بوصول زائر ثان إلى روما، وكان هذا الزائر... ولي العهد الكسيوس، ذلك الشاب، الذي تركناه في بداية هذا الفصل على متن أحد مراكب الصليبيين. والآن حان الوقت لكي نعود إليه.

الفصل الخامس
بمباركة الحبر الأعظم

مع بداية عام ١٢٠٢ تمكن الأمير الكسيوس، بعد الحصول على نصائح أبيه، الامبراطور السابق إسحاق الثالث، وتوصياته، من الهرب من القسطنطينية، بمساعدة تاجر من بيزا، نقله على متن مركبه التجاري. وقد ذكر المؤرخ اليوناني نيكيتا خونيات، أن الكسيوس الثالث أمر ما إن عرف هرب الأمير، بالبحث عنه. والعثور عليه مهما كلف الأمر، فانطلق جواسيس الامبراطور إلى الموانىء " لكنهم لم يتمكنوا من اكتشافه، بعد أن قص شعره، على شكل دائرة، وتنكر بزي اللاتين، واختلط، بهم" وقد أقلع به المركب تحت جنح الظلام، ونقله إلى بر الأمان.

نزل الهارب في ميناء إحدى البلدات الإيطالية، ومن هناك انطلق على جناح السرعة قاصداً روما، وفي جيبه المال، الذي زوده به التاجر. ركع الأمير أمام البابا، وراح يتوسل إليه، باعتباره حامي جميع الضعفاء والمظلومين، أن يساعد والده، اسحاق الثاني، في استرداد عرش القسطنطينية، ومعاقبة المغتصب الكسيوس الثالث، الذي استولى على التاج البيزنطي غيلة وغدراً. وأضاف الأمير أنه سمع بعزم الفرسان على محاربة "الكفار"، بناء على دعوة البابا، وأنه التقى في الطريق بمجموعات من الصليبيين في طريقها إلى البندقية، وأن الرب لن يغضب على مقاتليه الأشاوس، إن هم استخدموا السلاح أولاً من أجل إعادة الملك الشرعي إلى عرش القسطنطينية. وأكد الأمير أنه، ما إن يستعيد أبوه، عرشه الشرعي، حتى يسارع إلى رد الجميل للبابا وللصليبيين، ويساعدهم، إن بالمال وإن بالقوات، على تنفيذ مشروعهم، الرامي إلى تحرير هيكل الرب في القدس. والأكثر من هذا أن

الأمير، نيابة عن والده إسحاق الثاني، يتعهد بتوحيد الكنيسة اليونانية مع الرومانية، في حال عودة أبيه إلى العرش.

ذلكم هو محور ما قاله الأمير الكسيوسي للبابا اينوقنتيوس الثالث أثناء لقائه به، مما أكد للبابا أن تلميحاته واقتراحاته، لبونيفاتسي قد فهمت، ووجدت أذناً صاغية، فهل من المناسب أن يتردد الآن في اختيار الوسائل، الكفيلة بتحقيق هذه الأهداف المسيحية البالغة الأهمية-، التي طالما راودت بابوات روما السابقين- بسط السيطرة البابوية على الكنيسة البيزنطية، التي تضم مئات الآلاف من المسيحيين، والاستيلاء على ثرواتها، فيضاعف بذلك من نفوذ الكرسي الرسولي وسلطته.

اتخذ البابا قراره بالموافقة على أن يأخذ الصليبيون على عاتقهم مهمة إعادة الشرعية، شرط أن لا يلحق ذلك أي ضرر بالهدف الرئيس للحملة الصليبية، ولا بمصالح الكرسي الرسولي.

تبنت روما موقفاً محدداً، لكنه مموه، كما تدل الوثائق، التي وصلتنا، وقد غادر الأمير الشاب القصر البابوي، وهو مفعم بالآمال ويشير المدون الفرنسي ألبريك دي تروافونتين إلى أن فيليب غوغينشتاوفن لم يلبث أن وضع في صورة الصفقة السرية مع البابا، "الذي كان يتوق لتبوء الأمير الكسيوس عرش أبيه"، وإثر اطلاعه على هذه الصفقة، سارع الملك الجرماني إلى توجيه رسالة إلى إينوقنتيوس الثالث يؤكد له فيها عزمه على وضع الكنيسة اليونانية تحت إمرة الكرسي الرسولي إذا ما شاء الرب، الكلي القدرة، أن يمكنني أنا، أو صهري، من الحصول على الامبراطورية البيزنطية".

وهكذا تم التنسيق مع روما بشأن كل الخطط السرية، التي حاكها جميع أولئك الذين عملوا خلف كواليس المطبخ الدبلوماسي، الذي تقرر فيه مصير الحملة الصليبية الرابعة: البندقية ودوغها وتجارها، بونيفاتسي مونفيرات، الذي يعمل لمصلحة آل غوغينشتاوفن ولمصلحته الخاصة، فيليب الثاني، الذي كان وراء تعيين قائد للصليبيين، مناسب للتاج الفرنسي ولحليفه فيليب شواب والبابا، الذي وهبهم مباركته السامية- كل هؤلاء كان يجمع بينهم مباشرة، أو بشكل غير مباشر، هدف مشترك في الحملة الصليبية

المزمعة. ومهما تم التستر على هذا الهدف، وتمويهه، فإن جوهره واحد- استخدام الحملة الصليبية كوسيلة مناسبة لوضع اليد على الامبراطورية البيزنطية.

لكن ألن يرفض الفرسان توجيه سلاحهم نحو هذا الهدف الجديد، الذي حددته الأطراف المحركة لخيوط الحملة الصليبية؟ كان الجواب على هذا السؤال لا يزال في جعبة المستقبل، الذي راح يطرق الأبواب.

"سددوا لنا الأموال، التي اتفقنا عليها"

مع حلول شهر حزيران من عام ١٢٠٢ بدأ الفرسان وحملة سلاحهم يتدفقون على البندقية في مجموعات صغيرة وكبيرة، وبعد اجتيازهم الألب، عبر ممر برنار الكبير، مروا بالقرى والبلدات اللمباردية، باتجاه جمهورية القديس مارك. ولما كان السكان المحليون يعرفون جيداً ما جبل عليه هؤلاء الفرسان من حب للنهب والسلب، قدموا لهم المبيت على مضض، ولم يسمحوا لهم بقضاء أكثر من ليلة واحدة في منازلهم.

لكن البندقية لم تكن وجهة جميع من حمل الصليب، فقد سلك الكثيرون طرقاً أخرى، قاصدين موانئ أخرى. وعمد البعض، خوفاً من مكائد البندقية، إلى الإبحار على متن المراكب الفلامندية، أو مراكب تجار مرسيليا، باتجاه سورية، عبر الجنوب الإيطالي، مفضلين عدم المرور بالبندقية، التي لم يكونوا يثقون بحكامها.

والواقع أن هذا التحول أثار قلق قادة الحملة، الذين بدأوا يدركون أن الفرسان لن يستطيعوا "تنفيذ بنود المعاهدة، وتسديد ديونهم للبندقية"، فأرسل هؤلاء القادة الرسل لإقناع "المنشقين"، بمن فيهم لوي بلاوس، بضرورة التوجه إلى البندقية، ومع هذا فإن الكثيرين لم يستجيبوا لهذه الدعوة، واختاروا طريقاً آخر "مما ألحق الضرر الكبير بأولئك الذين توجهوا إلى البندقية، وجر عليهم هم أنفسهم كثيراً من المصاعب والمحن"- كما يقول بيلاردوين. راح الصليبيون يتوافدون على البندقية، إلى أن وصل العدد المطلوب بالكامل، كما يزعم روبير دي كلاري، لكن الواقع، وكما يصفه بيلاردوين، الأوسع اطلاعاً، لم يكن زاهياً إلى هذا الحد، فلم يتجاوز عدد

الفرسان، الذين وصلوا البندقية الألف، بالإضافة إلى نيف وعشرة آلاف من المقاتلين- رماة السهام، حملة السلاح، الخدم من المشاة والخيالة، وبذلك فقد سارت الأمور على نحو ما توقع الدوغ.

أوعز داندولو بإنزال الصليبيين في ضواحي المدينة، أما الفرسان فقد نقلوا بالقوارب إلى جزيرة ليدو، حيث نصبت لهم الخيام. ولم يقع اختيار داندولو على هذه الجزيرة، شبه المهجورة. لإسكان الفرسان، من باب المصادفة. صحيح أنه قام بذلك من أجل ضمان الأمن في البندقية، لكنه إنما أراد، بالدرجة الأولى، جعل الصليبيين يشعرون بمدى قوة "ملكة الأدرياتيك" وجبروتها. كانت المؤن تصل إلى الصليبيين بشكل متقطع، ولقد ذاقوا الأمرين من قلة ماء الشرب في ذلك القيظ التموزي، الذي لا يطاق، وبعد الجوع والعطش، تفشت في المعسكر الأمراض، التي راحت تفتك يومياً بحياة كثيرين من نزلائه، ولم يكن رجال الدين ينتهون من قداس دفن، حتى يبدأوا قداساً آخر. أما البندقيون فلم يحركوا ساكناً، ولم يهتموا بمقاتلي الرب.

كان الدوغ يعرف جيداً كل ما يجري في معسكر الصليبيين، ويشعر بالارتياح، فالأمور تسير كما خطط لها ورسم. فها هو قسم من الفرسان يغادر ليدو، عائداً إلى الديار، وها هو قسم آخر ينصرف إلى السكر واللعب.

بعد مرور بعض الوقت وصل الدوغ ومستشاروه إلى ليدو، يسألون الفرسان: "ألم يحن الوقت لتبدأوا تسديد التزاماتكم؟ من جهتنا، نحن البندقيين، فقد قمنا بتنفيذ التزاماتنا كلها، لا بل وأكثر، فماذا عنكم أنتم؟ لقد طلبتم أسطولاً لأربعة آلاف وخمسمائة فارس، بالإضافة إلى ٢٠ ألف مقاتل صليبي، لكن لم يأت منكم إلا قلة قليلة، ولهذا نريد منكم أن تدفعوا المال، الذي اتفقنا وإياكم عليه". فشل الفرسان في تأمين المبلغ المطلوب، على الرغم من قيامهم بمحاولة جمعه في المعسكر ثلاث مرات. وها قد انصرم الموعد الأخير للتسديد، دون أن تحصل خزينة البندقية على الأموال المتفق عليها. وفي ظل هذه الظروف وجد الكونتات والبارونات أنفسهم

مضطرين للاستدانة من المرابين، أما الموسرون منهم فقد تبرعوا بما لديهم من مجوهرات، ومع هذا فإن ما تم تسديده لم يتجاوز الـ٥١ ألف مارك، أي أن الفرسان ظلوا مدينين للبندقية بمبلغ قدره ٣٤ ألفاً.

حينذاك كاد تموين الفرسان بالمواد الغذائية يتوقف، بناء على أوامر الدوغ، بالطبع. ومما زاد في الطين بلة أن الفرسان وجدوا أنفسهم سجناء، فلا قوارب لديهم للخروج من هذه الجزيرة، والتخلص من الشمس الحارقة ومن الجوع والعطش، فما العمل؟

في صباح أحد الأيام رسا جندول قرمزي، عند شاطئ الجزيرة، ونزل منه الدوغ. لقد جاء داندولو إلى الفرسان هذه المرة لكي يوبخهم على تقصيرهم في احترام التزاماتهم. فمنذ وقت طويل مضى الموعد المضروب لبدء الحملة، بينما لا يزالون عاجزين عن تسديد أجرة المراكب، التي أعدتها الجمهورية لهم في الموعد المحدد، وبالعدد المطلوب. لكن "ها هو الصيف يكاد ينصرم، ولا تزال المراكب راسية في الموانئ، مما يلحق الضرر الكبير بالدولة وتجارها. لقد أمضينا زهاء عام ونحن منكبون على صنع الأسطول لكم، فبذلنا كثيراً من الجهد، وأنفقنا الأموال الطائلة، دون أن نجني حتى الآن شيئاً، ولذا فإن شعبي يريد، وكذلك أنا، أن تسددوا لنا الديون، وليكن في علمكم أنكم لن تغادروا هذه الجزيرة قبل أن نحصل على ما لنا، والأكثر من هذا أنكم لن تعثروا على من يمكن أن يزودكم بالطعام والماء". بهذه العبارة أنهى الدوغ إنذاره، ثم عاد أدراجه إلى البندقية على متن جندوله.

لم يكن من عادة الدوغ أن يلقي الكلام جزافاً، فها قد توقف تزويد المعسكر بالطعام والماء.

راح الفرسان يضربون أخماساً بأسداس، يتشاورون ويتجادلون حول كيفية الخروج من هذا المأزق، لكن أياً منهم لم يستطع تقديم الاقتراح الناجع. وهنا راح البعض يحاول الهرب من الجزيرة، ولم تلبث ظاهرة الهرب والتفكير به أن تفشت بين الصليبيين، بعد أن وجدوا أنفسهم في وضع لا مخرج منه. وهنا ترددت الاقتراحات بالبحث عن المراكب في مكان آخر، لكن هذا يعني فسخ المعاهدة، المبرمة مع البندقية. كان يبدو أن الجيش على

شفا التفكك، وأن الحملة الصليبية ملاقية الفشل الذريع، وهي لا تـزال في بدايتها.

أصحاب المراكب وأسياد البحر الأدرياتيكي

ما إن وصلت مشاكل الصليبيين ذروتها، حتى قرر الدوغ أن الوقت قد حان لتخليصهم من الشباك، التي ألقاها هو نفسه عليهم، ولإلقـاء طـوق النجاة لهم، لانتشالهم من اللجة، التي قذفهم إليها بنفسه، سيما وأنه لم يبق لديهم من مال لابتزازه، وأن التأخير محفوف بالمخاطر، ففي حال تـشتت القوات، ستجد البندقية نفسها في موقف حرج، إذ لن يلبث البابا أن يتهمها بأنها وراء فشل الحملة الصليبية "مما سيجر علينا وعلى الدولة الكـثير مـن المشاكل"- هذا ما قال الدوغ لأعضاء المجلس الموسع، وكان الدوغ قد دعا المجلس إلى هذا الاجتماع لمناقشة خططه اللاحقة، سيما وأن بعض البندقيين، ممن ساهم في بناء الأسطول، بدأ يعرب عن استيائه، ويتهم الدوغ بأنه كلف الجمهورية نفقات طائلة، وقد تبين أن الصليبيين غير قادرين على التسديد، ثم إنهم، بهذا الجيش الكبير، المرابط غير بعيد عن البندقية، يشكلون خطـراً كبيراً عليها، سيما وأنه أصبح يكن لها العداء.

لكن جميع أصوات الاعتراض تلاشت، ما إن كشف الدوغ عن جوهر مشروعه أمام المجلس. ويكمن هذا الجوهر في ضرب عصفورين بحجر واحد: التخلص بسلاح الصليبيين من كبار منافسي البندقية في البحر الأدرياتيكي. والحصول على الديون المتبقية عندما تتكلل الحملة الصليبية بالنجاح.

أرسل الدوغ، بعد الحصول على موافقة الشيوخ، وفداً إلى بونيفاتسي في جزيرة ليدو، للمثول بين يديه. وقد عرض أصحاب المراكـب وأسـياد البحر الأدرياتيكي على قائد الصليبيين صفقة جديدة وفحواهـا تعـويض البندقية عما لحق بها بأسلوب الغنائم.

ثمة على الشاطئ المقابل، في دالماسيا السلافية، مدينة غنية هـي زادار، سكانها من اللصوص والقراصنة، الذين لا يكفون عن مضايقة البندقيـة في تجارتها، يغيرون على مراكبها، وينهبون ما تنقله مـن بـضائع. فليعمـل

الصليبيون المغاوير سيوفهم في سكان هذه المدينة اللصوص، وليستولوا على زادار لصالح البندقية. وفي حال قيامهم بذلك سوف يحصلون على مهلة جديدة لتسديد مبلغ الأربعة وثلاثين ألف مارك المتبقية، وتتابع الحملة الصليبية طريقها "وبمشيئة الرب نكون قد ربحنا نحن وأنتم". لم يجد الدوغ صعوبة في إقناع قائد الصليبيين، فقد كانت الفائدة واضحة جلية، حيث سيتمكن الصليبيون، ليس فقط من تسديد ديونهم للبندقية، بل ومن الحصول على نصف الغنائم، التي تنتظرهم في زادار.

صور الدوغ مدينة زادار للصليبيين على أنها وكر اللصوص والقراصنة، وزعم أنهم يجرون على البندقية مشاكل كثيرة. وفي الواقع لم تكن زادار سوى مدينة تجارية، ذات تحصين جيد. أما بالنسبة لأمور القرصنة، فلم يكن تجارها بأسوأ من تجار تلك الآونة، بمن فيهم تجار البندقية. وكل ما في الأمر أن تجار البندقية كانوا يتخوفون من تزايد نشاط زادار التجاري، مما يشكل منافسة كبيرة لهم، أضف إلى هذا أن المدينة كانت موضع خلاف قديم بين البندقية وهنغاريا. فقد سبق للبندقية أن استولت على زادار، لكنها لم تستطع الاحتفاظ بها، وما لبثت هنغاريا أن استعادتها، وعلى الرغم من أن الملك الهنغاري إيمري أعلن عن عزمه المشاركة في الحملة الصليبية، فإن ذلك لم يمنع داندولو من شن الحرب الصليبية ضد زادار، المهم التخلص من المنافس، وكل الوسائل هنا جيدة، شرط أن تكون ناجعة.

لم يحظ اقتراح البندقية، الذي حمله المركيز إلى الفرسان، بموافقة الجميع. ولقد أثار هذا الاقتراح لدى البعض الامتعاض والاستياء من تجار البندقية الماكرين، الذين أذاقوا الصليبيين مرارة الجوع والعطش، وهاهم أولاء يريدون تحويلهم إلى قوات من المرتزقة. إن الفرسان لم ينطلقوا في حملتهم من أجل محاربة أعداء البندقية. فهذا شأنها هي. أضف إلى هذا أن الأعيان المتدينين، رأوا في هذا العمل، كما يرى غونتير بيرس، أمراً غيرلائق، لا بل واعتبروه جريمة لأن ((مدينة زادار كانت مسيحية بسكانها، وتابعة للملك الهنغاري، الذي حمل الصليب، وبالتالي أصبحت كل ممتلكاته مشمولة بحماية الحبر، الأعظم كما هو معروف)). كما أعرب هؤلاء عن تخوفهم من

المصائب التي يمكن أن تحيق بالصليبيين، "إن هم أعملوا في أخوتهم المسيحيين قتلاً ونهباً وحرقاً، كما يحدث عند الاستيلاء على المدن". و لم يكتف هؤلاء الفرسان بالاعراب عن الاستياء، بل ورفضوا اقتراح الدوغ، ثم لم يلبثوا أن غادروا الجزيرة، عائدين إلى ديارهم، ومعهم "كثير من الفقراء، الذين لم يبق لديهم من المال إلا القليل، وأولئك الذين نفد ما لهم، و لم يبق لديهم ما يمكنهم من متابعة السفر".

أما بقية البارونات والفرسان، فقد وافقت على اقتراح الدوغ، ورأت فيه خلاصها. كان هؤلاء مستعدين للموافقة على أي شيء، المهم أن يتخلصوا هذه المصيدة اللعينة في ليدو والأهم من ذلك، أن يبدؤوا أخيراً الحرب والنهب، الهدف الرئيس، الذي من أجله تركوا ديارهم وذويهم.

كان صليبو الحملة الرابعة في معظمهم إقطاعيين نمطيين، لا يهمهم من ينهبون وأين ((المهم بالنسبة لهم هو أن يكسبوا)) وما هي أهمية التصورات الدينية للفرسان من أمثال رينودي مونميرايل والكونت إتيان بيرش أو هيوم دي فيرير وفيدام[1] شارتر، الذين لم يتورعوا قبل الحملة الصليبية عن نهب الأديرة، والإساءة إلى رجال الدين؟ حتى أنهم اضطروا، قبل المشاركة في الحملة، إلى إعلان التوبة أمام جموع المصلين في كنيسة مدينة شارتر عن ذنوبهم، التي اقترفوها بحق الرهبان. ولا ريب أن هؤلاء ظلوا على ما جبلوا عليه من الآثام والشر، و لم يغيرهم إعلان التوبة تحت سقف الكنيسة. رأى الصليبيون، إلا قلة منهم، قرار الدوغ مناسباً. ووافقوا على تسديد الدين للبندقية "عيناً"، أي عن طريق الاستيلاء على زادار لصالحها، سيما وأنه لم يكن أمامهم خيار آخر، فإن رفضوا جاءت الأضرار مزدوجة: فشل الحملة الصليبية من جهة، ومن جهة أخرى ضياع النقود، التي سبق أن دفعوها للبندقية، وهكذا، وعلى الرغم من الخلاف والجدل، فقد أبرمت الاتفاقية الجديدة، وتم التصديق عليها، ومن المحتمل أن المقاتلين العاديين لم يدركوا حقيقة ما يجري، "فالبارونات والأعيان الصليبيون هم من أجرى المفاوضات

[1] فيدام: لقب اقطاعي

مع البندقيين، وهم من أبرم الاتفاقية، أما الصليبيون العاديون فلم يبق لهم إلا أن ينفذوا ما تم الاتفاق عليه بين الكبار"- كما يقول روبيردي كلاري.

لكن داندولو قام بلفتة ذكية، بهدف إقناع جميع "الحجاج" بأهمية الاتفاقية، ووضع حد لتردد البعض، حيث أعلن في القداس الاحتفالي، بحضور العديد من "الحجاج" عن عزمه على تزعم الحملة الصليبية بنفسه، بقوله: "على الرغم من أنني بلغت من العمر عتيا، وبحاجة إلى الراحة الجسدية، وأعاني من أمراض بدنية كثيرة فإنني لا أرى أحداً بينكم بقادر على قيادتكم وتوجيهكم". وهنا تردد هتاف الحضور يعربون عن شكرهم وامتنانهم للدوغ، وراح كثيرون يرددون: ((هلا وافقت، بالله عليك، على ذلك، وانطلقت على رأسنا إلى هناك)). حينها ((نزل الدوغ عبر المنبر، وتوجه نحو المذبح، ثم ركع على ركبتيه، وأجهش بالبكاء، وأسرع أحدهم، فعلق له الصليب على قبعة من الورق، ورفعها عالياً، بحيث يتمكن الجميع من رؤية الصليب)).

"الرد المنافق"

ومما سهل على القادة الصليبيين القبول بمشروع داندولو أن البابا اينوقنتيوس الثالث بدوره، لم يعترض عليه كثيراً. وبعد أن نقل بونيفاتسي اقتراحات الدوغ إلى الفرسان، تقرر وضع روما في صورة ما يجري، تجنباً للتعقيدات، ومن باب اللياقة. فكيف سيرد الكرسي الرسولي؟ هل سيوافق على غزو زادار المسيحية، بغية تسديد الديون للبندقية، أم أنه سيؤجل الحملة الصليبية، ويسرح الجيش؟

لم يلبث الرد البابوي أن وصل. ففي تموز من عام ١٢٠٢ وصل الكاردينال بطرس كابوان، مبعوث البابا، حاملاً هذا الرد. وكما هي العادة فقد جاء رأي البابا على شكل عظة دينية، مفعمة بالرياء والنفاق. فمن جهة حظر إينوقنتيوس الثالث على الصليبيين الاعتداء على الأراضي المسيحية، إذ لم يكن بوسعه أن يبارك ذلك علناً، فيسيء إلى سمعة الكرسي الرسولي ومصداقيته. ومن جهة أخرى برر البابا في رده ارتكاب المعصية الصغرى

بهدف تحقيق الأعمال الكبرى، واعتبر أن ذلك ((أفضل من عدم الوفاء بنذر القيام بالحملة الصليبية، فيكون ذلك مدعاة للذنب والعار)).

لم يكن التوصل إلى الاستنتاج بالأمر الصعب: ما دام البابا ومبعوثه يقولان إن الحرب القادمة ضد المسلمين سوف تُكَفِّر تماماً عن المعصية الصغرى، فلا داعي للقلق وتضخيم الأمور.

وهكذا بارك البابا خطط البندقية القرصنية، بشكل خفي، وضحى عملياً بالمشاعر الدينية من أجل المصالح السياسية، وفيما يتعلق بالصليبيين فقد كانوا في أغلبهم على استعداد لشن الحرب على أي كان، المهم أن تبشر هذه الحرب بالغنائم الكبيرة.

"استمر هذا الاقتحام خمسة أيام"

أقلع أسطول الصليبيين من البندقية في أحد أيام تشرين الأول /الشهر العاشر/ الباردة. وفي منتصف تشرين الثاني /الحادي عشر/ تمكن، بعد معركة قصيرة، من قطع السلسلة المتينة. ودخول ميناء زادار. وقد هاجم الصليبيون المدينة ((بقوة كبيرة وضجة هائلة))، ولقوا مقاومة شرسة من قبل الحامية الهنغارية، والأهالي، إلى أن تمكنوا أخيراً من فتحها، "واستسلمت المدينة لدوغ البندقية، وأصبحت تحت رحمته".

نهبت زادار، ولم يتورع جنود المسيح عن نهب عدد من الكنائس. كان حجم الغنائم كبيراً، وقد دب الخلاف بين الفرنسيين والبندقيين على الفوز بنصيب الأسد. يقول بيلاردوين: ((كان النزاع كبيراً لدرجة أنه بالكاد تجد شارعاً خالياً من المشاجرات والمعارك الحقيقية، باستخدام السيوف والرماح والبلطات، مما أدى إلى جرح ومقتل كثيرين. صحيح أن بعض العقلاء حاول فض النزاع، وإصلاح ذات البين، لكن، ما إن يهدأ القتال هنا، حتى يشتد أواره هناك... كانت تلك من أكبر المصائب، التي سبق أن تعرض لها أي من الجيوش، حتى أن القوات الصليبية كادت تدمر، وتلقى الهلاك)).

أخيراً تم الاتفاق على تقسيم المدينة بين الطرفين: حيث حصل البندقيون على

القسم القريب من الميناء، بينما حصل الفرسان على النصف الآخر من المدينة.

وفىّ الصليبيون بتعهداتهم للبندقيين، وإن كانوا، كما يقول البابا، ((قد انحرفوا عن الطريق القويم))، لكن الجيش نجا، وأصبح الطريق لمتابعة الحملة مفتوحاً.

شكل فتح المدينة المسيحية في دالماسيا، ونهبها نذير شؤم لكل ما حدث بعد مرور أقل من عام ونصف.

لكن ماذا عن البابا؟ كيف تلقى نبأ ما حدث؟ ألم يتملكه الغضب من الصليبيين، الذين تطاولوا على ممتلكات الملك الهنغاري، المشمول بحماية القديس بطرس والحبر الأعظم، باعتباره مشاركاً في الحملة الصليبية؟

كما هي العادة جاء موقف البابا مرائياً، فقد أعرب عن أسفه لما حدث، واعتبر أن الصليبيين يستحقون أن يترل بهم العقاب الأقسى، أي الحرمان الكنسي، جزاء معصيتهم، لكنهم كانوا في وضع لم يستطيعوا فيه إلا أن ينصاعوا للضرورة. يكفي، تكفيراً لهم عما حدث، أن يلتزموا بتوجيهات البابا في كل شيء.

على هذا النحو رد البابا على سفراء الصليبيين، الذين جاءوه من زادار. فبعد أن عاقبهم بالحرمان الكنسي أضاف- حسب رواية بيلاردوين يقول: "إنه يمنح بركاته للبارونات والحجاج، ويغفر لهم هم أبناءه". ولكن البابا أبقى على الحرمان الكنسي ضد البندقيين، الكفار، غير أن هذا الابقاء كان شكلياً فقط. حيث ورد في رسالته إلى الصليبيين أن البندقيين، وإن حرموا من بركات الكنيسة جزاء ما اقترفوا، لكن هذا الحرمان لا يعني أن لا يعتمد جنود المسيح عليهم لاحقاً. فالهدف الأسمى -تحرير قبر الرب- يتطلب تضحيات كثيرة.

ذلكم كان فحوى رسالة هذا البابا، الذي وصفه أحد مدوني العصر الوسيط بقوله: ((كان واسع الذكاء، مفعماً بالصلاح... يحب عمل الخير والعدل، يكره النذالة والحقارة. وليس من باب المصادفة أنه يحمل لقب اينوقينتيوس الذي يعني "النزيه".

استولى الصليبيون على زادار في نهاية تشرين الثاني، الشهر الحادي عشر/ وكان المطر يهطل بشكل يومي، والبحر يموج ويصطخب، والرياح العاتية تعصف ليل نهار، وفي مثل هذه الظروف لم يعد التفكير في متابعة الحملة الصليبية وارداً.

نصب الصليبيون خيامهم غير بعيد عن زادار، وغطوها بالجلود، ثم راحوا ينتظرون قدوم الربيع. لكن الشتاء تطاول حتى بدا وكأنه ليس بمنته، وتفاقم الشعور بالملل والسأم في صفوف جنود الرب، وراحوا، وهم يشتمون البرد القارس، يأكلون ويشربون كل ما لديهم من مؤونة، ويقامرون على أنصبتهم من الغنائم، التي استولوا عليها في زادار. لكن أولئك المحركين لخيوط الحملة الصليبية لم يقفوا مكتوفي الأيدي، بل استمروا يعملون دون كلل. فمع بداية عام ١٢٠٣ وصل المعسكر الصليبي سفراء الملك الجرماني فيليب شوابس وولي العهد البيزنطي الكسيوس، يطلبون باسم هذا وذاك مساعدة الامبراطور المخلوع وولي عهده على استعادة عرش القسطنطينية السليب.

وبالطبع فقد وافق بونيفاتسي وداندولو على طلب السفراء الجرمان في الحال، فالأول إنما نصب على رأس الحملة من أجل توجيهها إلى القسطنطينية، والدوغ هو مهندس هذا المشروع، ومحرك خيوطه الرئيس. إذن بقي إقناع الأسياد الآخرين بالموافقة على ذلك. وقد فكر هؤلاء في الأمر ملياً، وناقشوه مطولاً، صحيح أن "إحقاق الحق" و"استعادة الشرعية" حجة مناسبة لتبرير تغيير وجهة الحملة من جديد، لكن الحملة إنما جردت لهدف آخر تماماً... حسناً وكم سيدفع ولي العهد البيزنطي لهم، إذا ما قدموا له الدعم اللازم؟ ورد السفراء الجرمان أن اليونانيين سيدفعون بسخاء لقاء هذه الخدمة. وأن الصليبيين سيحصلون على مبلغ ٢٠٠ ألف مارك فضة، أضف إلى ذلك أن إسحاق الثاني وولي عهده، ما إن يستعيدا العرش البيزنطي، حتى يقدما، الدعم للصليبيين في حربهم المقدسة من أجل القدس، ويزوداهم بالأسطول والمؤن، ويشاركا في الحملة بفرقة يونانية قوامها عشرة آلاف مقاتل. أسالت هذه الوعود المعسولة وخاصة مبلغ الـ ٢٠٠ ألف

مارك، لعاب القادة الصليبيين، وراح داندولو وبونيفاتسي يفركان أيديهما فرحاً، فالصليبيون سيتوجهون إلى القسطنطينية، وليس المهم أن يعاد الحق إلى نصابه، بل المهم أن خصم البندقية اللدود سيقهر، وتصبح أراضيه من نصيب حاملي لواء "إحقاق الحق".

في شهر شباط /الثاني/ أعدت وثائق الاتفاق حول شروط تقديم المساعدة للملكين البيزنطيين. وقد حملت الاتفاقية قرابة عشرين توقيعاً من كبار الأعيان الصليبيين، وعلى رأسهم المركيز بونيفاتسي، هذا بالإضافة إلى قادة الحملة الروحيين- أساقفة سواسون، تروا، غالبيرشتات وغيرها من المدن. وبدورهم وافق صغار الفرسان على الاتجاه الجديد للحملة، بعد أن ملوا حياة التبطل في المخيم، وأنفقوا كل ما غنموه في زادار من الذهب والفضة، فما المانع من الاستجابة لطلب اليونانيين، ومساعدة الامبراطور الشرعي في استعادة عرش القسطنطينية لقاء مكافأة مجزية؟ هذا بالإضافة إلى الفوائد الأخرى... وهكذا وافق الفرسان على ما ارتآه قادتهم، وهم في أغلبهم غير عابئين بالشعارات الدينية الرسمية للحملة. يقول المدون الجرماني من غالبيرشتات: بالتوسلات والأموال وافق جنود المسيح بالإجماع على دعم الأمير الشاب، صهر الملك فيليب، وعلى هذا صرفوا السفراء المذكورين". لكن المدون يجانب الصواب، فلم يكن ثمة إجماع بين الصليبيين، حيث عارض عدد من البارونات الانحراف عن الهدف بقوة، وهم يدركون إلى حد ما أن مكائد البندقيين وراء ذلك كله. فالسنيورات، أمثال سيمون دي مونفور، وأنفيران دي بوف، رفضوا أن يصبحوا أداة في أيدي البندقيين، وهكذا انفصل هؤلاء عن الجيش، وانطلقوا نحو الشرق مروراً بهنغاريا وإيطاليا. وعن رحيل البارونات والأسياد المنشقين يكتب بيلاردوين بحسرة، وبلهجة لا تخلو من اللوم: " شكل ذلك خسارة كبيرة للجيش، ووصمة عار على جبين من تصرف على هذا النحو".

في شهر نيسان /الشهر الرابع/ من عام ١٢٠٣ أقلع أسطول الصليبيين، ومع مطلع أيار رست قطعه عند شواطئ جزيرة كورفو، وبعد عدة أيام وصل إلى هنا ولي العهد الكسيوس يرافقه كل من المركيز بونيفاتسي

وداندولو. وكان هذا الأمير الطائش قد وقع على الاتفاقية. الـتي أبرمها سفراؤه مع الصليبيين، و لم يكتف بذلك، بل راح يوزع على قادة الصليبيين تعهدات خطية بإغداق العطايا عليهم، يعد هذا بـ ٩٠٠ مارك، وذاك بـ ٦٠٠، وقد جاءت هذه الوعود السخية فقضت على البقية الباقية من التردد، وزادت من تصميم كبار البارونات على الزحف على العاصمة البيزنطية.

لكن مشاعر الاستياء ظلت تعشش بين الفرسان وعدد من البارونات، الرافضين المشاركة في مثل هذا المشروع البالغ الخطورة. يقول بـيلاردوين: "لقد بدا لهم أن هذا الأمر سيطول كثيراً، هذا عداك عن أنه محفوف بالمخاطر"، ولذلك فهم يفضلون التخلي عن هذا المشروع، والتوجه نحو السواحل السورية مباشرة. وليحل اليونانيون مشاكلهم بأنفسهم. وقد حاول القادة إعادة هؤلاء إلى جادة الصواب، مؤكدين لهم أنهم سيقدمون لهم، بعد مرور أسبوعين من انتهاء موعد المعاهدة مع البندقية، (نهاية شهر أيلول/التاسع/ ١٢٠٣ الأسطول اللازم لنقلهم إلى سورية. و لم يكتف القادة بقطع الوعود، بل وقرنوها بالقسم على احترامها، "حينها شعر الجيش كله بسعادة عارمة" كما يقول المدون الفرنسي.

ساهم رجال الدين، إلى حد كبير، في تبني مشروع التوجه نحو بيزنطة، فحين سئل الأساقفة، كما يقول روبير دي كلاري، عما إذا كان التوجه على هناك إثماً، ردوا إلى ذلك من أعمال الخير، لأن من واجبهم ان يعيدوا للأمير حقه السليب، وينتقموا من أعدائه. لم يمض إلا حوالي شهر حتى نشر الأسطول البندقي أشرعته، وبعد الالتفاف حول جزر المورن وقطع جزيرتي إفبيو وأندرو، انطلق باتجاه الدردنيل، قاصداً القسطنطينية.

مع العدو وجهاً لوجه

تلقى الكسيوس الثالث الأنباء عن أن أسطولاً، يرفع الرايات الصليبية على صواريه، يتقدم باتجاه عاصمة إمبراطوريته، و لم يكن بالأمر الصعب تخمين المراد من ذلك، سيما وأن الامبراطور تلقى، منذ أقل من عام، رسالة

من البابا، تتضمن التهديدات الجديدة ولغرض في نفسه أحاط إينوقنتيوس الثالث الامبراطور البيزنطي علماً بمكائد الأمير الكسيوس والملك فيليب شوابس، وأخبره باتفاق الأمير مع الصليبيين، وبزيارته للبابا ومحاولته استمالة روما لمساعدة أبيه في استعادة عرشه. لقد أراد البابا، باطلاع الكسيوس الثالث على حقيقة ما يحاك ضده، أن يفكر في الأمر ملياً، ملمحاً إلى وجود مخرج مضمون من هذا المأزق- يكفي أن تصبح الكنيسة اليونانية تحت رئاسة الكنيسة الرومانية، وإلا فقد يسبق السيف العزل.

غير أن الكسيوس الثالث بدا وكأنه لا يرى الخطر المحدق به. صحيح أنه أمر، بعد سماعه بسقوط زادار في يد اللاتين، "بإصلاح عشرين مركباً تالفاً، مليئاً بالديدان"- كما يقول المؤرخ البيزنطي نيكيتا هوينات-، وعلى هذا اقتصرت كل الاستعدادات العسكرية البيزنطية. كانت تلك فترة أزمة داخلية عميقة تعصف بالدولة البيزنطية. ففي كل أرجائها، في المدن والضياع، كان مرجل غضب الفقراء واستيائهم من الأعيان والموظفين، الذين لا هم لهم إلا نهب الشعب، في غليان دائم، وكان الأرستقراطيون في نزاع مستمر على السلطة، وكثر المطالبون بالعرش الامبراطوري، وراح هؤلاء يحاولون استمالة البسطاء إلى جانبهم، بإغداق الوعود عليهم (تقليص الضرائب، وضع حد للرشاوى، تخفيض سعر الخبز، إلى غير ذلك من الاصلاحات)، وفي بعض الحالات استطاع عدد من هؤلاء الأرستقراطيين الحصول على دعم وتأييد الشعب البسيط، لكن الشعب لم يلبث أن تصدى لهم، بعد أن أدرك أنهم لا يقلون سوءاً عن أولئك المتربعين على العرش.

ثم إن حركات العصيان كانت لا تكف تندلع في العاصمة نفسها، أما المشاركون فيها فهم الصناع والصيادون والبحارة. وكثرت في القسطنطينية حوادث اقتحام العصاة لأحياء الأعيان، ونهب منازل الأغنياء، وإتلاف قوائم الجباة. وفي هذا الجو المضطرب، راح وضع الكسيوس الثالث والأوساط الحاكمة ككل، يسير من سيء إلى أسوأ.

فالأرستقراطيون، الذين يشغلون أعلى المناصب في البلاد، لم يكونوا يهتمون إلا بأقصر السبل وأنجعها للإثراء على حساب خزينة الدولة، التي كانوا يعتبرونها ملكاً لهم.

لم يكن الكسيوس الثالث يقل عن كبار أعيانه انصرافاً إلى اللهو والتسلية، فلا يكف عن إحياء المآدب وإقامة عروض السيرك، دون أن يهتم بأمور الدولة، فما الداعي لذلك إذا كان كل شيء سينهار، إن لم يكن اليوم، فغداً؟ وحسب رواية نيكيتا خوبيات كان الامبراطور "يوقع أية ورقة تقدم له، ولو كانت مجرد كلام لا معنى له، حتى لو تضمنت أن تبحر المراكب على اليابسة، وأن يحرث البحر، وأن تنقل الجبال إلى عرض البحار"، وقد حذا كبار الموظفين حذوه، وكانوا على استعداد لاقتراف أية جريمة لقاء الحصول على الرشاوى.

أصبحت الامبراطورية البيزنطية مع بداية القرن الثالث عشر في غاية الضعف، فمن عام إلى عام راحت تتقلص عائدات الخزينة، ويزداد الفقراء فقراً، ويثقل كاهل الصناعيين بالضرائب وابتزاز الجباة، وبدورهم كان التجار القسطنطينيون يقاسون الأمرين، بسبب سيطرة التجار الأجانب، ذوي الامتيازات الكبيرة، هذا عداك عن عجز الدولة عن دفع الأموال لجيش المرتزقة الكبير، مما جعل قوة الامبراطورية الحربية تميل إلى التدهور.

وكان الأسطول البيزنطي في حالة يرثى لها، بعد أن نهب قائده ميخائيل ستريفنا، أحد أقارب الكسيوس الثالث، الأخضر واليابس في هذا الأسطول، أما الاجراءات التي أوعز الكسيوس الثالث باتخاذها، بعد سقوط زادار، فلم تحسن من وضع بيزنطة في البحر.

ثم إن وضعها في البر لم يكن بأفضل حال، فقد أغرق الكسيوس الثالث البلاد بالحروب، تارة مع البلغار وأخرى مع السلجوقيين، وهي حروب فاشلة. تحتاج إلى الكثير من الأموال. ومع بدء اقتراب الصليبيين من القسطنطينية، أصدر الامبراطور أوامره برفد صفوف الجيش بمرتزقة جدد. لكن هل يمكن الاعتماد بشكل جدي على من يقاتل بالأجرة، وغير الواثق من أنه سيحصل عليها؟

وهكذا أضعفت الفتن الدولة البيزنطية، وازدادت كراهية الجماهير لحكامها، أما حكامها فلم يكن لديهم من يعتمدون عليه، لا في العاصمة ولا خارجها. تلكم كان الوضع الداخلي لبيزنطة عشية زحف الصليبيين على عاصمتها.

"هاكم اسمعوا عن المعجزات الربانية".

في الأيام الأخيرة من حزيران ١٢٠٣ وصل أسطول الصليبيين مشارف القسطنطينية، وما إن بدت معالم العاصمة البيزنطية للعيان، حتى تجمع الفرسان وحملة السلاح والأسياد وأتباعهم على أسطح المراكب، يتفرجون على معالم المدينة الأسطورية، الممتدة في البحر على شكل مثلث. لم يكن ما رآه جنود الرب يخطر لهم حتى في الأحلام، فالمدن الغربية آنذاك كانت مجرد قرى كبيرة، بالمقارنة مع هذه المدينة العملاقة. وفي أحسن الحالات لم يكن عدد سكان أكبر المدن في أوربا الغربية يزيد على ٢٠-٢٥ ألفاً، بينما تجاوز عدد سكان القسطنطينية المئة ألف. أما مساحتها فتصل إلى حوالي خمس مساحة باريس الحالية. شاهد الفرسان أمامهم الكثير من البيوت والقصور المرمرية، والمعابد العالية، ذات القباب الذهبية، تعلوها الصلبان، التي تلمع تحت ضوء الشمس الساطع. يقول بيلاردوين: "راح الصليبيون يتفحصون القسطنطينية، وقد عقدت لسانهم الدهشة مما يرون، ولم يخطر لهم ببال وجود مدينة بهذا الغنى في الدنيا--- ولم يكن أي منهم يتصور وجود مدينة بهذا العرض والطول، فلا غرابة أنها كانت أم المدن---" كما رأى جنود المسيح أيضاً الأسوار العالية والأبراج الحصينة، التي تزنر العاصمة من كل الجهات، وأدركوا أن دخولها وتنصيب الأمير وأبيه على العرش لن يكون بالأمر السهل. ورأى الصليبيون الخليج الطويل الضيق والعميق، الذي يمتد عبر اليابسة، ويبدو وكأنه يشطر العاصمة شطرين. ذلكم هو خليج القرن الذهبي، الذي تقوم على أحد شاطئيه ضاحيتا بيرا وغلطة، بينما يقوم على الشاطئ الآخر الجزء الرئيس من المدينة . والأسوار شاهقة فعلاً. فهناك في الخلف، في الشمال الغربي، يمتد سور طويل، يعود بناؤه إلى عهد الامبراطور

ثيودوسيوس، ويصل هذا السور إلى القرن الذهبي مباشـرة، فيحـول دون دخول المدينة من البر. أما الأسوار الأقرب، ذات الأبراج العديدة، فتحمي المدينة من الجنوب والشمال الشرقي، أي من جهة البحر.

كان الأسطول يسير والشاطئ الآسيوي للبوسفور، مـع توقـف في خلقيدونيا ومن ثم في سكوتاري، على بعد عدة كيلو مترات من العاصمة.

غداة رسو مراكب الصليبيين، وصل، معسكرهم مبعوث الكـسيوس الثالث، المدعو نيقولو روسّي، وهو من أصل لمبـاردي، لكنـه يعـيش في القسطنطينية منذ عهد بعيد. حمل المبعوث إلى الصليبيين الوعود الامبراطورية المغرية جداً، وغير المحددة، إلى جانب التهديدات الجوفاء المحددة هذه المـرة. وفحواها هو التالي: إذا ما انطلق الصليبيون إلى الأرض المقدسة، في الحال، فإن الامبراطور مستعد لتقديم المعونة والدعم لهم، أما إذا كانوا قد رسوا في بلاده، وهم يبيتون النوايا السيئة، فإنه سوف يدمرهم عن بكرة أبيهم.

ما إن سمع البارونات أقوال المبعوث حتى قدموا مطالبهم الحاسمـة: أن يتخلى الكسيوس الثالث عن السلطة للامبراطور الشرعي، وإلا كانت العاقبة وخيمة له. حمل نيقولو روسّي هذا الرد، وعاد إلى القسطنطينية. ظن قـادة الصليبيين بسذاجة أن سكان العاصمة ينتظرون ولي العهد على أحر الجمر، ولذا قرروا مخاطبة الأهالي مباشرة، وعرض ولي العهد أمامهم، لكي يروه بأم أعينهم، علهم بذلك يثيرون حماستهم، ويحصلون على دعمهم في "إحقـاق الحق". وكما يقول بيلاردوين، فقد تقدمت المراكب الصليبية، واقتربت من أسوار القسطنطينية. وفي طليعتها مركب بلون قرمزي فاتح، إنه مركـب داندولو، الذي يحمل على متنه، بالإضافة إلى الدوغ، كلاً من بونيفاتـسي والأمير ألكسيوس. وقد راح هذا الأخير، ما إن اقترب المركب من الأسوار، يلوح بيده للأهالي، ظناً منه أن أهالي عاصمته سيستقبلونه بالأحضان. لكن أحداً لم يرد على تحيات الشاب، لا بل إن وابلاً من الحجارة راح ينـهمر على المركب القرمزي، فقد كان الأهالي غير مبالين بهوية الامبراطور، الذي يحكمهم، ولذا فما إن تناهى إلى أسماعهم صوت المنادين من علـى مـتن

مركب داندولو "هاهو ذا حاكمكم الحقيقي" حتى رد اليونانيون بقولهم: "إننا لا نعرفه، ولا نريد أن نعرفه".

لم يلبث الصليبيون أن شنوا الهجوم على العاصمة البيزنطية. ففي الخامس من تموز /٥/٧/ من عام ١٢٠٣ حركوا أسطولهم نحو الشاطيء الآسيوي للبوسفور، لدخول القرن الذهبي.

لكن ما هذا؟ هناك سلسلة حديدية طويلة تحول دون دخول الخليج، هل يعتقد الكسيوس الثالث أنه بهذه السلسلة قادر على وقف تقدم المراكب؟ يا له من مانع تافه، فها هو المركب الثقيل، المعروف باسم "النسر" يقطع السلسلة، بعد أن تم اكتشاف عدة حلقات ضعيفة فيها. وبكل سهولة تمكن البندقيون من إغراق أو أسر المراكب، التي خرجت للتصدي لهم.

اندفع الأسطول الصليبي باتجاه واحد من الموانع الرئيسة- البرج العالي على الشاطئ الشمالي للقرن الذهبي، نحو غلطة، حيث يتمركز المرتزقة البيزنطيون(الإنجليون، الدانماركيون وغيرهم) المستعدون لخوض المعركة، والبلطات المزدوجة الحدين تلمع في أيديهم.

مع اقتراب المراكب من الشاطئ راح المشاة يقفزون إلى الماء، بسلاحهم، ثم يخرجون إلى اليابسة، و لم تلبث خيالة الفرسان أن حذت حذو المشاة. وبعد معركة قصيرة سقط برج غلطة في السادس من تموز، والواقع أن قوات الامبراطور لم تخض غمار أية معركة، بل سارعت إلى الاحتماء خلف الأسوار. أما الكسيوس الثالث فقد "عاد إلى القسطنطينية، تاركاً خيامه، وفيها عثر مقاتلونا على الكثير من الغنائم".

قبيل الهجوم على برج غلطة قسم مجلس البارونات الجيش (وقوامه ١٠ آلاف مقاتل) إلى سبع فرق. وبعد الاستيلاء عليه تقرر أن يهاجم الفرسان والمشاة المدينة من البر، بينما يهاجم البندقيون الأسوار من البحر.

على مدى عشرة أيام، من سقوط برج غلطة، استمر الصليبيون والبندقيون في الاستعداد للمعركة الفاصلة، ، التي اندلعت في ١٧ تموز، وكانت النجاحات الأولى من نصيب البندقيين، فما إن اقتربت مراكبهم من التحصينات المعادية حتى بدأوا عملية الإنزال، وكان الدوغ أول النازلين.

و لم يلبث المقاتلون أن حذوا حذوه، وتمكن عدد منهم من تسلق الأسوار والاستيلاء على ما يزيد عن عشرين برجاً، وأصبحوا داخل المدينة، لكن حلاوة النصر لم تستمر طويلاً. فعددهم قليل جداً، مما اضطرهم إلى التراجع، تحت ضغط مرتزقة الامبراطور. ومن أجل قطع الطريق أمام المرتزقة، أضرم المهاجمون النار في البيوت المجاورة، فامتدت ألسنتها إلى الأحياء القريبة، والتهمت، بشهادة روبير دي كلاري، جزءاً من المدينة، يعادل، من حيث حجمه، أراس الفرنسية.

هنا زج الكسيوس الثالث بقواته الاحتياطية، الكبيرة نسبياً في المعركة. وقد تدفقت هذه القوات من بوابات المدينة الغربية الثلاث بأعداد هائلة، وتمركزت، خيالة ومشاة، في مواجهة الفرسان، الذين استبد بهم الخوف، إذ لم يكن عددهم يتجاوز السبعمائة فارس من الخيالة.

وقف الجيشان في مواجهة بعضهما، لا يفصل بينهما سوى شريط ضيق من الأرض، وراح المقاتلون ينتظرون وكأن على رؤوسهم الطير. وفجأة حدث ما لم يكن في الحسبان، فها هو جيش الكسيوس الثالث يتراجع، قبل أن تندلع المعركة. وقف الفرسان في حيرة يتساءلون عما جرى للبيزنطيين، وهل ما يرونه مناورة ماكرة، أم خطة مدبرة لاصطيادهم.

لكن ذلك لم يكن مناورة ولا خطة، كل ما في الأمر أن الامبراطور قرر في اللحظة الأخيرة سحب قواته إلى المدينة، بعد أن اتضح له أن هؤلاء المرتزقة، غير المأمونين، عاجزون عن حماية عرشه المتهاوي، فهم غير متحمسين للقتال. وحدهم البيزيون كانوا مستعدين لتقديم الدعم لألكسيوس الثالث، اعترافاً له بالجميل، على ما منحهم من امتيازات منذ عدة سنوات، نكاية بخصومهم البندقيين، لكن هؤلاء وحدهم غير قادرين على الصمود في وجه الأعداء. أضف إلى ذلك الخطر، الذي بدأ يتفاقم في مؤخرة جيش الامبراطور، حيث بدأ أهالي العاصمة الفقراء يستعدون لصب مرجل غضبهم المكبوت على الطاغية وزمرته. وما إن أدرك الكسيوس الثالث أن وضعه ميؤوس منه، حتى غادر العاصمة خفية، تاركاً وراءه

عائلته، وفر، برفقة ابنته الكبرى، إلى تراقيا، و لم ينس أن يأخذ من الخزينة كل ما استطاع إلى حمله سبيلاً.

في الوقت الذي كانت فيه قوات الفرسان تضع الاحتمالات المختلفة لانسحاب الكسيوس الثالث، وتجهل ماذا يدور، لم يكن القسطنطينيون يقفون مكتوفي الأيدي. فقد سارع رجال البلاط، الذين اعتادوا مختلف أشكال الانقلابات السياسية، إلى إخراج إسحاق الثاني الأعمى من السجن، ظناً منهم، وهم الخائفون على ثرواتهم ومناصبهم، أن إعادة الامبراطور الشرعي إلى العرش كما يطلب اللاتين، كفيلة بإنقاذ البلاد من الخطر الداهم، فالصليبيون إنما جاءوا القسطنطينية، كما يزعمون، من أجل إنصاف الامبراطور وولي عهده.

في ١٨ تموز ١٢٠٣ اقتيد إسحاق الثاني، تواكبه ثلة من حرس الشرف، إلى قصر بلاشير، وأرسل المبعوثون إلى معسكر الصليبيين، حاملين نبأ فرار الامبراطور الكسيوس، وإعادة تنصيب الامبراطور الشرعي.

ولا تسل عن مشاعر الفرح، التي عصفت بالصليبيين، ما إن عرفوا جلية الأمر، وفي وصف ما حدث كتب بيلاردوين يقول: "تلكم كانت إحدى معجزات الرب التي يرسلها إلى حيث يريد". كان المدون يؤمن إيماناً مطلقاً أن مشيئة الرب وراء تغير الوضع بغتة لصالح الصليبيين. لكن الواقع أن ما حدث صيف ١٢٠٣ بين الصليبيين والبيزنطيين جاء نتيجة ضعف الامبراطورية الداخلي.

وهكذا لم يبق أمام الصليبيين من عدو يوجهون سيوفهم وحرابهم نحوه، وبدا وكأنهم حققوا الهدف، الذي جاءوا من أجله، فقد أعيد الحق إلى نصابه، واسترد الامبراطور عرشه الشرعي. لكن هذا ما بدا للوهلة الأولى، أما في الحقيقة فقد كانت لديهم أهداف أخرى غير معلنة.

"لسوف نحصل على حقوقنا".

قبل كل شيء لا بد من الحصول من الامبراطور الجديد على ما تم الاتفاق عليه مع ابنه الكسيوس. وهكذا أرسل الصليبيون إلى المدينة وفد سفارتهم(وفي عدادها جوفروا بيلاردوين) للتفاوض مع إسحاق الثاني حول تثبيت المعاهدة، التي تحمل توقيع ولي العهد. أدرك إسحاق الثاني، الأعمى البصر، لا البصيرة، أن ابنه بالغ كثيراً، حين التزم بدفع ٢٠٠ ألف مارك فضة لحماته الغربيين، فخزينة الدولة، التي تكاد تنضب، عاجزة عن تسديد هذا المبلغ الضخم. ولذا فقد جاء رد إسحاق الثاني على السفراء مبطناً بالتهكم، وإن كان في منتهى الدبلوماسية: إن شروط المعاهدة "ثقيلة، ولست أدري كيف يمكن تنفيذها، ومع هذا فقد قدمتم لي ولولي العهد خدمة جليلية "لو أعطيناكم الامبراطورية كلها، إذن لما وفيناكم حقكم". أخيراً عاد السفراء إلى المعسكر، بعد أن حصلوا من الامبراطور على الوثيقة، التي تثبت معاهدتهم مع ابنه.

أقام الصليبيون، وعددهم يقارب العشرة آلاف، في معسكر في غلطة، غير بعيد عن العاصمة، وراحوا يترددون بالمئات على المدينة باستمرار لمشاهدة قصورها الغنية وكنائسها البديعة، وكنوزها العظيمة-، التي لا مثيل لها في العالم-".

في آب ١٢٠٣ توج ولي العهد الكسيوس امبراطوراً ليحكم إلى جانب أبيه إسحاق الثاني، وقد تمكن من إقناع والده ببدء تسديد الديون للصليبيين. لم تخف نوايا الصليبيين الحقيقية على بلاط القسطنطينية، صحيح أن إسحاق الثاني اضطر للمصادقة على التزامات ابنه، لكن إعطاء الوعود أسهل بكثير من تنفيذها. فالخزينة شبه خاوية. ومن اجل الحصول على المال عمد إسحاق الثاني والكسيوس الرابع (هكذا أصبح اسم الأمير بعد التتويج) إلى فرض الضرائب الجديدة، ومصادرة المجوهرات لدى قسم من الأعيان، وانتزاع المواد الذهبية من القصور، لا بل إنهما تطاولا على الكنوز الكنسية، وعلى الرغم من كل ما بذلاه من جهد، وما اتخذاه من إجراءات، لم يتمكنا

من جمع أكثر من ١٠٠ ألف مارك، أي نصف المكافأة، التي وعد بها البندقيون والفرسان لقاء خدماتهم، ووجدا نفسيهما عاجزين عن تسديد النصف المتبقي، فراحا يحاولان تهدئة خواطر منقذيهما.

بدأ الكسيوس الرابع، الذي أصبح يتمتع بالسلطة الفعلية، (لم يعد أبوه الأعمى يلعب أي دور في تسيير شؤون البلاد، وانصرف إلى مجالسة المنجمين والرهبان) يجوب القرى والمدن التراقية القريبة، برفقة الكوكبات الصليبية، يعيثون فيها فساداً، وينهبون خيراتها. ساعدت هذه الاجراءات إلى حين. واستطاع الكسيوس الرابع بتملقه وتزلفه أن يكسب عدة أسابيع، لكن الصليبيين ما لبثوا أن بدأوا يعربون عن استيائهم من هذه المماطلة والتسويف. فإلى متى سيبقون هنا يتفرجون على معالم القسطنطينية؟ ولم يلبث الفرسان أن بدأوا عمليات النهب، بعد أن خاب أملهم في الامبراطورين الأب والابن، ولم تلبث العلاقات بين "المنقذين" وسكان العاصمة وضواحيها اليونانيين، أن بدأت تتوتر، وراح هذا التوتر يتفاقم، ويزداد منذراً بأوخم العواقب.

إذا كانت أحداث البلاط (هروب الكسيوس الثالث، عودة إسحاق الثاني إلى عرشه، تتويج ابنه علي العرش إلى جانبه) لم تحظ باهتمام يذكر من جانب الأهالي، باعتبارها أموراً تخص الأعيان، فإن تفاقم طلبات جباة الضرائب بدأ يثير الاستياء في صفوفهم.

ثم إن الحرفيين والتجار اليونانيين كانوا حاقدين على البندقيين، الذين يسلبونهم مداخيلهم، وها هم أولاء قد أحضروا على مراكبهم هذه الجيوش الجرارة من "البرابرة"، التي ترتكب الفظائع، ولا تتورع عن نهب معابد القسطنطينية. وفي نهاية آب تشاجر بعض الصليبيين مع عدد من اليونانيين، الذين حاولوا إنقاذ أحد المسلمين من بين أيدي الفرسان، بعد أن اعتدوا عليه قرب أحد المساجد في الشطر الشرقي من المدينة. وفي سورة جنونهم عمد جنود الصليب إلى إضرام النار في المسجد، فاندلع حريق هائل، استمر قرابة الأسبوع، وامتدت ألسنته إلى الحي الأغنى، فوصلت القرن الذهبي، مما أدى إلى تدمير نصف المنازل تقريباً، وكادت كنيسة آيا صوفيا، الأكبر في

العاصمة، أن تذهب طعما للنيران، كما فقد الكثيرون من سكان الشطر الشرقي من المدينة بيوتهم. يقول بولدوين: "ليس بوسع أحد أن يعرف حجم الضرر، الذي ألحقه الحريق، ولا أن يحدد كمية ما التهمت النار من أملاك وخيرات، ولا أن يحدثك عن كثيرين من الرجال والنساء والأطفال، الذين راحوا طعماً للنيران".

أخيراً، وبعد أن طفح الكيل، نفد صبر الفئات الدنيا من الأهالي، "هاجوا وماجوا- كما يقول نيكيتا خونيات- كما البحر في الطقس العاصف"، وراحوا يهددون بالتمرد والعصيان. ولم يلبث استياء الشعب أن تفاقم، وراح يتجه بالدرجة الأولى نحو التجار الغربيين. وبعد حريق شهر آب المذكور، اضطر جميع السكان اللاتين تقريباً، وعددهم يقرب من خمسة عشر ألفاً، إلى الانتقال إلى معسكر أخوتهم في المذهب الكاثوليكي.

وجد الكسيوس الرابع نفسه بين نارين، نار الصليبيين والبندقيين المطالبين بالذهب، ونار اليونانيين، المستائين والذي يوشك استياؤهم أن يتحول إلى عصيان. لكن طيشه وقصر نظره جعلاه يحاول في البداية الاعتماد على دعم الصليبيين، فقد تمكن من إقناعهم بالبقاء في القسطنطينية حتى آذار من العام القادم، ومن ثم راح يميل إلى قلب ظهر المجن لهم، ظناً أن ذلك ينقذه من لهيب النار الأخرى. لكن صبر الصليبيين أيضاً لم يلبث أن نفد، وحل اليوم، الذي لم يعودوا يقبلون فيه تأجيل موعد تسديد ديونهم.

في شهر تشرين الثاني /العاشر/ من عام ١٢٠٣ عاد الكسيوس الرابع إلى القسطنطينية، بعد شن غارة جديدة على سكان تراقيا، لكنه، على غير عادته، لم يكلف نفسه عناء القيام بزيارة الصليبيين. وعندها جاء قصر بلاشير وفد يضم بيلاردوين وكونون بوتيون والفارس ميلون دي برابانت عن الصليبيين وثلاثة من البندقيين. وقف كونون بوتيون أمام إسحاق والكسيوس الرابع، المتربعين على العرش الذهبي، وأعلن بصوت عال أن كل مواعيد تسديد الديون قد انتهت: "لم تنفذوا كما يجب... إذا ما قمتم بذلك فإن كل الأمور ستصبح على ما يرام، وإن لم تفعلوا فإن البارونات لن

يعتبروكم من الآن فصاعدا لا سادة ولا أصدقاء، وسوف يحاولون الحصول على حقوقهم بالأساليب التي يروها مناسبة".

أثار كلام اللاتيني الوقح دهشة اليونانيين الحاضرين وامتعاضهم، فلم يسبق لأحد أن تجاسر على مخاطبة الأباطرة البيزنطيين بمثل هذه الوقاحة. وقد هم الحراس بإلقاء القبض على السفراء، لكن هؤلاء سارعوا إلى مغادرة القصر، ولم يتنفسوا الصعداء، كما يقول بيلاردوين، إلا حين امتطوا صهوات جيادهم، وانطلقوا نحو المعسكر.

أصبح واضحاً للبارونات الآن أن الكسيوس الرابع لاينوي تنفيذ شروط المعاهدة، التي وقعها معهم في ضواحي زادار، وحينها تجاوز غضب الصليبيين والبندقيين كل الحدود، وزعق العجوز داندولو، ذات مرة في مجلس البارونات، يقول: "هكذا إذن! لقد انتشلنا هذا الفتى من الوحل، أما الآن فإنه يتبرأ منا، ويرفض أن يعيد لنا نفقاتنا. حسناً، انتظر، أضاف، كأنه يخاطب ألكسيوس الرابع، لسوف نتمكن من رميك في الوحل من جديد".

منذ تلك اللحظة تداعى التحالف بين الصليبيين والامبراطورين، ليحل محله العداء السافر، "وراح كل من الطرفين يحاول وسعه إلحاق الأذى بالآخر، إن في البحر أو البر". وفي الأول من شهر كانون الثاني/ الشهر الأول/ من عام ١٢٠٤ أعدت، بأوامر من أحد مستشاري الكسيوس الرابع، المعروف بعدائه للاتين، سبعة عشر طوفاً مزودة بالأشرعة ومحملة بالأخشاب والأغصان والقطران، أُشعلت بها النيران ثم أنزلت إلى الماء، ودفعت باتجاه الأسطول البندقي. وكادت هذه الأطواف، تدفعها الرياح، أن تحرق مراكب الصليبيين، الراسية في الجزء الشمالي من الخليج. لكن البندقيين تصرفوا بذكاء وفطنة، وأمسكوا بهذه المحارق العائمة، ثم جروها بوساطة خطاطيف إلى عرض البحر، فنجوا من الخطر، ولا تسل عن ردة فعل الصليبيين على هذا العمل، فقد راحوا يعيثون فساداً في العاصمة البيزنطية، ولم يعودوا يراعون الشكليات في سلوكهم، وأصبح النهب والسطو والمشاجرات والاشتباكات مع اليونانيين ظاهرة يومية. لقد صمم الفرسان على الحصول على حقوقهم عنوة.

الامبراطور المقطب الحاجبين

تفاقم سخط فقراء العاصمة من سياسة الكسيوس الرابع، وراح يزداد علنية وسفوراً ضد هذه السياسة القائمة على استتراف خيرات الشعب لتسديد ديونه للصليبيين. وفي نهاية شهر كانون الثاني الأول من ١٢٠٤ اندلع العصيان في القسطنطينية، واندفعت الجماهير الغاضبة نحو قصر بلاشير.

وإزاء هذا الخطر الداهم، أرسل الكسيوس الرابع الرسل على عجل إلى قادة القوات الصليبية، متوسلاً إليهم أن يدخلوا العاصمة بقواتهم. لكن هؤلاء القادة لم يرغبوا أن يحاربوا من جديد لصالح من خدعهم، ونكث بعهوده ووعوده. أضف إلى ذلك أن المبعوثين وصلوا جداص متأخرين جداً.

فما إن عرف رجال البلاط أن الكسيوس الرابع استنجد باللاتين. حتى سارعوا إلى إفشال نواياه يقينا منهم أن الصليبيين، إذا ما جاءوا لقمع عصيان الغوغاء، سوف يلحقون الضرر بهم وبغية استباق الأحداث نظم عدد من كبار الأعيان انقلاباً جديداً، ففي الخامس من شهر شباط / الشهر الثاني/١٢٠٤ خلعوا إسحاق الثاني وابنه الكسيوس الرابع عن العرش، ونصبوا الكسيوس الخامس مكانهما. كان الامبراطور الجديد واحداً من الأعيان البارزين، من أسرة دوك، وصهراً لألكسيوس الثالث. أطلق عليه رجالات البلاط لقب مورتسوفل، وتعني باليونانية "المقطب، العابس، المتجهم"، بسبب ميل حاجبيه، مما جعله يبدو وكأنه عابس باستمرار. ولم يكن اختياره امبراطوراً جديداً من باب المصادفة، إذ كان صاحب المبادرة في القيام بالانقلاب، والمستشار الأقرب لألكسيوس الرابع، فهو من أوفده الأخير سفيراً إلى الصليبيين، وهو من أطلع الأعيان لاحقاً على فحوى المفاوضات بين الامبراطور واللاتين. والواقع أن الكسيوس الخامس لم يكن يقل مكراً وتعطشاً للسلطة عمن سبقه من الأباطرة. ولم يكد يعتلي العرش حتى أمر بزج إسحاق الثاني وابنه في السجن. وبعد مرور بعض الوقت حاول مرتين دس السم لألكسيوس الرابع، ولما فشل في ذلك أوعز للجلادين بخنقه. أما إسحاق الثاني فلم يتحمل هول ما أصابه، وقضى بعد موت ابنه

بفترة قصيرة، وحين وصل نبأ موتهما إلى الصليبيين أدرك هؤلاء أنهم لن يستطيعوا تحصيل حقوقهم بعد الآن إلا بحد السيف، وقد أصبح ذلك جلياً حين جاءهم وفد من لدن الامبراطور الجديد يعطيهم مهلة أسبوع واحد لمغادرة البلاد بسلام.

لم تكن عجرفة وغطرسة مورتسوفل تقومان على أساس متين، صحيح أنه تمكن من قمع تمرد الشعب ضد الأعيان. فبعد الاطاحة بالامبراطور وابنه تفاقم استياء سكان العاصمة مما يجري في القصر الامبراطوري، فاندفعوا على كاتدرائية أيا صوفيا، حيث نصبوا نيقولا كاناف، امبراطوراً جديداً. لكن كاناف، وهو مقاتل يوناني بسيط، لم يحمل هذا اللقب سوى ثلاثة أيام، فقد تمكن الكسيوس الخامس من اعتقال كاناف وقمع التمرد، لكن هذا النجاح لم يكن كافياً لأن يعتبر أن وضعه قد تحسن تماماً، فيوجه للصليبيين مثل هذا الإنذار القاطع.

جرب الامبراطور المتحمس والنشيط أن يتصدى للعدو في الحال. وهكذا، فما إن عرف أن فرقة كبيرة من المقاتلين الصليبيين، تحت قيادة هنرى دي إينو، غادرت المعسكر باتجاه ساحل البحر الأسود للتزود بالمؤن، بعد أن أوشكت على النفاد، حتى قرر نصب كمين للفرسان والانقضاض عليهم في طريق عودتهم. لكنه كاد هو نفسه أن يقع في الأسر، أثناء الاشتباك مع الصليبيين، واضطر إلى الفرار، تاركاً بين أيدي الأعداء شاراته الامبراطورية وإيقونة العذراء، التي يجلها اليونانيون كثيراً.

وعلى الرغم من هذا الفشل الذريع فإن الكسيوس الخامس لم يتخل عن نواياه، وقرر تجهيز العاصمة للتصدي للأعداء.

رحب مقاتلو حامية العاصمة بالوعود بقرب دفع أجورهم المتأخرة، وبدأت عملية إصلاح التحصينات: ترميم البوابات، زيادة ارتفاع الأبراج والأسوار المطلة على الميناء، ووجه الامبراطور نداء إلى الأهالي، يهيب بهم فيه أن يتكاتفوا للتصدي لقوات الغزاة الغربيين. لكن تنفيذ كل هذه التدابير بدا في غاية الصعوبة، فالمرتزقة لم يصدقوا وعود كبار القادة بدفع رواتبهم: إنهم يعرفون أنه لا مال لدى الامبراطور ليدفعه وهم لا ينوون أن يحاربوا من

أجله دون مقابل. وبدورهم راح الصناع يعملون بتكاسل في ترميم الأسوار والأبراج، فأية فائدة سيجنونها من حكام الامبراطورية، الذين لا هم لهم إلا نهب خيرات البلاد؟ ثم إن الكسيوس الخامس ليس بأفضل ممن سبقه، كما دلت على ذلك عملية التنكيل بالفقراء المتمردين. كما تبين أن تشكيل المتطوعين لحماية العاصمة ليس بالأمر السهل، صحيح أن بعض الفئات، خاصة الصناع والتجار الموسرين، مستعدة للدفاع عن القسطنطينية،ومتعطشة للنيل من المنافسين الايطاليين المكروهين، وتوجيه ضربة دامية لهم، على غرار تلك، التي وجهتها الغوغاء للاتين في عام ١١٨٢، بيد أن جماهير السكان لم تكن تشاطر كبار التجار والصناع رغبتهم في محاربة الفرسان الغربيين، وذلك للسبب نفسه: من أجل من تحارب؟ أمن أجل الامبراطور وحاشيته الفاسدة؟ أم من أجل القضاة، الذين يسومون الفقراء ظلماً، ويقفون أبداً إلى جانب الأغنياء، أم من أجل السجناء والجلادين؟ كلا، إنها ليست مستعدة لذلك، ولتحاول هذه الزمرة أن تنقذ نفسها بنفسها.

حتى أمام هذا الخطر الداهم استمر الأرستقراطيون في التناحر من أجل الفوز بالمناصب والألقاب الرفيعة، وفي حوك المكائد والدسائس ضد بعضهم البعض. أضف إلى ذلك أن مجموعة من الأعيان كانت موالية لبونيفاتسي، ومستعدة لتنصيبه على العرش، مقابل الحصول على الصلح مع اللاتين. وفي مثل هذه الظروف كان بوسع الكسيوس الخامس أن يوجه ما شاء من الإنذارات النهائية للصليبيين، الذين كانوا على ثقة راسخة بأن سقوط الامبراطورية غنيمة في أيديهم أصبح وشيكا.

وفيما بعد، في عامي ١٢٠٧- ١٢٠٨ كتب الراهب الألزاسي غونتير من دير بيريس، نقلاً عن القس مارتين، أحد المشاركين في الحملة الصليبية، كتب في "تاريخ القسطنطينية" يقول: "قرر جنود الرب، بعد أن تخلصوا من خوفهم الطبيعي، أن يزحفوا على الأعداء المحاصرين، لينتقموا للملك المخنوق، الذي نصبوه على العرش، وأن يطالبوا باستسلام المدينة، وتسليمهم القاتل اللعين، وإلا أحاق بالمدينة الدمار، وبسكانها الإبادة".

"أسوأ من الساراتسين"

ما إن حل الدفء حتى شرع الصليبيون في التحضير للهجوم الحاسم على القسطنطينية. الصيف الماضي تمكن اليونانيون من إفشال عملية الاستيلاء عليها، وهذا ما يجب أن لا يتكرر هذا العام، كما قرر بونيفاتسي وداندولو والقادة الآخرون. ولما كان هؤلاء على قناعة تامة أن القسطنطينية لن تصمد في وجههم، فقد اتفقوا في آذار من عام ١٢٠٤ "على اقتسام جثة الدب قبل اصطياده"، ووقعوا اتفاقية تقاسم الامبراطورية فيما بينهم. ونصت هذه الاتفاقية على توزيع الأراضي والمدن والمناصب بعد زوال بيزنطة، وقيام دولة الفاتحين محلها. وبالتوقيع على هذه الاتفاقية نسي المركيزات والبارونات والكونتات والدوقات- وهذا ما حدث بالفعل- الأهداف السامية، التي جردت الحملة من أجلها لخمس سنوات خلت، حيث خلت الاتفاقية من الإشارة إلى أي من مصر وسورية، وبذلك كشفوا عن أن الرايات الصليبية للحملة مجرد تمويه، وأن الحملة هي مشروع توسعي، لا يمت للدين بصلة.

لم يكن قادة الحملة الدنيويون وحدهم من يتطلع إلى امتشاق السلاح للاستيلاء على بيزنطة، بل وكان قادتها الروحيون يشاطرونهم هذه التطلعات، ولقد باركوها، وبذلوا قصارى جهدهم من أجل إقناع الفرسان بأن الرب يبارك الاستيلاء على القسطنطينية، لأن اليونانيين. بقتلهم امبراطورهم الشرعي- الكسيوس الرابع- فقدوا نهائياً حقهم في حكم بلادهم، وأضاف رجال الدين في عظاتهم، عشية الهجوم الشامل، أن اليونانيين ليسوا مسيحيين حقيقيين. فهم مرتدون عن الدين الصحيح، منشقون عن الكنيسة الكاثوليكية الموحدة، أم المسيحيين قاطبة. إنهم نوع من الهراطقة. فالباباإينوقنتيوس الثالث يقول إن المنشقين "أسوأ من الساراتسين"، ولقد آن الأوان لمعاقبتهم على ارتدادهم عن العقيدة الحقة، وإعادتهم إلى كنف روما. "لذا فإننا نعلن لكم- كما ورد في عظة أحد رجال الدين، أمام جمهور غفير من الصليبيين- أن هذه الحرب جيدة

وعادلة، وإذا ما تحليتم بالنية الطيبة، بالاستيلاء على هذه الأرض، وإخضاعها إلى روما، فزتم بغفران الذنوب، الذي منحه البابا لكل من يلقى حتفه هناك". وباعتراف بيلاردوين فقد شكلت هذه الوعود دعماً كبيراً للأسياد والحجاج، الذين ازدادوا قناعة أن الكنيسة والبابا نفسه يبارك الحرب على القسطنطينية، المرتدة عن المسيحية.

وبالفعل فإن موقف البابا من الاستيلاء على العاصمة اليونانية كان مشجعاً، ويقوم في جوهره على تحريض الصليبيين على الهجوم على القسطنطينية، وإن كان التعبير عن ذلك مبطناً بالرياء والنفاق. ففي رسائله إلى الصليبيين يحظر عليهم إلحاق الضرر ببيزنطة: "إياكم والحرب على المسيحيين إلا في حال وقوفهم حجر عثرة في طريق حملتكم، وإلا إذا ظهر أي سبب آخر منصف وضروري لأن تتصرفوا على نحو آخر". ومن وجهة نظر الصليبيين فقد كان هذا السبب "العادل" و"الضروري" واضحاً جلياً، وبالتالي فإن الاستيلاء على القسطنطينية سيحظى بمباركة البابا التامة، من كل بد.

"لو أنكم رأيتم آنذاك"

شن الصليبيون هجومهم الأول على القسطنطينية فجر التاسع من نيسان ١٢٠٤، وقد جاءت الضربة هذه المرة من البحر. ففي الوقت، الذي نزل فيه الفرسان إلى اليابسة، وقاموا بتفريغ السلاح، واندفعوا نحو الأسوار، انطلقت مراكب البندقيين باتجاه الأبراج، وذلك على الرغم من الريح غير المواتية.

ما إن اقترب الصليبيون، حتى أمطرهم المحاصرون /بالفتح/ بوابل من السهام والحجارة، أما الآت الحصار الواقعة على الشاطئ فقد حولتها قذائف اليونانيين إلى فتات، واندفع الفرسان نحو الأسوار يتسلقونها، حتى إن بعضهم تمكن من ذلك، واشتبك في قتال بالأيدي مع حاملي البلطات اليونانيين. وفيما بعد كتب بيلاردوين زاعماً أن خسائر الصليبيين اقتصرت على شخص واحد، لكن الواقع يدحض هذه المزاعم، فقدمني الصليبيون بخسائر

فادحة، وهذا ما تؤكده حولية نوفغورد، ففي هذه الحولية نقرأ ما ورد على لسان شاهد عيان على تلك الأحداث أن الصليبيين فقدوا في التاسع من نيسان، عند محاولتهم الاستيلاء على أحد الأبراج، حوالي مئة مقاتل. وأخيراً اضطر الصليبيون إلى التراجع مخلفين المعدات المحطمة على الشاطئ، وهكذا فشل هجوم الصليبيين الأول.

بعد ثلاثة أيام، في الثاني عشر من نيسان، شن الفرسان هجومهم من جديد، حيث اندفعوا، وهم يطلقون صيحات الحرب المدوية. وقد تمكن اليونانيون من التشبث بمواقعهم حتى الظهر، لكن وضعهم بدأ يسوء بشكل ملحوظ في فترة ما بعد الظهر، إثر سقوط عدد من الأبراج في أيدي الصليبيين، وكانت ثالثة الأثافي حين تمكن بعض الفرسان والمشاة، تحت سيل من القطران الحارق ووابل من الأحجار، من إحداث ثغرة في السور. ولم يلبث الصليبيون أن دخلوا عبر هذه الثغرة، ثم استولوا على ثلاث بوابات، وحطموها، فأصبح الطريق إلى العاصمة سالكاً.

لم تستطع حامية الكسيوس الخامس، الكثيرة العدد، وغير المتحمسة للقتال، أن تصمد في وجه الفرسان، فبدأت تتقهقر. وهنا اندفع الفرسان، راكبين وراجلين، نحو خيمة الكسيوس الخامس الخضراء، القائمة على تلة عالية، قرب دير كبير، لكن الامبراطور، ما إن رأى تراجع قواته حتى فقد الأمل في النصر، وانسحب تحت جنح الظلام، ليختبيء في قصر فوكاليون. يقول بيلاردوين في وصف تلك الأحداث: "لو أنكم رأيتم آنذاك هزيمة اليونانيين، وكيف راحت قواتنا تستولي على جيادهم وحميرهم وممتلكاتهم الأخرى. كان عدد القتلى والجرحى لا يعد ولا يحصى".

مع حلول الظلام توقف ضجيج القتال، وخيم الصمت. لم يتجاسر الفرسان على التوغل في عمق المدينة، وفضلوا البقاء قرب الأسوار والأبراج، التي استولوا عليها. حتى أنهم حفروا الخنادق من حولهم، تحسباً لمقاومة شرسة من جانب اليونانيين. وخوفاً من هجوم اليونانيين المباغت اقترح أحد الفرسان إضرام النار في الأبنية المجاورة. لكن النار امتدت إلى الأبنية البعيدة، فأتت على قسم كبير من المدينة. كان ذلك ثالث حريق تتعرض له

القسطنطينية على يد الصليبيين، لكنه كان الأكبر والأخطر، فقد التهمت النار، كما يقول بيلاردوين، عدداً من المنازل، يفوق عددها في ثلاث من أكبر المدن الفرنسية". وفي صباح اليوم التالي-١٣ نيسان- انقض الصليبيون على العاصمة اليونانية، وهم يطلقون الصرخات الوحشية فقد كانوا يتوقعون، كما يروي شاهد عيان، أنهم ملاقون مقاومة شرسة ، وأن رحى معركة طاحنة بانتظارهم، لكنهم أخطأوا في ظنونهم، فهم لم يلقوا أية مقاومة في المدينة، وبدا وكأن أحداً لا يعنيه مصير القسطنطينية، فلم يقف أي مكان للدفاع عنها.

والواقع أن عدد القادرين على حمل السلاح بين أهلها كان يفوق عدد الصليبيين عدة مرات، فبينما كان عديد القوات الصليبية لا يتجاوز العشرة آلاف/ والعشرين ألفاً حسب المدونات اللاتينية/، كان تعداد اليونانيين يقرب من أربعمئة ألف، حسب المدونات نفسها. ويهدف المدونون اللاتين من المبالغة في تقدير عدد اليونانيين إلى إظهار بطولات الصليبيين ومهاراتهم القتالية. وفي كل الأحوال فقد تمكن المقاتلون الغربيون خلال أربعة أيام من الاستيلاء على القسطنطينية، المدينة، التي ظلت على مدى ما يقرب من تسعة قرون عصية على الأعداء الكثيرين، الذين حاصروها. حتى أن الصليبيين أنفسهم لم يتمالكوا أنفسهم من فرط الدهشة والفرح عن القول: "إنها لمعجزة أن تحقق مثل هذا الإنجاز على يد هذا العدد القليل من المقاتلين، إذ لم يسبق أن استطاعت مثل هذه الحفنة الصغيرة من المقاتلين ضرب الحصار على مثل هذا العدد الكبير في الناس في أي من المدن".

لكن سر هذه "المعجزة" في غاية البساطة، ويكمن في الخلافات والنزاعات الداخلية، التي كانت وراء سقوط العاصمة في أيدي الفرسان الغربيين بمثل هذه السهولة.

راح الصليبيون، الذين أضناهم انتظار الغنائم، وأجج رجال الدين أوار حماستهم، يعيثون في العاصمة فساداً، فانتقموا بكل وحشية من الأهالي الأبرياء، وعلى مدى ثلاثة أيام ظلت المدينة نهباً للنار والدخان، ومرتعاً للصراخ والأنين. آلاف الناس راحوا ضحية المذابح، والآلاف شردوا من

منازلهم، حتى أولئك الذين لجأوا إلى الكنائس، طلباً للحماية، لم ينجوا من شر الفرسان، الذين اقتحموها، وجردوا الأهالي المساكين من ثيابهم، بحثاً عن الجوهرات، ثم طردوا "المحظوظين" منهم، وعمدوا إلى قتل الباقين.

"لست أعرف من أين أبدأ، وبماذا أختم وصف كل ما اقترفه هؤلاء الناس الأشرار- هكذا يبدأ المدون البيزنطي نيكيتا خونيات حديثة عن تخريب القسطنطينية على يد الصليبيين. وهذا المدون كان شاهد عيان على الأحداث، وكاد يروح هو وأسرته ضحيتها، لكنه نجا على يد أحد معارفه من البندقيين. وفيما بعد وضع وصفاً مسهباً لتلك الأحداث، وما رافقها من الجرائم الوحشية، التي اقترفتها فرسان الصليب.

اندفع الفرسان، وقد جن جنونهم. اقتحموا القصور والمعابد، ومستودعات التجار والمنازل، حطموا الأبواب وكسروا النوافذ، و"استولى كل منهم على المترل، الذي أعجبه، وقد كان عدد هذه المنازل كافياً للجميع". لقد نهب الفرسان، ودمروا، وأحرقوا كل ما صادفوه، حتى أضرحة الأباطرة البيزنطيين لم تنج من شرهم، ظناً منهم أنها غنية بالذهب. وبكلمة مختصرة فإن "محرري قبر الرب" ارتكبوا المجازر في الساحات والبيوت والقصور والكنائس. الذين ادعوا أنهم يقاتلون من أجل إنقاذ المقدسات المسيحية، لم يرحموا حتى المعابد، الغنية بكنوزها. فدنسوا حرماتها، وراحوا يهوون بسيوفهم على الأواني المقدسة والإيقونات القديمة، وينهبون الكؤوس الفضية والذهبية، وينتزعون الأحجار الكريمة عن الصلبان، ويمزقون الستائر الكنسية، المصنوعة من المخمل والديباج، الغالي الثمن.

حتى كنيسة القديسة صوفيا لم تنج من شرهم. فبعد تحطيم بواباتها الضخمة، المؤدية إلى مدخلها المركزي، دنسوا حرمة المبنى، ووقفوا ذاهلين أمام كنوزها الأسطورية. فالإيقونات القديمة، المؤطرة بالذهب، وطاولات المرمر، المغطاة بالنسيج المذهب، والمواد الكنيسة الذهبية والفضية، البالغة الندرة، كل ذلك راح يسطع ويلمع ويبرق، مختلف ألوان قوس قزح. وانقض الفرسان على كنوز الكنيسة، التي لا تقدر بثمن، تحطيماً وتكسيراً ونهباً. ومن ثم أدخلوا الحمير والجياد إلى المعبد، وحملوها بالغنائم. وهكذا لم

يكتف الفرسان- على حد تعبير المؤرخ اليوناني- "بنهب الأملاك الخاصة، بل ونهبوا بيوت الرب، وسيوفهم مشرعة". ثم من هذا الشخص، ذو اللباس الداكن، الذي يتسلل بين المقاتلين المسربلين بالدروع؟ إنه أحد رجال الدين بالطبع. لكن لماذا يجوب أنحاء كنيسة الدير، ويتأمل بمثل هـذا الاهتمام محتويات الآنية الكنسية، التي قلبها الفرسان على الأرض المزخرفة بالفسيفساء؟ وهاهو ينحني بسرعة، ويقبض بأصابعه الملتوية على شيء ما بجشع... وينحني من جديد، ويغرف من الكومة أمامه شيئاً ما، ثم يدسه في جيبه، ذلكم هو القس مارتن من لا ينس، إنه ينقب عن الأشياء الكنسية البالغة الأهمية- رفات القديسين. لقد نسي هذا الصليبي، ذو الغفارة، المطوية عند الخصر، من أجل سرعة الانتقال، نسي الوصية المسيحية أن"لا تسرق"، وهو يتعقد أن الله سيغفر له، لأنه يقوم "بسرقة مباركة"، فهو إنما يسرق رفات القديسين، لكي يضعها لاحقاً في إحدى الكنائس في بلاده.

والقس مارتن ليس رجل الدين الوحيد بين الصليبيين، الـذي يقـوم بـ"السرقة المباركة". فالكثيرون من الرجال المرافقين لجنود المسيح، والذين باركوا الحرب على المدينة المسيحية، لم يكونوا أقل نهباً من الفرسان. حيث راحوا، على غرار القس مارتن، على حد قول المدون الألزاسي، يغرفون الأواني الكنسية من كنائس العاصمة بخاصة، وهم على عجلة من أمرهم، خوفاً من أن يفوتوا نصيبهم من الغنائم. وقد بز الجميع الأسقف الألماني كونراد من غلبيرشتادت، وهو أحد الآباء الروحيين البارزين للصليبيين، فلدى عودته إلى تيورينغيا، بعد عام، كانت برفقته، كما يقول المدون، عربة ملأى بالأواني الكنسية، التي نهبت من كنائس القسطنطينية وأديرتها.

يقول بيلاردوين بزهو: كان ما غنمه الصليبيون في القسطنطينية كبيراً جداً لدرجة "أننا لم نستطع تقدير حجمه".

أما روبير دي كلاري فيقول مبتهجاً: "كان هناك كم كبير من الأوعية الغالية، الذهبية والفضية، والأقمشة المطرزة بخيوط الذهب، والكثير من المجوهرات، كانت هذه الخيرات معجزة حقيقية--- إن ما غنمناه من القسطنطينية يعادل "ثلثي كنوز الدنيا" وبالكاد يمكن أن تجد في أربعين مدينة

من أغنى مدن العالم، ما عثرنا عليه في القسطنطينية".وليس أدل على مـدى ضخامة ما غنمه الصليبيون في القسطنطينية من أن البندقيين عرضوا علـى الفرسان ٤٠٠ ألف مارك فضة لقاء تخليهم عن نصيبهم من الغنيمة. لكـن الفرسان رفضوا هذا العرض، إذ رأوا أنه غير مناسـب، علمـاً أن مبلـغ الـ ٤٠٠ألف مارك يزيد بمقدار الضعف على المبلغ، الذي وعد الكـسيوس الرابع الصليبيين به، وبمقدار خمسة أضعاف على المبلغ، الذي طلبه داندولو من فرسان الصليب في عام ١٢٠١. ومن أجل اكتمال اللوحة لا بـد أن نضيف أن الابداعات الرائعة اليونانية والرومانية القديمة راحت طعماً للنيران والتدمير. فمن المعروف أن العاصمة البيزنطية كانت مدينة متحفـاً، ومـن المعروف أيضاً أن الصليبيين لم يكونوا يفقهون في الفن شيئاً، وكل ما يتقنونه هو عد النقود الرنانة، أما المعالم المعمارية والفنية المنحوتة من المرمر والخشب والعظام، والتي أبدعها كبار الفنانين الاغريق والرومان، فجاءت تحفاً عصية على التقليد، كل ذلك لم يكن يساوي شيئاً في نظرهم فذهب طعماً للتدمير والتخريب، فقد دمرت تماثيل العربجيين الرائعة في ميدان سباق الخيل، المجاور للقصر الامبراطوري الكبير، كما دكت الأعمدة والقناطر الرشيقة في ساحة أوغسطيون، ودون رأفة حطم الصليبيون التحف الفنية المصنوعة من الذهب والفضة والبرونز، وحولوها إلى سبائك، وقد أحاق هذا المصير المحزن بتمثال الإلهة هيرا ساموس البرونزي، والذي كان يزين إحدى ساحات العاصـمة، لقد حطم الصليبيون تمثال ربة العالم السفلي، وحولوه إلى قطع معدنية يسهل نقلها. والشيء نفسه جرى لتمثال هرقل البرونزي العملاق، إحدى روائـع الفنان العبقري ليسيبه، الذي عمل في بلاط الكسندر المقدوني، (صور هرقل جالساً يرتاح من اجتراح المآثر، وقد ألقى جلد الأسد على كتفيه). كمـا دمر الصليبيون تمثالاً رائعاً لبطل إغريقي أسطوري آخر هو بيليروفون، وهو متربع على صهوة بيغاس المجنح، المندفع نحو الأولمب. وكان هذا التمثال من الضخامة لدرجة أن "عشرة من طيور مالك الحزين- كما يقول روبير دي كلاري- بنت أعشاشها على كفل الحصان، وفي كل عام كانت الطيـور تعود إلى أعشاشها، وتضع بيوضها" كما لم يرأف المخربون الغربيون بتمثال

الذئبة، التي أرضعت روموس، ورمولوس (مؤسسي روما) ولا بتمثال باريس، الذي رمى بالتفاحة لفينوس، ولا حتى بتمثال العذراء، القائم وسط المدينة.

قلة من معالم القسطنطينية الفنية نجت من النهب والتخريب.

أما داندولو فقد أوعز بنقل أحد تماثيل ليسيبه الرائعة إلى البندقية، والتمثال عبارة عن أربعة أحصنة برونزية مطلية بالذهب، كانت تزين المنصة الامبراطورية في ميدان سباق الخيل. لم تكن تلك الرحلة الأولى ولا الأخيرة لهذه الجياد الأربعة. فقبل ذلك بأكثر من ١٢٠٠ عام، نقلها الامبراطور أوكتافيوس أوغسط من الاسكندرية إلى روما، ليزين بها قوس نصرة، ومن ثم وضعت هذه الجياد على قوس نيرون تارة، وعلى قوس تراجان تارة أخرى، إلى أن نقلها الامبراطور قنسطنطين إلى ميدان سباق الخيل في عاصمة الامبراطورية الروماني- الشرقية. وفيما بعد، في عام ١٢٠٤، وضع هذا التمثال على مدخل كاتدرائية القديس مارك في البندقية، حيث لا يزال حتى يومنا هذا، ولا بد من الاشارة هنا إلى أن نابليون قام بعد ستمائة عام، ولدى استيلائه على البندقية عام ١٧٩٧ بنقل هذا التمثال إلى باريس، وبقي يزين قوس النصر حتى عام ١٨١٥، عاد بعدها ليستقر مكانه، أمام مدخل كاتدرائية القديس مارك في البندقية.

لم يكتف جنود الصليب بتدمير الأعمال الفنية فقط، بل وحولوا إلى رماد محتويات مكتبة القسطنطينية المشهورة، بما فيها الكثير من لفائف المخطوطات، والكتب النادرة، التي لا تقدر بثمن، ومؤلفات الفلاسفة والكتاب القدماء، والنصوص الدينية...

استمرت أعمال التدمير والنهب ثلاثة أيام، لكنها كانت كافية لأن تجعل العاصمة القسطنطينية عاجزة عن التخلص من نتائج غزو الصليبيين.

لكن ماذا فعل إينوقنتيوس الثالث؟ هــل يعقــل أن رأس الكنيــسة الكاثوليكية غض الطرف عن بطولات الصليبيين في السلب والنهب؟ لقــد أثار سلوك الصليبيين الهمجي استياءه، لكن إلى حين. في البداية بعث لهــم رسالة احتجاج، يقرعهم فيها: "لقد فضلتم خيرات الدنيا الزائلة على نعــيم الآخرة، واستبدلتم باستعادة الأرض المقدسة الاستيلاء على القــسطنطينية" ولأنهم لم يكتفوا بنهب كنوز الأباطرة وقصور الأعيان وبيوت الفقراء، بل "وتطاولتم على الأملاك الكنسية والمواد المقدسة، فنهبتم الثيــاب المقدســة والإيقونات والصلبان ورفات القديسين".

صحيح أن استياء البابا جاء بهذا الشكل الحاد والصارم، لكنه لم يكن صادقاً تماماً، وهذا ما أكدته الأحداث اللاحقــة، إذ لم يلبــث أن صــفح للصليبيين عما اقترفوه، واعتبر في إحدى رسائله أن سقوط القسطنطينية عام ١٢٠٤ كان "معجزة ربانية" وأن الامبراطورية الإغريقية "انتقلت إلى اللاتين بحكم رباني عادل، حتى أنه وجد المبررات اللازمة لجــرائم الــصليبيين في القسطنطينية، إذ اعتبرها مجرد عقاب سماوي للبيزنطيين على ارتدادهم عــن العقيدة الحقة. وهكذا فقد منح البابا الصليبيين بركاته، وغفر لهم جرائمهم ووحشيتهم.

لقد شكل الاستيلاء على القسطنطينية ونهبها وحرقها وصمة عــار لا تمحى، وواحدة من أكبر جرائم الغرب الأقطاعي والكنيسة الكاثوليكية ضد الحضارة البشرية. بيد أن الحملة الصليبية الرابعة لم تكن استثناء ولا ظاهرة عابرة في تاريخ الحروب المقدسة، التي خاضتها الكاثوليكية ككل، وكل ما في الأمر أنها كشفت بكل وضوح عن الدوافع الحقيقية العميقة لأبطالهــا: التوسع وجني الثروات. فبدلاً من السعي لاسترجاع قبر الرب في القــدس، قامت القوات البابوية باحتلال العاصمة البيزنطية المسيحية ونهبها وتدميرها.

وهكذا سقطت الامبراطورية البيزنطية، وعلى أنقاضها أقــام الغــزاة دولتهم، التي عرفت باسم الامبراطورية اللاتينية، والتي لم تعمر إلا نــصف

قرن ونيف، فقد كانت دويلة أقطاعية ضعيفة، مثلها مثل الدويلات الأخرى، التي أقامها الصليبيون في الشرق.

أكثر من مرة تمرد اليونانيون ضد الغزاة الغربيين، الذين استولوا على بلادهم. وأخيراً، في عام ١٢٦١، سقطت الامبراطورية اللاتينية، وعادت الامبراطورية البيزنطية تتبوأ مكانتها على خارطة العالم السياسية. لكن نصف قرن من الاحتلال جعلها أكثر ضعفاً من الماضي، وحولها لاحقاً إلى مجرد ظل للامبراطورية البيزنطية الجبارة الغابرة.

أخيراً فإن الدعاوة الغربية والكنيسة بخاصة، حاولت جاهدة إحاطة الحملات الصليبية بهالة من القدسية وأعمال التقوى، لكن الأحداث، وبخاصة ما تمخضت عنه الحملة الصليبية الرابعة، كشفت زيف هذه الادعاءات، وعرت الجوهر الحقيقي للحروب الأقطاعية التوسعية الدامية، التي حظيت بمباركة الدين والكنيسة.

خاتمة

لماذا فشلت الحملات الصليبية؟

لم تكن الحملة الصليبية الرابعة آخر حروب فرسان الصليب التوسعية في الشرق. فقد شهد القرن الثالث عشر حملات صليبية جديدة، أما عددها فيختلف المؤرخون في تحديده. إذ غالباً ما كان الفرسان الغربيون يتوجهون نحو سواحل سورية وفلسطين على شكل مجموعات صغيرة، وعادة ما يسقط المؤرخون هذه الغزوات الصغيرة من حساباتهم، ويضمونها إلى الحروب، الأكبر نسبياً، التي خاضها الصليبيون في الأرض المقدسة. ومع هذا فإن بعض مشاريع الفرسان الثانوية في الشرق صنف في عداد الحملات الصليبية المميزة، وهكذا فإن البعض يقول إن عدد الحملات هو ثمان، وست عشرة، برأي البعض الآخر. لكن أهم هذه الحملات، من حيث عدد المشاركين فيها هي الحملة الخامسة (١٢١٧-١٢٢١)، والسادسة (١٢٢٨-١٢٢٩)، والسابعة (١٢٤٨- ١٢٥٤)، والثامنة (١٢٧٠).

حاول الصليبيون توجيه الضربات للمسلمين في مصر وسورية وفلسطين، وحتى في تونس، حيث لقي الكثير من الفرسان الفرنسيين مصرعهم، وحيث قضى الملك الفرنسي لويس التاسع المقدس نفسه، بعد أن أصيب بالطاعون. لكن هذه الحملات كلها باءت بالفشل الذريع، وذلك لأسباب عديدة.

فقد ترسخت قناعة الفلاحين البائسين أن الحملات الصليبية لا تعود عليهم بأية فوائد، هذا عداك عن الويلات، التي تجرها عليهم، فتخلوا عن التفكير في البحث فيها عن ملاذ لهم، هرباً من الرق الأقطاعي. لا بل إن بعض الفلاحين راحوا يحملون السلاح، ليس بهدف تحرير القدس، النائية بل من أجل الانتقام من أعدائهم الحقيقيين- البارونات والأساقفة، الذين

يسومونهم شتى أنواع التعسف والظلم. وهذا بالذات ما حدث أثناء الحملة الصليبية السابعة، حين انقض مزارعو شمالي فرنسا، الزاحفون تحت راية الصليب، نحو جنوبي البلاد، على رؤوس أسيادهم الأقطاعيين والرهبان والخوارنة.

وبدورهم راح الفرسان، مع مرور الزمن، يفقدون اهتمامهم بالحروب في ما وراء البحار، وأصبحوا يفضلون العمل في صفوف الجيوش الملكية، أو لدى البلاط، فما الداعي لركوب المخاطر، وقطع المسافات الشاسعة، ما دامت الخدمة الملكية تؤمن لهم المداخيل الجيدة؟ أضف إلى ذلك الاهتمامات والمصالح الداخلية، التي جعلت الأقطاعيين يفضلون البقاء في ديارهم.

فإنجلترا مشغولة بالنضال من أجل ميثاق الحريات، ومن ثم البرلمان، وفرنسا بالحروب. وإسبانيا بالحرب ضد المغاربة، أما في المانيا فقد تورط الإقطاعيون في حروب الأباطرة ضد البابوات، بينما فضل الفرسان الجرمان غزو الأراضي السلافية والبلطيقية الأقرب من فلسطين.

أخيراً فإن تجار شمالي إيطاليا وجنوبي فرنسا وإسبانيا ازدادوا في القرن الثالث عشر قناعة أن من الخطأ شن الحروب ضد السلاطين والأمراء، والبحث عن الامتيازات في الدويلات الصليبية، فهي امتيازات هشة، وأن من الأفضل أن يمارسوا التجارة، ذات المنافع المتبادلة مع بلدان الشرق، ويبرموا الاتفاقيات الناظمة لذلك، ويبادلوا منتجات الشرق بالبضائع الأوربية. هكذا بدأ اهتمام الغرب بالحملات الصليبية يخف، مما أدى إلى فشل الخطط الصليبية الأخيرة.

أضف إلى هذا أن الفرنجة، الذين استقروا في سورية وفلسطين في أعقاب الحملة الأولى، والأصح الأجيال اللاحقة منهم، لم يرحبوا كثيراً بالصليبيين الجدد، القادمين من أوربا، ودون أن يعيروا العوامل الدينية أية أهمية، بدأوا يتقربون من أمراء المسلمين، بدل محاربتهم، لأن ذلك كان أنجع بكثير من ناحية المصالح العملية.

ومن أجل حماية مصالحهم أسس الصليبيون، الذين استقروا في الأرض المقدسة، أخويتين خاصتين أو وسامين- الهيكليين والأوسبيتاليين، وذلك

بدعم من بابوات روما. و لم يكن الهيكليون يختلفون عن الأوسبيتاليين إلا بالثياب، فبينما كان أعضاء الأخوية الأولى يلبسون الرداء الأبيض، الذي يحمل الصليب الأحمر، كان أعضاء الثانية يلبسون الرداء الأسود، ذا الصليب الأبيض. ولدى الانتساب إلى هذين الوسامين كان الفرسان يقسمون أنهم سيكرسون نفسهم بالكامل لحماية القبر المقدس، وينذرون أن لا يكوّنوا الأسر، وأن لا يتطلعوا إلى الإثراء، وأن يطيعوا الأقدم منهم في الوسام طاعة مطلقة في القتال ضد "الكفار". وحتى أعضاء هذين الوسامين فقدوا كل اهتمام بخدمة بابوات روما وحماية قبر الرب، وتحولوا إلى ملاك عاديين، لا هم لهم إلا كسب المال والأرض، سواء على حساب المسلمين أو المسيحيين، فاقتنى الهيكليون، مثلاً أسطولاً للنقل والتجارة، لا بل لم يتورعوا عن ممارسة الربا، وكان اهتمامهم بالتنافس فيما بينهم يفوق اهتمامهم بالدفاع عن المقدسات المسيحية.

في هذه الظروف بدأت الدويلات الصليبية، الضعيفة أصلاً، والتي لم تعد تحصل على أي دعم من الخارج، تسير نحو الانحطاط، ووجدت نفسها عاجزة عن التصدي لضغط المسلمين المتزايد. ففي عام ١٢٤٤ انتزع المصريون القدس وكان الامبراطور فريدريك الثاني، الذي تزعم الحملة الصليبية السادسة، قد استعادها قبل ذلك بخمسة عشر عاماً

وبعد ٤٥ عاماً من فشل الحملة الصليبية الأخيرة استولى السلطان قلاوون على طرابلس، وفي عام ١٢٩١ استولى السلطان المصري على عكا، آخر معاقل الفرنجة. وهكذا لم تأت نهاية القرن الثالث عشر إلا وتم وضع حد لسيطرة الاقطاعيين الغربيين في الشرق الأدنى وللحملات الصليبية إجمالاً.

هل كسب الغرب من الحملات الصليبية؟

هل أدت الحملات الصليبية إلى تغييرات هامة في حياة الشعوب الأوروبية؟ يرد علم التاريخ بالنفي على هذا السؤال. لكن مما لا شك فيه أن الشرق الإسلامي ترك أثراً كبيراً على مختلف جوانب حياة المجتمع الاقطاعي

في أوربا الغربية الثقافية المادية، على العادات الاجتماعية وغيرها، وهاكم بعض الأمثلة التي تؤكد ذلك.

في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بدأت أوربا الغربية زراعة الحنطة السوداء، الرز، البطيخ، المشمش والليمون، على غرار البلدان الإسلامية، كما تعرفت للمرة الأولى على قصب السكر، إذ لم يكن الغرب يعرف قبل ذلك غير العسل.

وفي القرن الثاني عشر بدأت أوربا بناء الطواحين الهوائية[×] ، التي رآها الفرسان في سورية، وظهرت فيها الأقمشة الشرقية المنشأ مثل الأطلس والموسلين،/نسبة إلى مدينة الموصل/، والدامست، /نسبة إلى دمشق/. كما بدأت في أورربا تربية الحمام الزاجل، التي أخذوها عن العرب، ثم إن سكان أوروبا الغربية لم يكونوا يتحممون إلا بالماء البارد، ويرتدون الثياب حتى تبلى، أما في بلدان الشرق فقد عرفوا الحمامات الساخنة واستبدال الثياب باستمرار.

لكن كل هذه الوقائع الهامة لاتمت بصلة لأولئك الذين حملوا راية الصليب، فقد كان الغرب القروسطي قد تعرف على الشرق قبل الحملات الصليبية بفترة طويلة، و لم يحدث انتقال الحضارة الشرقية إلى الغرب عبر الدويلات الصليبية في سورية وفلسطين، بقدر ما تم من خلال الأندلس الإسلامية وصقلية العربية، ومن خلال بيزنطة بشكل خاص. وهذا شيء بديهي، إذ هل يستطيع الفرسان، المندفعون وراء جني الثروات، وتحقيق الأطماع التوسعية، أن يساهموا في نقل حضارة الشرق إلى الغرب؟ أبداً، لم يكن الاحتكاك بالشرق مجدياً لأوروبا، إلا إذا تم في إطار العلاقات السلمية – التجارة وتبادل المعارف، أما ذلك الاحتكاك في إطار الحروب الدامية، التي شنت باسم الدين، فقد تمخض عن عواقب وخيمة للطرفين، وسَعّر العداء للشرق في الغرب وللغرب في الشرق، وهو عداء أُلبس عباءة الدين، والدين منه براء.

[×] ربما يقصد المؤلف / النواعير/ المترجم

أما التأثير المباشر للحملات الصليبية نفسها على ثقافة الغرب الاقطاعي وحياته الاجتماعية، فقد اقتصر على ما جلبه الفرسان من سورية وفلسطين من تروس، نقلوا رسومها من تروس خصومهم- العرب والسلاجقة، هـذا بالإضافة إلى عدد من الأدوات الموسيقية، التي استخدمت لعزف الموسـيقى العسكرية أثناء القتال.

بيد أن الحملات الصليبية كانت ذات تأثير كبير، غير مباشر، علـى تطور المجتمع الاقطاعي في أوروبا الغربية، فالفرسان- الـصليبيون، الـذين تعرفوا على حياة الشرق، لم يعودوا يرغبون في أن يعيشوا كمـا يعـيش الأوروبيون الغربيون، بعد أن تذوقوا الأطباق الشرقية الـشهية، والخمـور اللذيذة، وعرفوا السجاد الفاخر، لكن اقتناء هذا كله يتطلب النقود، ولـذا فقد راح الإقطاعيون يتخلون عن التحصيل العيني، ويستبدلون به النقـود الرنانة، حتى إن بعض الأسياد راح يعتق الفلاحين لقاء فدية. وراحت المدن تحصل من أسيادها البارونات والكونتات على الحريات المختلفة مقابل المال، وتحولت إلى كومونات حرة، لكن ذلك كله بدأ يجري في الغرب بعيداً عن تأثير الحملات الصليبية، لا بل وبدأ قبلها. أما أسباب هذه التغيرات العميقة فكانت داخلية، تكمن في التقدم الاقتصادي المتطور بالتدريج، وإن ببطء.

أما تلك الفوائد القليلة، التي تمخضت عن الحمـلات الـصليبية، وإن بشكل غير مباشر، فقد دفع الغرب ثمنها باهظاً جداً، حيـث أودت بحيـاة مئات الآلاف، لا بل و الملايين عبثاً، كما هدرت الثروات الطائلة، ودمرت المعالم الأثرية النادرة من الحضارات القديمة والقروسطية. ومما لاشك فيه أن الغربيين كان من شأنهم أن يجنوا الكثير لو أنهم تمكنوا من أن يستعيضوا عن تنظيم الحملات الصليبية، التي باءت بالفشل الذريع، بإقامة علاقات سلمية مع بلدان الشرق.

الصليبيون الجدد

على الرغم من أن التاريخ طوى القرون الوسطى منذ عهد بعيد، فلا تزال بعض الأوساط الامبريالية تعود إلى الفكرة الكنسية للحملات الصليبية، بهدف تحقيق أهدافها قي الشرق.

ففي عام ١٩٣٠ أعلن البابا بيوس الحادي عشر الحملة الصليبية ضد الاتحاد السوفيتي، لكن هذه الحملة باءت بالفشل.

وبعد عدة سنوات وجدت فكرة الصليبية أنصارها الجدد في صفوف الفاشية الإيطالية والاسبانية والألمانية.

ومرت الأعوام، ولا تزال فكرة الحملة الصليبية تسيطر على عقول العديد من الشخصيات السياسية والعسكرية والدينية في الغرب، وذلك من أجل التستر على الأهداف التوسعية في الشرق، دون أن يتعظوا من العبر التاريخية، فالحملات الصليبية كلها باءت في خاتمة المطاف بالفشل الذريع، وعلى مر القرون انتهى استغلال الدين للأغراض التوسعية بالهزيمة النكراء، لمن دعوا إلى هذا الاستغلال/ ولمن شاركوا في تنفيذه على أرض الواقع.

المحتوى

أمام حقيقة التاريخ.
الفصل الأول: كيف ظهرت الحملات الصليبية، ومن كان بحاجة إليها.
الفصل الثاني: الأمل بالحصول على الحرية.
الفصل الثالث: أمن أجل قبر الرب؟.
الفصل الربع: في سبيل المسيحية.
الفصل الخامس: بمباركة الحبر الأعظم.
خاتمة.

الكاتب في سطور

يعتبر ميخائيل زابوروف، الدكتور في العلوم التاريخية، من أشهر المتخصصين السوفيت في دراسة الحملات الصليبية، التي كرس لها سنوات عديدة من حياته، ومن أبرز أعماله:

-" الحروب الصليبية"، صدر عام ١٩٥٦

-" البابوية والحروب الصليبية"، "، صدر عام ١٩٦٠

- الصليبيون وحملاتهم على الشرق"، صدر عام ١٩٦٢

-" مقدمة في علم تاريخ الحروب الصليبية"، صدر عام ١٩٦٦

-" تاريخ الحروب الصليبية: وثائق ومواد"، صدر عام ١٩٧٧

-" بالسيف والصليب" صدر عام ١٩٧٩

-"ا الصليبيون في الشرق" صدر عام ١٩٨٠

صدر عن دار الرأي

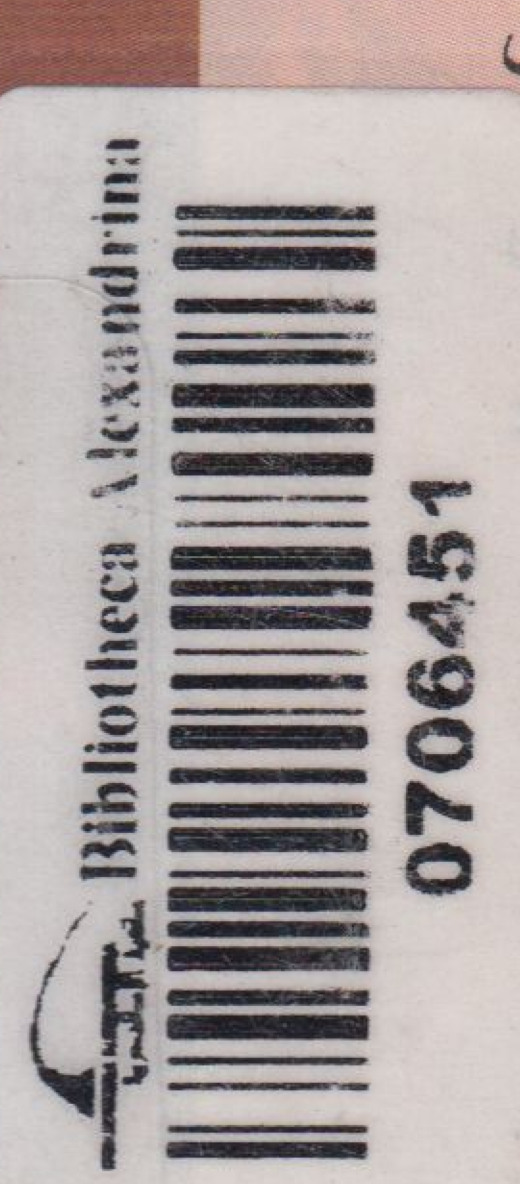
بالسيف و الصليب

لتسعة قرون خلت، تنادى الغرب من أقصاه إلى أقصاه، واندفع نحو الشرق غازياً، ملبياً دعوة البابا أوربان الثاني، لإنقاذ القدس، التي تستغيث، وقبر السيد المسيح، الذي يدنس، ومد يد العون لمسيحيي الشرق المضطهدين.

واليوم يتنادى الغرب، ويندفع نحو الشرق غازياً، ملبياً دعوة الإدارة الأمريكية، لإنقاذ الديمقراطية، ومكافحة الإرهاب، ومد يد العون لشعوب الشرق، المغلوبة على أمرها.

لقد رفعت الحملات الصليبية على الشرق راية الدين، والدين منها براء، ورفعت الحملات الصليبية الأمريكية المعاصرة على الشرق راية الديمقراطية، لكن الدين والديمقراطية منها براء.

وكان الأجدى بهذه وتلك أن ترفعا راية واحدة، لا تمت لا للدين ولا للديمقراطية بصلة- راية التوسع والنهب- فالعامل الاقتصادي كان، ولا يزال القاسم المشترك بينهما، والمحرك الأساسي لهما، مهما بذلت المحاولات من أجل طمس الحقائق، وذر الرماد في العيون.





دار الرأي للنشر والتوزيع

www.daralrai.net